

والقوى المضادة

تأليف

الدكتور محمد أحمد خلف الله

الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية

وهو الذى يقول : « فلعلك تارك بعض مايوحى إليك ، وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك ... إلى آخر الآية » .

وهو الذى يقول : « فلعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين » .

وهو الذى يقول : « فاصبر على مايقولون واهجرهم هجرا جميلا » .

* * *

والقرآن الكريم لم يقف بهذه التسجيلات عند الحالة الفردية التى تخص محمدا عليه السلام ، وإنما تجاوزها إلى مايخص غيره من الرسل والأنبياء ، ووضعها فى قوالب أو فى صيغ تشعر بأنها من النواميس النفسية ، ومن السنن الاجتماعية التى لم تتخلف فى أى زمان ، وفى أى مكان .

إنها حالة لا ينفرد بها محمد عليه السلام .

ويشير القرآن الكريم إلى أن هذا الصراع الفكرى لم يكن من جانب المعارضة صراعا يعتمد على الحق والمنطق السليم ، فإنما كان يتجاوزه إلى ماهو القذف بالباطل ، والإتهام بما يشين .

وقد كان محمد عليه السلام هو وغيره من الرسل والأنبياء فى ذلك على حد سواء .

وهذه هى الآيات التى تشير إلى ذلك كله .

يقول الله تعالى : « فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات ، والزبر ، والكتاب المنير . . »

ويقول : « وكم أرسلنا من نبى فى الأولين ، ومايأتيهم من نبى إلا كانوا به يستهزءون ».

ويقول : « كذلك ماأتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون. أتواصوا به بل هم قوم طاغون » .

ويقول : « ياحسرة على العباد مايأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون »

ويقول : « وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين » .

ويقول : « ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الأولين ، وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون . . » .

* * *

والقرآن الكريم حين يشير إلى هذه الحقائق إنما يشير فى الوقت ذاته إلى أن القيادةالروحيةليست بالسهلة ولا اليسيرة حتّى ولو كان القائد من عند الله،ومؤيدا بروح الله .

إن القيادة معاناه ، وتحتاج إلى شىء غير قليل من الصبر ، ومن ضبط النفس .

« ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ،وجادلهم بالتى هى أحسن» .

ونصر الله للمخلصين من الأنبياء والمرسلين، ومن المؤمنين،سيكون حتما،ولكن بعد أن يدرك كل هؤلاء أن القيادة الحكيمة ليست إلا بالصبر على المكاره ، وإلا بالجهد والمعاناه .

فالله العليم الحكيم هو الذى يقول لمحمد عليه السلام :«فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » .

وهو الذى يقول له : « ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا . . . . » .

وهو الذى يقول : « حتى إذا استيأس الرسل ، وظنوا أنهم قد كذبوا ، جاءهم نصرنا . . . . » .

وهو الذى قطع على نفسه عهدا حين قال : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد . . . . » .

ولسنا نشك فى أن الله القوى العزيز قادر على أن ينصر رسله إلى الناس منذ اللحظات الأولى التى اختارهم فيها أنبياء ، وبعثهم فيها مرسلين إلى الناس .ولكن

حكمته هى التى اقتضت تأخير هذا النصر ، لتكون هذه النواميس الاجتماعية التى تمارس بها الحياة فى جميع الأزمنة والأمكنة ، تلك الأزمنة والأمكنة التى لن يكون فيها رسل وأنبياء .

لقد اقتضت حكمته أن يكون محمد بن عبد الله عليه السلام خاتم النبيين وآخر المرسلين ، وسيكون القادة الدينيون من بعده من عامة الناس . فيجب أن يدرك هؤلاء الناس أن القيادة مسئوليات جسام ، وصبر ومعاناه .

ولنا عودة إلى هذه المسألة فى الفصول المقبلة إن شاء الله .

* * *

والمشكلات التى قام بشأنها صراع فكرى ، ودار من حولها شيء غير قليل من الجدل والحوار ، والتى تستحق من وجهة نظرنا الوقوف الطويل عندها من حيث قدرتها على إفادة الناس فى عصرنا هذا وتلبية متطلبات الحياة ، تكاد تنحصر فى ثلاث مشكلات رئيسية :

الأولى : — تدور حول اختيار محمد بن عبد الله عليه السلام نبيا رسولا ، وكيف كان هذا الإختيار على غير ما يتوقع الكثيرون من الناس — وبخاصة من هم من القيادات الدينية والقيادات المدنية فى المجتمع المكى بالذات .

إن مجافاة هذا الإختيار لما كان يعرف الناس فى ذلك الوقت من أفكار هو السبب المباشر فى قيام ما كان بين محمد عليه السلام وهؤلاء الناس من صراع فكرى ، ومن جدل أو حوار .

والثانية : — تدور حول الوحدة ، ذلك لأن الدعوة الإسلامية إنما تدعو إلى التوحيد ، وإلى القضاء على الفرقة — تلك الفرقة التى تمثلت فى البيئة فى آلهة عديدة وفى مذاهب دينية شتى .

ولم تكن البيئة العربية فى ذلك الوقت لتتقبل من محمد عليه السلام مثل هذه الدعوة . ومن هنا نبت الصراع الفكرى ، وجرى فيما بينه وبينهم شيء غير قليل من الجدل والحوار .

والثالثة : — تدور حــول الحياة الآخرة ، أو حـــول يوم القيامة ـــ ذلك اليوم الذى يبعث فيـــــه الناس من قبورهم ليحاسبوا عن كل صغيرة وكبيرة من أعمالهم .

وكان الناس فى هذه البيئة ينكرون البعث والنشور ، أويرونه على غير الصورة التى يدعو إليها محمد عليه السلام ، ومن هنا نبت هذا الصراع الفكرى ، وجرى ذلك الجدل وذاك الحوار .

* * *

ووقوفنا نحن عند هذه المشكلات الثلاث لم يـكن لأنها المشكلات الرئيسية فحسب ، وإنما كان لأنها أيضاً المشكلات التي لاتزال تلح علينا فى عالمنا المعاصر ، وتتطلب منا حلا .

فالمشكلة الأولى ، وهى مشكلة إختيارمحمد بن عبد الله عليه‌السلام نبيارسولا ، قد جرت الحوار إلى بشرية الرسل، وإلى صلة هؤلاءالرسل بأقوامهم ، وإلى التفاف الفقراء من حولهم .

وهى التى تجرنا إلى الحديث عن القيادة الشعبية من وجهة النظر الدينية ، وتزودنا بالـكثير من الأفـكار الرئيسية التى يمـكن أن تـكون أساسـاً لنظرية دينية عن القيادة الشعبية .

والمشكلة الثانية ، وهى مشكلة التوحيدمن بعد التعدد ، أو مشكلة الوحدة من بعد الفرقة والإنقسام ، تزودنا بالأفـكار الرئيسية التى يمـكن أن نعتمد عليها فى رسم صيغة للوحدة الوطنية بعد هذه التجزئات الإستعمارية ، وفى اختيار الوسائل الـكفيلة والقادرة على تحقيق وحدة عربية .

والمشكلة الثالثة ، وهى التى تدور حول الحياة الآخرة تجرنا حتما إلى الحديث عن العدالة فى أية صورة من صورها . فى صورتها القانونية ، أو فى صورتها الاجتماعية ، أو فى صور أخرى يمكن أن يراها الناس صورة من صور العدالة .

إن الحياة الآخرة هى التى تتحقق فيها العدالة — تلك العدالة التى لا يزال الناس يجتهدون فى تحقيقها .

« ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً » .

وصدق الله العظيم

* * *

هذا كله إلى جانب ما يمكن أن تمدنا به هذه المشكلات ومادار حولها من صراع فكرى ، من أساليب للجدل وطرق للحوار تنفعنا فى هذا العصر الحديث — حين تختلف وجهات النظر فى العديد من القضايا والمشكلات .

لقد كان القرآن الكريم يبصر محمدا عليه السلام بما يجب أن يكون عليه مع المخالفين له فى الرأى أو فى العقيدة ، وما أحرانا فى عصرنا هذا بأن نتأدب بما تأدب به محمد عليه السلام .

إن هذا الكتاب يقص علينا موقف القوى المضادة من محمد عليه السلام ، وموقف محمد عليه السلام من تلك القوى المضادة . كما يقص علينا أيضاً كيف كان النصر فى النهاية لمحمد عليه السلام .

إن الأساليب والوسائل التى حققت لمحمد عليه السلام النصر ليست إلا من سنن الله — تلك السنن التى لا تتبدل ، وما أحرانا بالتعرف عليها لتكون وسيلتنا إلى النصر بإذن الله .

* * *

وتبقى بعد ذلك إشارة عابرة .

هذا الكتاب هو البحث الذى قدمته لكلية الآداب لنيل درجة الماجستير . ونلت به الدرجة المذكورة برتبة الامتياز مع مرتبة الشرف من الطبقة الأولى — وكان ذلك فى عام ١٩٤٢ .

وهأنذا أقدمه للناس بعد ثلاثين عاما من كتابته .

لقد حدث فيه تغيير طفيف .

لقد كان اسمه « جدل القرآن » وهاأنذا أقدمه للناس تحت اسم جديد هو « محمد والقوى المضادة » .

إن المعنى واحد. فالقوى المضادة ليست إلا الطرف الثانى فى الجدل ، إنهم الذين كانوا يجادلون محمدا عليه السلام .

والسر فى تغيير العنوان هو أن العنوان الجديد أليق لهذا العصر الذى نعيش فيه — ذلك العصر الذى يعنى بالقوى البشرية عنايته بالحقائق العلمية .

إن العنوان الأول يحقق قيمة منطقية أو فلسفية ، والعنوان الثانى يحقق قيمة اجتماعية فى عصر نعنى فيه كل العناية بالظواهر الاجتماعية والقوى البشرية .

وأحدثت أيضاً تغييرات فى مواقع فصول الكتاب من حيث التقديم والتأخير، ومن حيث العرض وأسلوب التناول .

إن ماأحدثته من تعديلات لم يكن فى الواقع كبيرا ،فإنما هو النذر اليسير وإنى لأرجو أن ينفع به الله كل قارىء وعى مافيه وتدبره .

والســـــلام .

دكتور

محمد أحمد خلف الله

١٩٧٢

القسم الأول

مشكلات ثلاث

المشكلة الأولى

١

كانت مشكلته الأولى ، أو مشكلته الكبرى ، أنه أصبح محمدا رسول الله ، بعد أن كان فردا عاديا يعرف فى قومه وبين أترابه ولدانه باسم محمد بن عبد الله .

وكان الذين يعرفونه باسم محمد بن عبدالله يعرفون من حالاته ، ومن صفاته الشيء الكثير . فقد ولد فيهم ، وتربى بينهم ، وعاش أربعين سنة أو تزيد على مقربة من الكثيرين منهم . فكانوا يسمعون أقواله ، ويشاهدون أعماله ، ويرونه رأى العين فى كل مايأخذ ومايدع من الأمور .

وكونت هذه الرؤية أو تلك المشاهدة رصيدا هائلا من المعرفة به ، وبأحداث حياته ، وبكل الوقائع الاجتماعية التى شارك فيها بالقول أو بالعمل ، عند الذين عايشوه وعاصروا هذه المرحلة الأولى من مراحل حياته .

وهذا الرصيد الهائل من المعرفة لم يصلنا كله ، فالذى بلغنا من معاصريه عنه ، لم يكن إلا النذر اليسير الذى لايشبع نهمنا إلى المعرفة ، ولايشفى غليلنافى التعرف على كل وقائع حياته فى السنوات الأربعين الأولى من عمره — أى قبل أن يبعث نبيا رسولا .

ولم يكن فى هذا الموقف مايشير إلى إهمالهم لشأنه أو استصغارهم لأمره — فحاشاه من ذلك . وإنه عندهم ليس إلا الصادق الأمين ، الذى يحتكمون إليه فى المهمات ، وينزلون عند حكمه لما يعرفونه فيه من رجاحة العقل ، وبعد النظر ، وصواب الحكم .

لم يكن ذلك إلا جريا على سنن الحياة ، وتمشيا مع منطق التاريخ . فالتاريخ لايعبأ أبدا بمن هم على شاكلته من أبناء الأوساط من الناس . إنه يتركهم وشأنهم، يتوهون فى زحمة الحياة فى السنين الأولى من حياتهم .

إن التاريخ إنما يعنى بمولد أبناء الذين فى أيديهم السلطة من الحكام والأمراء، وأصحاب النفوذ والجاه .

إنه يزف البشرى للناس قبل المولد بأيام ، وقد يكون بأشهر .

وإن الأفراح إنما تقام ، والأعلام إنما تنصب ، عند مولد هؤلاء .

وإن التاريخ إنما يصيخ بسمعه ، ويرنو ببصره ، لكل مايفعل هؤلاء حتى ولو كان هذا الذى يفعلون من الحماقات ، أو من السخافات .

إن التاريخ إنما يهتم راضيا أو كارها بهؤلاء ، وبمن هم من أمثال هؤلاء .

أما أبناء الكادحين ممن يولدون فى الأزقة والحارات ، أو على رمال الصحراء، أو فى أية بيئة شعبية ، فليس من منطق التاريخ أن يعنى بهم وينظر إليهم على أنهم أهل لرعايته ، ومحل لاهتمامه .

إن التاريخ إنما يترك هؤلاء وشأنهم ، ويدعهم يضيعون فى زحمة الحياة ظنا منه بأنه لن يكون بينه وبينهم أى لقاء .

ولكن هؤلاء قد يجبرون التاريخ على العناية بهم، ويدفعونه راضيا أو كارها إلى تسجيل كل وقائع حياتهم .

إنهم يفعلون ذلك عندما تقوى إرادتهم ، وتشتد عزيمتهم ، ويسيطرون على مقاليد الأمور فى مجتمعاتهم .

إنهم حين يفعلون ذلك يصبحون ممن يصنعون التاريخ ، وليس من منطق التاريخ أن يهمل شأن الذين يصنعون التاريخ .

والتاريخ هنا لايكتفى بأمرهم منذ هذه اللحظات التى يأخذون فيها فى صناعة التاريخ ، وإنما يحاول أن يكفر عن ذنبه السابق فى حقهم عند إهماله لتاريخهم ؛ فيأخذ فى البحث والتنقيب عن مراحل حياتهم الأولى ، وعما كانوا يفعلون أو يفعل بهم فى هذه المراحل .

يبحث عن مرحلة الطفولة وما كان فيهامن لهو ولعب .

ويبحث عن مرحلة الشباب وما كان فيها من متاعب أو عبث .

ويبحث عن مرحلة اكتمال الرجولة وما كان فيها من أعمال .

يبحث عن كل ذلك لينسج منه تاريخا يعطينا صورة صادقة وكاملة عن حياة هؤلاء الذين أبت عليهم طاقاتهم وقدراتهم أن يضيعوا فى زحمة الحياة .

والتاريخ فى عمله هذا قد يوفق — وإن يكن فى الأعم الأغلب يعجز ، ويصيبه حظ غير قليل من عدم التوفيق .

إنه يعجز عن أن يعطى الصورة الصادقة ، والصورة الكاملة لمراحل حياة كل أولئك الذين نبتوا نباتا شعبيا ثم انتهت إليهم مقاليد الأمور فى مجتمعاتهم، وأصبحت مصائر الأمور رهن إرادتهم أو مشيئتهم ..

وللعجز هنا أسباب .

فكثيرون من هؤلاء لايكتبون المذكرات عن مراحل حياتهم فى إبانها ووقتها المعلوم ، لأنهم هم أنفسهم ما كانوا يتصورون فى ذلك الوقت أن سيكون لهم شأن أى شأن — فضلا عن أن تصبح مقاليد الأمور ومصائر الحياة فى أيديهم .

وهم حين يفعلون ذلك بعد أن يصبحوا شيئا مذكورا إنما يعتمدون فى ذلك على الذاكرة — والذاكرة قد تضل وتنسى .

ثم إن وصولهم إلى هذه المرتبة العليا يحول بينهم وبين أن يكونوا صرحاء مع الناس فى تسجيل وقائع حياتهم — وبخاصة عندما يكون فيها مايشين .

إنهم يسترون هذا الشين . وبذلك يكتمون الشهادة على أنفسهم عند الناس .

والاعتماد على غيرهم فى هذا الموقف له هو الآخر أخطاؤه .

فالمعاصرون قد ينافقون .

وقد يخلطون فى الوقائع ويسندون ما لهذا لذاك .

وقد يصنعون التاريخ بما ينسجونه من أوهام ويخترعونه من وقائع . . .

وقد . . . وقد . . . مما يصدق معه قول القائلين : بأن فن التاريخ ليس إلا فن الأكذوبة الكبرى .

* * *

ولكن لصاحبنا فى هذا الموقف شأن آخر .

لقد ولد فى أمة أمية . أمة لا تسجل وقائع الحياة فيها على جدران أو فى كتب ، وإنما يكتفى الناس فيها بما تعى الذاكرة .

والذاكرة قد تخلط .

والذاكرة قد تضل وتنسى .

ومما تقدم ندرك أن التاريخ كثيراً ما يعجز عن إعطاء الصورة الصادقة ، والصورة الكاملة للحياة الأولى لهؤلاء .

وهذا الذى نراه أيضاً فى المراحل الأولى لحياة محمد بن عبد الله — أى قبل أن يبعث نبياً رسولا .

إن ما بلغنا من تاريخ حياته فى السنوات الأربعين الأولى لم يكن بالشىء الكثير الذى يرضى فضولنا فى التعرف على كل صغيرة وكبيرة من أمر حياته فى هذه السنوات الأربعين .

وهذا القليل الذى وصلنا يمكننا من التعرف على الخطوط الرئيسية فى حياته — وبخاصة عندما يسند القرآن الكريم هذا القليل . . .

ونقف من هذا القليل عند حدود هذه الوقائع الكبرى من مراحل حياته الأولى .

* * *

والواقعة الأولى : أنه ولد فى اليتم وتربى فى اليتم .

فقد توفى والده وهو جنين فى بطن أمه ، وذلك أبلغ اليتم فيما يحكى عن العرب الجاهليين .

وتوفيت أمه وهو ابن أربع ، أو ابن ست ، على خلاف فى ذلك بين الرواة الإخباريين .

كفله أول الأمر جده عبد المطلب ، ثم من بعده عمه أبو طالب — وقد توفى عبد المطلب ولمحمد من العمر ثمان سنوات .

ولم تكن منزلة اليتامى فى المجتمع الجاهلى بالمنزلة الكريمة . فقد كان الفقراء منهم يذلون ويقهرون ، وكان الأغنياء منهم يضطهدون ويظلمون .

والقرآن الكريم ، والسيرة النبوية ، شاهدان على ذلك .

فالقرآن الكريم يتحدث عن الجاهليين فيقول : « كلا بل لا تكرمون اليتيم » ويقول « فذلك الذى يدع اليتيم » .

ويتحدث إلى محمد عن محمد اليتيم ، وعن الموقف الذى يجب أن يتخذه محمد من اليتامى فيقول : «ألم يجدك يتيما فآوى . . . »ويقول :« فأما اليتيم فلا تقهر ».

والسيرة النبوية تتحدث عن موقف المرضعات من محمد : المولود اليتيم ، فتقول على لسان حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية التى أصبحت له مرضعة ما يلى :

« قدمنا مكة ، فوالله ما علمت منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه .

إذا قيل إنه يتيم تركناه .

قلنا : ماذا عسى أن تصنع إلينا أمه ؟ إنما نرجو المعروف من أبى الولد . فأما أمه فماذا عسى أن تصنع إلينا ؟ .

فوالله ، مابقى من صواحبى امرأة إلا أخذت رضيعاً — غيرى.

فلما لم نجد غيره ، وأجمعنا على الإنطلاق ، قلت لزوجى : والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ليس معى رضيع . لأنطلقن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه .

فقال : لاعليك أن تفعلى ، فعسى أن يجعل الله لنا فيه بركة .

فذهبت فأخذته . فوالله ما أخذته إلا أنى لم أجد غيره » .

* * *

لم تكن منزلة اليتامى فى المجتمع الجاهلى بالمنزلة الكريمة ، يستوى فى ذلك الأغنياء والفقراء ، والذكور والإناث .

ووقف القرآن إلى جانب اليتامى .

وقف إلى جانب الفقراء فجعل لهم حقاً فى الغنائم ، ونصيباً من أموال الأغنياء .

ومضى القرآن فى الوصاية بهم إلى الحد الذى جعل بعض الناس يذهبون إلى أنه كاد أن يورثهم — ، وذلك إشارة إلى قوله تعالى فى آية من آيات الميراث : « وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه ، واكسوهم ، وقولوا لهم قولاً معروفا . وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم ، فليتقوا الله ، وليقولوا قولا سديداً » .

أما الآيات التى توصى باليتامى الفقراء فكثيرة ، نختار من بينها هذه الآيات: —

يقول الله تعالى : « واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسة وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ... » .

ويقول : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين ...» .

ويقول : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب —

ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ، وآتى المال على حبه ، ذوى القربى واليتامى والمساكين ... »

ويقول : « يسألونك ماذا ينفقون ؟ قل : ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين ، واليتامى والمساكين ، وابن السبيل ... »

ويقول : « ويسألونك عن اليتامى ؟ قل إصلاح لهم خير ، وإن تخالطوهم فإخوانكم ... »

ووقف إلى جانب الأغنياء من اليتامى ليرفع عنهم الظلم ،ويوقف ماينزل بهم من الاضطهاد .

والآيات القرآنية المشيرة إلى ذلك كثيرة أيضاً ، ونختار من بينها ما يلى : ـ

يقول الله تعالى : « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً ، وسيصلون سعيراً ... »

ويقول : « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم . ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا .

ومن كان غنياً فليستعفف .

ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف .

فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم . وكفى بالله حسيبا »

ويقول : « وآتو اليتامى أموالهم ، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ، ولاتأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيراً ...

وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ..

فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ... »

ويقول : « ويستفتونك فى النساء ، قل : الله يفتيكم فيهن .

وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن، وترغبون أن تنكحوهن ، والمستضعفين من الولدان .

وأن تقوموا لليتامى بالقسط

وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما ... »

عن عروة ابن الزبير أنه سأل خالته عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها عن هذه الآية فقالت ...

ياابن أختى ، هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها يشركها فى مالها ، ويعجبه مالها وجمالها ، فيريد أن يتزوجها من غير أن يقسط فى صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره ، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا بهن أعلى سنتهن فى الصداق ، وأمروا أن ينكحوا ماطاب لهم من النساء سواهن .

قال عروة : قالت عائشة : ثم إن الناس استفتوا رسول الله بعد هذه الآية فيهن فأنزل الله عز وجل : « ويستفتونك فى النساء قل الله يفتيكم فيهن ...

وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللاتى لاتؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن ...

قالت عائشة : والذى ذكر الله أنه يتلى عليكم فى الكتاب الآية الأولى التى قال الله فيها « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ماطاب لكم من النساء ... »

قالت عائشة : وقال الله فى الآية الأخرى : « وترغبون أن تنكحوهن » رغبة أحدكم عن يتيمته التى تكون فى حجره حين تكون قليلة المال والجمال .

فنهوا أن ينكحوا ما رغبوا فى مالها وجمالها إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن ...

وقال الأستاذ الإمام بعد أن أورد قول عائشة بالمعنى مختصراً ، كأنه يقول :

إذا أردتم التزوج باليتيمة وخفتم أن تسهل عليكم الزوجية أن تأ كلوا أموالها فاتركوا التزوج بها ، وأنكحوا ما طاب لكم من النساء الرشيدات .

ويعلق الإستاذ رشيد رضا على هذه المسألة فيقول :

وأما على الوجه الذى قالته عائشة والذى اختاره الأستاذ الإمام فى الدرس فمسألة تعدد الزوجات جاءت بالتبع ، لا بالأصالة .

إنتهى .

وكون محمد بن عبد الله من اليتامى هو الذى أنبت هذه المشكلة الأولى من حيث أن السادة من العرب كانوا يضطهدون اليتامى ويقهرونهم ويذلونهم ويعاملونهم معاملة غير كريمة .

لم يكن من اللائق أبدا أن يسلموا قيادهم وزمام الأمور فى مجتمعهم إلى واحد من اليتامى مهما يكن حظه من الفقر والغنى ، إذ الكل فى نظرهم سواء .

* * *

والواقعة الثانية : أنه عمل راعيا للغنم .

وفى السيرة النبوية أن تلك صناعة الأنبياء . وفى الآثار عن الرسول أنه قال : ما من نبى إلا ورعى الغنم ،

واحترف محمد بن عبدالله هذه الحرفة وهو لايزال طفلا يلهو ويلعب . فقد احترفها أول مااحترفها فى بادية بنى سعد ، وهو لايزال فى حجر حليمة السعدية التى أرضعته وتعهدته بالرعاية فى السنوات الأولى من عمره .

كان يسأل حليمة عن إخوته من الرضاع حين يفتقدهم ، وكانت حليمة تجيبه بأنهم فى البادية يرعون الغنم .

وتاقت نفس محمد إلى صحبة إخوته من الرضاع ، وكان من بينهم الشيماء — تلك التى كانت تحمله وترعاه مساعدة لأمها حليمة ، وكان محمد بن عبد الله يأنس بها ويركن إليها .

وأجابت حليمة محمدا إلى طلبه ، وأذنت له فى صحبة أخوته من الرضاع إلى البادية ، وفعل محمد بالغنم مثل مايفعلون ، وتعلم محمد هـــذه الحرفة منذ ذلك الزمان .

وكان أبناء حليمة وبناتها الذين صحبهم محمد، هم : عبد الله بن الحارث، وأنيسة بنت الحارث ، وخدامه بنت الحارث .

وهذه الأخيرة هى التى عرفت فيما بعد باسم الشيماء .

واحترف محمد بن عبدالله هذه الحرفة بعد أن عاد إلى مــكة ، وكان يملك عن طريق الميراث : خمسة جمال ، وقطيعا صغيرا من الغنم ، وجارية تدعى أم أيمن بركة الحبشية ، وكانت تقوم بخدمة أمه آمنة بنت وهب .

ونظر محمد بن عبدالله إلى الدنيا نظرة الراعى . فــكل إنسان إنما هو راع ومسئول عن رعيته . وإنه القائل :

« كلــكم راع ومسئول عن رعيته .

فالإمام راع ومسئول عن رعيته .

والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته .

والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها .

والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته .

وكلــكم راع ومسئول عن رعيته »

رواه البخارى ومسلم .

والقرآن الــكريم نفسه قد إهتم بالبادية وبالمراعى على أساس من أن حياة الناس فى المجتمع الجاهلى تتصل بهما أقوى إتصال وآكده .

واتخذ القرآن الــكريم من البادية والمراعى ، ومن الأنعام التى ترعى وتسرح فى

البادية ، مواد محسوسة يبرهن بها على قدرة الخالق ، وعلى نعمه التى ينعم بها على عباده .

ولقد وردفى القرآن الكريم آيات كثيرة تؤكد الموازنة بين الإنسان والحيوان، وتشير إلى أن الكافر إنما هو إنسان يشبه الحيوان من حيث أنه لم ينتفع بقواه العقلية أحسن انتفاع .

إن القرآن الكريم إنما يذهب إلى أن الكفر آفة عقلية،وأن الإيمان صحة عقلية. والآيات القرآنية فى ذلك كثيرة . .

يقول الله تعالى فى شأن النعم التى أنعم بها على سكان البادية مايلى : —

« والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم .

والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينه — ويخلق مالا تعلمون .

وعلى الله قصد السبيل . . . . »

ويقول :«هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ،ومنه شجر فيه تسيمون. ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . . . .

وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون . . . .

وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه ، إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون .

وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . . . .

وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ، وأنهارا وسبلا، لعلكم تهتدون ...

وعلامات ، وبالنجم هم يهتدون .

أفمن يخلق كمن لايخلق ؟ أفلا تذكرون .

وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها ، إن الله لغفور رحيم » .

صدق الله العظيم .

ويقول الله تعالى من نفس سورة النحل : ـ

« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئده لعلكم تشكرون . . . .

ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء مايمسكهن إلا الله ، إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون .

والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم . ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين . . . .

والله جعل لكم مما خلق ظلالا ، وجعل لكم من الجبال أكتانا ، وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وتقيكم بأسكم . كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون ....» .

وصدق الله العظيم .

ويقول الله تعالى فى شأن قدرته ، ودلالة هذه القدرة على البعث والنشور ما يلى : ـــ

« الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ، ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله ـ فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون .

وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين . . . .

فانظر إلى آثار رحمة الله .

كيف يحيي الأرض بعد موتها .

إن ذلك لمحيي الموتى .

وهو على كل شيء قدير »

صدق الله العظيم .

ويقول أيضا :

« والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسي ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . . . .

ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد .

والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد .

وأحيينا به بلدة ميتا

كذلك الخروج . . . . »

وصدق الله العظيم .

أما موقفه من الكفرة ، ودلالته على أن الكفر آفة عقلية ، وأن الكافر لا يتميز عن الأنعام فى شيء ، فتدل عليه الآيات التالية :

« والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام »

« إن هم إلا كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا »

« إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون »

« ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون » .

ويعلق الاستاذ الإمام على هذه الآية الأخيرة بقوله : ومثل الذين كفروا — أى صفتهم فى تقليدهم لآبائهم ورؤسائهم كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء —

أى كصفة الراعى للبهائم السائمة ينعق ويصيح بها فى سوقها إلى المراعى ،ودعوتها إلى الماء ، وزجرها عن الحمى ، فتجيب دعوته وتنزجر بما ألفت من نعاقه بالتكرار

شبه حالهم بحال الغنم مع الراعى.

يدعوها فتقبل ، ويزجرها فتنزجر ، وهى لا تعقل مما يقول شيئا ولا تفهم له معنى ، وإنما تسمع أصواتا تقبل لبعضها وتدبر للآخر بالتعويد ،ولا تعقل سببا للاقبال ولا للادبار . . . .

وأما الكافر فهو يرى الحق ويعرض عنه ، ويصرف نفسه عن دلالته وآياته ، فلا ينظر فيها . فهو كالحيوان يرضى بأن لا يكون له فهم ولا علم ، بل يقوده غيره ويصرفه كيف شاء . فهو مع من قلدهم من الرؤساء كالغنم مع الراعى ، تقبل بدعائه وتنزجر بندائه ، مسخرة لإرادته وقضاءه ، ولا تفهم لماذا دعا ولماذا زجر ، فدعوتها إلى الراعى وإلى الذبح سواء . . »

واشتغال محمد بن عبد الله برعاية الغنم كان من الأسباب القوية إلى رفض السادة من قريش لدعوته ، وإنكارهم لأن يكون هو النبى الذى أظله ذلك الزمان . ذلك لأن هذه الحرفة لم تكن من الحرف الشريفة فى المجتمع الجاهلى .

لقد كان أبناء السادة يتعلمون الفروسية ومايستتبعها من مهام الصيد والقنص، وكانوا يدربون على الحرب والقتال ليحسنوا الدفاع عن أنفسهم وعن قبيلتهم ، وكانوا يدربون على أعمال المروءة من كرم للضيفان ، وحماية للاجئين ،وبقية الأعمال التى ترشح صاحبها لأن يكون سيدا فى قومه .

أما الرعاية فتترك للعبيد الأرقاء ومن إليهم من الأجراء .

ولم يكن يغنى فى هذا الموقف أن هذه الحرفة حرفة الأنبياء ، وأنه مامن نبى إلا ورعى الغنم .

لقد كانت من الأسباب القوية التى أنبتت هذه المشكلة الأولى ودفعت إلى إنكار أن يكون محمد رسول الله . فالسادة من قريش لا يقبلون أبدا أن يستجيبوا لراع

من رعاة الغنم — أى لواحد من الكادحين أو الأجراء .

* * *

والواقعة الثالثة : أنه اشتغل بالتجارة .

وكانت هذه الحرفة حرفة أبيه من قبل . فى السيرة النبوية عند الحديث عن وفاة هذا الأب ما يلى :

« حدثنا سعيد بن أبى زيد عن أيوب بن أبى صعصعة قال :

خرج عبدالله بن عبد المطلب إلى الشام — إلى غزه ، فى عير من عيران قريش يحملونه تجارات. ففرغوا من تجاراتهم ، ثم إنصرفوا فمروا بالمدينة — وعبدالله بن عبد المطلب يومئذ مريض .

فقال : اتخلف عند أخوالى بنى عدى ابن النجار .

فأقام عندهم مريضا شهرا .

ومضى أصحابه فقدموا مكه . فسألهم عبد المطلب عن إبنه عبد الله فقالوا : خلفناه عند أخواله بنى عدى بن النجار ،وهو مريض .

فبعث إليه عبد المطلب أكبر ولده — الحارث . فوجده قد توفى ودفن فى دار النابغه . . . .

فرجع إلى أبيه فأخبره . . . .

ولعبد الله يوم توفى خمس وعشرون سنة »

وكانت التجارة أيضا حرفة عمه أبى طالب . . .

والتجارة مهنة شريفة يتعاطاها السادة من قريش . بل هى المهنة التى تدر على أصحابها الأرباح الطائلة .

واحتراف محمد لها لم يكن على أساس أنه من أصحاب رءوس الأموال ، فإنما كان على أساس أنه من الأجراء .

نعم إن السيرة تحكى أنه قد بدأ التجارة لحسابه الخاص ، وكان فى ذلك شريكا للسائب بن أبى السائب ، وأن هذا الشريك هو الذى أطلق فى الناس هذه الصفات لمحمد بن عبدالله : الصادق الأمين . . .

اشتراك محمد مع السائب بن أبى السائب ، واشترى ثيابا من حباشه وعاد فباعها بمكة وربحا فيها ، فكان السائب يقول : نعم الشريك محمد لايدارى ولا يمارى ولا يشارى .

ولكن هذا النص فيما ترى لا يرتفع بمحمد أبدا إلى أن يكون من التجار أصحاب رءوس الأموال . فما يتاجر فيه هو وشريكه لا يعدو أن يكون عملا بسيطاً لا يدر الأرباح الطائلة وإنما يدر الكفاف من الرزق .

وأبرز من عمل عندهم محمد بالأجر خديجة بنت خويلد . . .

وعمل محمد عندها هو الذى انتهى بأمره وأمرها إلى الزواج . . .

جاء فى السيرة النبوية ما يلى : ــ

كانت خديجة بنت خويلد من أوفر أهل مكة مالا وشرفاً ، وكانت تستأجر رجالا من قريش يتاجرون لها فى مالها نظير شىء تجعله لهم . .

وعلم أبو طالب يوماً أنها أخذت تستأجر الناس وتجهز للخروج تجارتها إلى الشام مع القافلة . . .

فقال لمحمد : يا ابن أخى أنا رجل لا مال لى ، وليس لنا تجارة ، وهذه خديجة بنت خويلد تبعث رجالا من قومك فيتجرون لها فى مالها ويصيبون منافع لهم ، وأنت تاجر أمين ، فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لفضلتك على غيرك . . .

فقال محمد : لعلها يا عم أن ترسل هى إلى فى ذلك .

وبلغ خديجة ما بلغها من صدق حديث محمد ، وعظم أمانته ، وكرم أخلاقه ، وعزة نفسه ، فبعثت إليه وعرضت عليه أن يخرج فى مالها تاجراً إلى الشام .

فوافق .

ثم أمرت غلامها ميسره أن يسـير معه فى السفر ولا يعصى له أمراً ، ولا يخالف له رأياً . . . » .

وانتهى عمل محمد مع خديجة إلى الزواج بها كما هو معروف .

وكون محمد من الأجراء فى الميدان التجارى كان أحد العوامل التى حالت بين الناس وبين الاعتراف به نبياً رسولا ، ذلك لأن المجتمعات البدوية إنما تقوم الناس على أساس من الثراء . فالأغنياء يفضلون غيرهم ويكونون أصحاب النفوذ والسلطان . فهم الذين يسمع الناس أقوالهم ويطيعونهم .

والقرآن الـكريم حدث عن هذه الظاهرة من تقويمهم لأمر محمد حين قال عن لسانهم : « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق . . .

لولا أنزل إليه ملك فيـكون معه نذيراً

أو يلقى إليه كنز

أو تـكون له جنة يأكل منها . . .

. . . .

تبارك الذى إن شاء جعل لك خيراً من ذلك :

جنات تجرى من تحتها الأنهار

ويجعل لك قصوراً .

* * *

وقبل أن نختم هذا الفصل نشير إلى أن القرآن الـكريم قد اعتمد فى توضيح المفاهيم الدينية على العبارات المستخدمة فى العمليات التجارية — ولم يـكن ذلك إلا لمركز التجارة فى مكة بصفة خاصة ، وفى المجتمع العربى الجاهلى بصفة عامة . . .

يقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا هل أدلـكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله بأموالـكم وأنفسكم ، ذلـكم خير لـكم إن كنتم تعلمون . يغفر لـكم ذنوبكم ، ويدخلـكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومساكن طيبة فى جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم » .

ويقول : « إن الذين يتلون كتاب الله ، وأقاموا الصلاة ، وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور . ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور » .

ويقول : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم ، وما كانوا مهتدين » .

ويقول : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة — يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن.

ومن أوفى بعهده من الله ؟

فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به . وذلك هو الفوز العظيم » .

ويقول : « إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلا أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار ، ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم .

أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، والعذاب بالمغفرة ، فما أصبرهم على النار » .

وصدق الله العظيم

٢

لم تـكن له يدفى خلق هذه المشكلة ، فلم يحدث أبداً أن سعى هو لأن يصبح نبياً رسولا ، كما لم يقع أبداً أن أخذ رأيه فى أن يكون نبياً رسولا . والذى حدث بالضبط هو أن إختياراً من المولى سبحانه وتعالى قد وقع عليه ليـكون النبى الرسول الذى أظله ذاك الزمان .

وفى تقديرنا أنه هو بالذات لم يكن يتوقع أن يكون هو النبى الرسول ، ولعله كان ينـكر على الذين يشيرون عليه، وينصحونه أن يسعى فى أن يكون النبى الرسول الذى أظله الزمان، مشورتهم ويرد عليهم، نصيحتهم .

والذى يدعونا إلى هذا القول ، أو هذا التقدير ، أسباب كثيرة ، تدور جميعها حول الظواهر الدينية والظواهر الإجتماعية التى نعرفها عن ذاك العصر .

وأول هذه الأسباب أن القيادة المدنية فى هـذا المجتمع كانت بيد الرجال الأقوياء الأشداء .

ومصدر قوة هؤلاء الرجال ما بأيديهم من ثروات طائلة ، وما عندهم من ذرية سليمة البنية كثيرة العدد . ويحـكى القرآن الـكريم عنهم أنهم كانوا يقولون : نحن أكثر أموالا وأولاداً وما نحـن بمعذبـين . وكانوا يقـولون : من أشـد منا قوة ؟ .

كانت قيادة البادية من إختصاص شيوخ القبائل — أولئك الذين يبلغون من العمر سناً متقدمة ، ولهم فى قبيلتهم منزلة إجتماعية ممتازة، بسبب مايقومون به من خدمات ، وما يملـكون من مراعى وأغنام وأنعام .

وكانت قيادة الحضر أو المجتمع المـكى بصفة خاصة بين التجار الـكبار وأصحاب رؤوس الأموال .

ولم يـكن محمد بن عبد الله عليه السلام من أولئك ، أو من هؤلاء فى شىء .

ومن هنا لم يكن مرشحاً لأن يكون شيخاً لقبيلة ، أو رئيساً لفئة من فئات المجتمع .

لقد كان من أوساط الناس . من اليتامى ، ومن الرعاه ، ومن الأجراء فى ميدان التجارة ، وهذا هو الذى باعد بينه وبين مركز القيادة فى مجتمعات البادية، وفى مجتمعات الحضر على حد سواء .

* * *

وثانى هذه الأشياء أن القيادة الدينية فى هذا المجتمع كانت من إختصاص ومسئوليات رجال بأعيانهم . رجال نذروا أنفسهم للآلهة وانقطعوا إلى خدمتها . رجال أعلنوا فى الناس أنهم وحدهم دون غيرهم الذين يحسنون الوساطة بين الآلهة والناس .

يتمثل هؤلاء الرجال فى أصحاب الوظائف الدينية ممن نعرفهم بسيماهم . وأولئك هم الأحبار والرهبان ، والقساوسة والكهان ، والعرافون والمنجمون ومن إليهم ممن يدعون القدرة على معرفة الغيب وما تخبئه الأقدار للناس .

لقد كان هؤلاء يستشفعون عند الآلهة للخطأة والمذنبين من الناس . وكانت الآلهة تشفع أو يعلنون هم ذلك فى الناس .

وكان هؤلاء يسترضون الآلهة لغير الخطأة والمذنبين ـ يسترضونهم من أجل أن تحل بركتهم فى الناس ، فترضى الآلهة وتمنح هؤلاء البركة — أو هكذا يعلنون هم للناس .

وكان الناس من جانبهم يطلبون إلى أصحاب الوظائف الدينية إخبارهم بالغيب المكتوب من الأزل أو المقدر عليهم ، فيجيبون الناس إلى ماطلبوا ، ويتنبأون أو يتكهنون بالغيب ، ويصدقهم الناس .

كانوا يفعلون ذلك كله ، واكتسبوا بذلك كله منزلة عظيمة فى الناس . منزلة مكنتهم من القيادة ، ومن توجيه الناس إلى القيام بذلك العمل ، أو الكف

عن ذلك العمل ، من حيث أن هذا التوجيه هو الذى يرضى الآلهة .

لقد كانت مخالفة توجيهاتهم جريمة لا تغتفر إلا بما يقدمون من القرابين ومن وسائل الغفران .

ولم يكن محمد بن عبد الله عليه السلام من ذلك كله فى كثير أو فى قليل .

نعم لقد تعبد فى غار حراء ، ولكنه فى تعبده كان مخلصاً لله ولوجه الله . ومن هنا لم يفعل مثل غيره ، ولم يذهب إلى أنه قادر على معرفة الغيب وإسترضاء الله والشفاعة عنده للخطأة والمذنبين من الناس .

لم يفعل شيئاً من ذلك ، ولم يكتسب من أجل ذلك أية منزلة قائمة على هذا الأساس .

لقد عرف عليه السلام ببعض الخصائص التى أكسبته ثقة الناس بما فيهم أصحاب رؤوس الأموال .

لقد عرف بأنه الصادق الأمين — وليست تفضل هذه الصفة صفة أخرى عند الناس .

لقد أحبه الناس ، ولكن هذا الحب لم يكن الوسيلة إلى القيادة فى المجتمع الذى وصفنا ، فإنما القيادة فيه لرجال الدين ، أو للأقوياء الأشداء.

* * *

وعلى الرغم من هذا كله .

على الرغم من أنه لم يكن من الأثرياء ، أو من الأقوياء الأشداء أو من رجال الدين ، وقع عليه الإختيار ليكون النبى المرسل الذى أظله ذلك الزمان .

وكان اختياره هو بالذات ضربة لكل المعايير والموازين التى تعرفها البيئة ، وتقوم على أساس منها المعرفة بمن يصلحون ومن لا يصلحون لوظائف المرسلين من الناس .

ونستطيع أن نعرض عليك المعايير التى إستند إليها الناس فى ذلك الوقت فى رفض نبوة ورسالة محمد بن عبد الله عليه السلام .

* * *

فأولا : — كان هناك الرأى الذاهب إلى أن رسول الله إلى الناس لا يمكن أن يكون من البشر ، فإنما هو روح خفية أو هو ملك من الملائكة .

وهذا الرأى واضح تماماً فى عديد من الآيات القرآنية . فى تلك الآيات التى تجادل فى هذا الرأى ، وتكشف للناس ما فيه من ضلال .

والآيات القرآنية التالية ، وأقوال المفسرين الدائرة حولها ، هى التى تكشف لنا عن هذا الرأى وعن تزييفه فى وقت واحد .

جاء فى القرآن الكريم : « وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا : ما أنزل الله على بشر من شىء ؟ .

وجاء فيه أيضاً هذه الآيات :

شىء . قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس .

« وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا : أبعث الله بشراً رسولا ؟ »

« وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم ، فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون . وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين » .

« ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون » .

ويقول الرازى مفسراً للآية القرآنية : وما أرسلنا قبلك ...

« أقول : الظاهر أن هذه الشبهة وهى قولهم الله أعلى وأجل من أن يكون رسوله واحداً من البشر إنما تمسك بها كفار مكة .

ثم إنهم كانوا مقرين بأن اليهود والنصارى أصحاب العلوم والكتب ، فأمرهم الله بأن يرجعوا فى هذه المسألة إلى اليهود والنصارى ليبين لهم ضعف هذه الشبهة وسقوطها ، فإن اليهودى أو النصرانى لابد لهما من تزييف هذه الشبهة وبيان سقوطها »

وواضح من رأى الرازى أنه يريد أن يقول : إن هذه الشبهة بمعزل عن أن تكون أثراً من آثار اليهودية والنصرانية فى الجزيرة ، وأن أهل الذكر من اليهود والنصارى لا يستطيعون التسليم بها .

والشهرستانى هو الذى يكشف لنا عن المصدر الذى تسرب منه هذا الرأى إلى الجزيرة .

يقول عند حديثه عن أصحاب الروحانيات ما يلى : ــ

« ومذهب هؤلاء أن للعالم صانعاً ، فاطراً ، حكيما ، مقدساً عن سمات الحدثان.

والواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلى جلاله ، وإنما يتقرب إليه بالمتوسطات المقربين إليه وهم الروحانيون .

قالوا : والأنبياء أمثالنا فى النوع ، وأشكالنا فى الصورة يشاركوننا فى المادة : يأكلون مما نأكل ويشربون مما نشرب ويساهموننا فى الصورة : أناس بشر مثلنا .

فمن أين لنا طاعتهم ؛ وبأية مزية لهم لزم متابعتهم .

ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا لخاسرون » مقالتهم هذا الرأى فيما يرى الشهرستانى رأى الصائبة ، وتسرب إلى الجزيرة عن طريق فارس ، واعتمد عليه مشركوا مكة فى أمر محمد بن عبدالله ، ومن هنا كان رفضهم له وعدم التسليم بأنه رسول الله إليهم .

* * *

ثانياً : ــ الرأى الذاهب إلى أن رسول الله إلى الناس يكون من البشر ــ ولكن يلزم بأن يكون مؤيداً من الله بخارق للعادة : أى بمعجزة .

وهذا الرأى توضحه الآيات القرآنية التالية : ــ

« وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية . كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم ، تشابهت قلوبهم ، قد بينا الآيات لقوم يوقنون » .

« وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ؛ أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ، أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف ، او ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه .

قل : سبحان ربى ، هل كنت إلا بشراً رسولا ؟ »

« هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام، والملائكة ، وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور » .

« يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء ، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا : أرنا الله جهره .. »

وهذا الرأى أثر من آثار اليهودية فى الجزيرة العربية ، والآية الأخيرة واضحة فى أن الذين يسألونه هذه الآيات هم من نسل الذين سألوا موسى من قبل مثل ذلك، أو أكثر من ذلك .

والمعجزات أو الخوارق التى قص القرآن الكريم أخبارها إنما جرت فى الغالب على أيدى أنبياء بنى إسرائيل ..

والعرب من أهل الجزيرة إنما يصنعون صنيع بنى إسرائيل حين يطالبون النبى العربى بمثل هذه الخوارق أو المعجزات . والقرآن نفسه هو الذى يشير إلى هذه الحقيقة فى الآية القرآنية الكريمة :

« وقال الذين لا يعلمون : لولا يكلمنا الله ، أو تأتينا آية . كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم . »

وتمسك المسلمون ، ولا يزالون يتمسكون ، بالمعجزات على أنها الدليل على صدق النبى — وإن طعن بعض المسلمين فى قوة هذا الدليل .

وللرازى ، المفسر المشهور ، موقف يوضحه عند تفسيره للآية القرآنية الكريمة:

« وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه مايشاء ، إنه على حكيم » .

يقول الرازى :

« المسألة السادسة:

« ثبت أن الوحى من الله تعالى إما ألا يكون بواسطة شخص آخر ، وإما أن يكون بواسطة شخص آخر .

ويمتنع أن يكون كل وحى حاصلا بواسطة شخص آخر ـ وإلا لزم : إما التسلسل ، وإما الدور ، وهما محالان .

فلابد من الاعتراف بحصول وحى بلا واسطة .

ثم ها هنا أبحاث :

الأول : ـ أن الشخص الأول الذى سمع وحى الله لا بواسطة شخص آخر ، كيف عرف أن الكلام الذى سمعه كلام الله ؟

فإن قلنا إنه سمع تلك الصفة القديمة المنزهة عن كونها حرفا وصوتا ، لم يبعد أنه إذا سمعها علم بالضرورة كونها كلام الله تعالى ، ولم يبعد أن يقال إنه يحتاج بعد ذلك إلى دليل زائد .

أما إن قلنا إن المسموع هو الحرف والصوت امتنع أن يقطع بكونه كلاماً لله تعالى ـ إلا إذا ظهرت دلالة على أن ذلك المسموع هو كلام الله .

الثانى : ـ أن الرسول إذا سمعه من الملك ، كيف يعرف أن ذلك المبلغ ملك معصوم ، لا شيطان مضل ؟

والحق أنه لا يمكنه القطع بذلك إلا بناء على معجزة تدل على أن ذلك المبلغ ملك معصوم ، لا شيطان خبيث .

وعلى هذا ، فالوحى من الله تعالى لا يتم إلا بثلاث مراتب فى ظهور المعجزات .

المرتبة الأولى : ـ أن الملك إذا سمع ذلك الكلام من الله تعالى فلا بد له من معجزة تدل على أن ذلك الكلام كلام الله تعالى .

المرتبة الثانية : ـ أن ذلك الملك إذا وصل إلى الرسول ، لا بد له أيضاً من معجزة.

والمرتبة الثالثة : ـ أن ذلك الرسول إذا أوصله إلى الأمة ، فلا بد له أيضاً من معجزة .

فثبت أن التكليف لا يتوجه على الخلق إلا بعد وقوع ثلاث مراتب في المعجزات..»

انتهى كلام الرازى .

أما القرآن نفسه فيدل على أن الإيمان بالرسل وبما يدعون إليه من عقائد ومبادىء لا يتوقف أبداً على المعجزات .

إن المسألة فى القرآن مسألة الاستعداد النفسى والقدرة العقلية ـ وليست مسألة معجزات .

إن التصديق قد يتم بدون معجزة ، وقد لا يتم حتى ولو كانت هناك مجموعة من الخوارق أو المعجزات .

والآيات القرآنية التالية واضحة الدلالة على ذلك .

يقول الله تعالى: « ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة ، وكلمهم الموتى ،وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ، ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ، ولكن أكثرهم يجهلون » .

يقول الله تعالى : « ولقد آتينا موسى الكتاب ، وقفينا من بعده بالرسل ، وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس .

أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ؟ ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون » .

يقول الله تعالى : « ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها ، أفهم يؤمنون؟» .

ويعلق الطبرى على هذه الآية بقوله :

« يقول تعالى ذكره : ما آمن قبل هؤلاء المكذبين محمداً من مشركى قومه ، الذين قالوا : فليأتنا محمد بآية كما جاءت به الرسل قبله ، من أهل قرية عذبناهم بالهلاك فى الدنيا إذ جاءهم رسولنا إليهم بآية معجزة أنهم يؤمنون .

يقول : أفهؤلاء المكذبون محمداً ، السائلوه الآية ، يؤمنون به أن جاءتهم آية، ولم تؤمن قبلهم أسلافهم من الأمم الخالية التى أهلكناها » .

* * *

ثالثاً : ـ الرأى الذاهب إلى أن الرسول لابد أن يكون من بنى إسرائيل ، وأن يكون مصدقا للتوراة.

والقرآن الكريم يصرح بأن هذا الرأى رأى أهل الكتاب . وهذه بعض الآيات التى تشير إلى هذه الحقيقة .

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا . أولئك الذين لعنهم الله ، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً . أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيراً . أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما » .

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ، ويجعل لكم نوراً تمشون به . ويغفر لكم ، والله غفور رحيم . لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شىء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » .

« ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم ، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين » .

وللرازى فى تفسيره للآيات ٢٨ ، ٢٩ من سورة الحديد قول نرى من الخير إيراده فى هذا المقام .

يقول :« فاعلم أنه لابد هنا من تقديم مقدمة وهى : أن أهل الكتاب ، وهم

بنو إسرائيل ، كانوا يقولون الوحى والرسالة فينا،والكتاب والشرع ليس إلا لنا ، والله تعالى خصنا بهذه الفضيلة العظيمة من بين جميع العالمين .

إذا عرفت هذا فنقول : أنه تعالى لما أمر أهل الكتاب بالإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام ووعدهم بالأجر العظيم على ذلك الإيمان ، أتبعه بهذه الآية .

والغرض منها أن يزيل عن قلبهم اعتقادهم بأن النبوة مختصة بهم ، وغير حاصلة إلا فى قومهم ، فقال : إنما بالغنا فى هذا البيان ، وأطنبنا فى الموعد والوعيد ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على تخصيص فضل الله بقوم معينين ، ولا يمكنهم حصر الرسالة والنبوة فى قوم مخصوصين ، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ولا اعتراض عليه فى ذلك أصلا » .

ويقول إسرائيل ولفنسون فى كتابه تاريخ اليهود فى بلاد العرب ما يلى :

«كان يهود يثرب يتشوقون لرؤية الرجل الذى ينشر دعوة دينية تتفق فى جوهرها مع عقائدهم ، وكانوا يعتقدون أن ظهور رجل ، ليس من بنى إسرائيل ، يدعو إلى توحيد الله وإلى تعاليم التوراة وإلى تمجيد ابراهيم وموسى، إنما هو ظاهرة غريبة فى التاريخ البشرى » .

« إن العقلية اليهودية لا تلين أمام شىء يزحزحها عن دينها ، وتأبى أن تعترف بأن يوجد نبى من غير بنى إسرائيل » .

* * *

رابعاً : ـ الرأى الذاهب إلى أن الرسول يكون من البشر ـ ولكن يجب أن يكون عظيما ، ذا ثراء ، وذا جاه . . .

وهذا الرأى توضحه الآيات القرآنية التالية : ـ

« وقالوا : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ؟

لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً .

أو يلقى إليه كنز .

أو تكون له جنة يأكل منها ..

وقال الظالمون : إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً .

أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا . تبارك الذى إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ويجعل لك قصوراً » .

« وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . أهم يقسمون رحمة ربك ؟

نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخريا ، ورحمة ربك خيراً مما يجمعون .

ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ، ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبوابا ، وسرراً عليها يتكئون ، وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ، والآخرة عند ربك للمتقين » .

ويشرح الرازى هذا الرأى فيقول : —

« أعلم أن هذا هو الرأى الرابع من كفرياتهم التى حكاها الله عنهم فى هذه السورة .

وهؤلاء المساكين قالوا : منصب الرسالة منصب شريف فلا يليق إلا برجل شريف .

وقد صدقوا فى ذلك . إلا أنهم ضموا إليه مقدمة فاسدة وهى : أن الرجل الشريف هو الذى يكون كثير المال والجاه ، ومحمد ليس كذلك فلا تليق رسالة الله به .

وإنما يليق هذا المنصب لرجل عظيم الجاه كثير المال ، فى إحدى القريتين : مكة والطائف .

وهم لم ينظروا هذه النظرة لنبى الإسلام وحده ، بل نظروها إلى المؤمنين أيضاً .

قال الله تعالى مصوراً موقفهم : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا : أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ؟ »

وأعتقد أن هذا الرأى فى تقويم الناس على أساس من الثروة والجاه هو الذى

جرى عليه العمل قديماً ، ويجرى عليه العمل حديثاً حتى لـكأنه الفطرة البشرية التى فطر الله الناس عليها .

إن تقويم الناس حسب الدور الاجتماعى الذين يقومون به فى الحياة ، والمهام التى يؤدونها ، نظرية حديثة لم يـكن الناس يعرفونها فيما مضى ، ولا تزال الأمم المتخلفة بعيدة عن أن تؤمن بها حتى اليوم .

* * *

كانت هذه القيم أو هذه الآراء الدينية السائدة فى البيئة العربية عنـد البعثة النبوية،من العقبات التى قامت فى سبيل الإعتراف بأحقية محمد بن عبدالله فى أن يكون نبياً رسولا .

ومن هنا نعود إلى القول الذى بدأنا به هذه الفقرة من أن محمد بن عبـدالله لم تـكن له أبداً يد فى خلق هذه المشكلة .

٣

لقد وقع عليه الإختيار ليصبح نبياً رسولا ، وكلف بحمل الأمانة وتأدية الرسالة من غير أن يستشار أو يؤخذ رأيه فى ذلك . لقد أصبح رسولا على الرغم منه .

وجاء إختياره على أساس مغاير تماماً لما كانت تعرفه البيئة من أسس ، أو من معايير وموازين . ومن هنا كان الإنكار له ، وكانت المعارضة لما يدعو إليه من آراء ومعتقدات .

والأساس الذى قام عليه الإختيار ، يسير فى فهمه ، خطير فيما ترتب عليه من آثار — لا فى الحياة العربية فحسب ، وإنما فى الحياة الإنسانية بكاملها ،

هو يسير فى فهمه لأنه يجعل حق إختيار الأنبياء والرسل لله وحده . لايشاركه فى هذا الحق شريك ، ولا ينازعه فيه منازع .

والآيات القرآنية الواردة فى ذلك كثيرة ، ونختار من بينها هذه الآيات البينات .

يقول الله تعالى : « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس » .

ويقول : « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أن لا إله إلا أنا .. » .

ويقول : « بئسما إشتروا به أنفسهم : أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده .. » .

ويقول : « وما كان الله ليطلعكم على الغيب ، ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء . فآمنوا بالله ورسله . وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم » .

وهو خطير فما ترتب عليه من آثار من حيث أنه : —

أولا : ــ أن جعل هذا الحق لله ، وبيد الله ، يمنح الناس جميعاً الفرصة فى أن يكونوا أنبياء ومرسلين .ويجعل طاقاتهم وقدراتهم الأساس الأول فى الإختيار ــ وليس النوع والجنس ، أو الطبقة وما أشبه ...

ومساواة الناس جميعاً فى هذا الحق ليس إلا الشعار الذى ننادى به ونسميه تكافؤ الفرص فى مجتمعاتنا المعاصرة .

وكون المولى سبحانه هو الذى يستخدم الحق فى الإختيار يشير إلى تحقق قيم كثيرة فى الإختيار . فالنبى الرسول إنما يختار على أساس من العدل ، ويختار على أساس من الكفاية فى العمل ، والقدرة على تحمل المسئولية ، وما إلى ذلك من شروط ومواصفات نقف عليها عند حديثنا عن الوظيفة التى حددها القرآن الكريم لمحمد بن عبد الله عليه السلام .

ثانياً : ــ أنه أبطل كل هذه المعايير السابقة،وعمل على دحضها بالمنطق والحجة، لا بسلطان القوة أو القانون .

فأن يكون النبى ملكا من الملائكة ، وليس رجلا من الرجال . أو أن يكون النبى روحاً خفية وليس واحداً من الناس ، قد دحضه القرآن الكريم فى الكثير من الآيات . ومن ذلك : ــ

قوله تعالى : « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا : أبعث الله بشراً رسولا ؟

قل : لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا » .

وقوله : « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون » ...

إذ الواضح من هذه الآيات أن القرآن الكريم يقرر قاعدة أو سنة إجتماعية هى أن القائد الروحى أو الزعيم الشعبى لابد من أن يكون من جنس ونوع الذين يقودهم ، أو الذين يحمل إليهم رسالة السماء .

فلو كان فى الأرض ملائكة لكان الرسول إليهم من الملائكة ليكونوا على معرفة به وبخصائصه ، فيأنسون إليه . ويقبلون منه مايدعوهم إليه ، لأنه لو كان غريباً عنهم وعليهم لنفروا منه ، وعارضوه .

ولو أنزل الله للناس ملكاً لجعله فى صورة من صور البشر من حيث أن بقاءه فى صورته الملائكية يضر الدعوة أكثر مما يفيدها ، لأنه سيكون غريباً عليهم وعنهم .

ولو أرسله ملكاً فى صورة إنسان لالتبس عليهم الأمر إذ كيف يعرفون أنه ملك من ملائكة السماء ، وكيف يؤمنون برسالته وهو فى صورته البشرية ماداموا ينكرون أن يكون الرسول بشراً يأكل مما يأكلون منه ويشرب مما يشربون

« ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ، ويشرب مما تشربون . ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون »

القرآن يمضى على أن الرسول لا بد من أن يكون من جنس ونوع المرسل إليهم ، ولا يمكن أن يكون ملكاً من الملائكة إلا إذا كان المرسل إليهم من الملائكة .

أما حين يكون المرسل إليهم من البشر ، فلا بد من أن يكون واحداً منهم .

وهذه القاعدة أو السنة الإجتماعية قد حررت البشر به من سلطان الأرواح الخفية ، وردت الناس الى الإقتداء بالناس ، والإستماع إليهم .

ثالثاً : — أنه أبطل أن يكون الرسل من قوم بأعيانهم كبنى اسرائيل مثلا ، وجعل هذا الحق مشاعاً للناس أجمعين وللأمم جميعاً .

والآيات القرآنية فى ذلك كثيرة ، ونشير من بينها الى مايلى :—

يقول الله تعالى : « ولكل أمة رسول ، فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون »

ويقول : « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ».

ويقول : « ثم أرسلنا رسلنا تترا كلما جاء أمة رسولها كذبوه ، فأتبعنا بعضهم بعضا ، وجعلناهم أحاديث » .

ويقول ! « إنا أرسلناك بالحق بشير ونذيراً ، وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » .

وكان معنى ذلك إبطال هذه الدعوة التى يدعيها اليهود من أنهم شعب الله المختار ، وأن النبوة قاصرة عليهم ومحصورة فيهم لأنهم ، أبناء الله وأحباؤه .

كما كان فيها إبطال للتمييز العنصرى من حيث أن كل أمة قد جاءها نذير ، وأن ذلك لم يكن خاصاً بعنصر بعينه هم بنو إسرائيل .

وإلى جانب ذلك كله قرر القرآن حقيقة واضحة هى أن موقف بنى إسرائيل من نبوة إنسان من الأمة العربية قد صدر عن الحسد لا أكثر ، ولا أقل .

يقول الله تعالى : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا . أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا . أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا .

أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة ، وآتيناهم ملكاً عظيماً ... »

ويقول : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً : حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ... »

رابعاً : — أنه لم يجعل الإيمان بالرسول نتيجة حتمية لإظهار معجزة على يديه ، أو لمجيئه بأمر خارق للعادة .. وإنما جعل ذلك منوطاً بقدرة ما يدعو إليه على تحقيق الخير العام ...

لقد كانوا يطلبون إلى النبى عليه السلام أن يأتيهم بمعجزة من المعجزات ، أو بأمر من الأمور التى تكون دائماً فوق طاقة الإنسان العادى ، فكان يجيبهم بأنه

إنسان ، وأن ليست له طاقة تبلغ ما لم تبلغه طاقة الإنسان العادى الذى يرونه كل يوم فى حياتهم اليومية .

يقول الله تعالى : « وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترق فى السماء — ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه .

قل : سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا ؟

وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا : أبعث الله بشراً رسولا ؟ ... »

ويقول : « وقالوا : لولا أنزل عليه آية من ربه .

قل : إنما الآيات عند الله ، وإنما أنا نذير مبين . أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » ..

ويذهب القرآن الكريم إلى ما هو أبعد من ذلك فيوضح لنا ناموساً نفسياً هاماً هو أن الإيمان ، أو القناعة العقلية والإطمئنان النفسى ، لا يتوقفان أبداً على المعجزات والخوارق للعادات فإنما لذلك شأن آخر ...

إن المعجزات قد تستخدم للتخويف ، والذى ينتج عن التخويف هو الإستسلام حتى لا يكون هناك أذى — وليس القناعة والاقتناع .

والآيات فى ذلك كثيرة أيضاً ، ونشير من بينها إلى هذه الآيات القرآنية الكريمة .

يقول الله تعالى : « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها .

وما نرسل بالآيات إلا تخويفا . . . ؟!

ويقول : « وأقسموا بالله جهد إيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها .

قل : إنما الآيات عند الله ، ومايشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون .

ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ،ونذرهم فى طغيانهم يعمهون.

ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة،وكلمهم الموتى ، وحشرنا عليهم كل شىء قبلا .

ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله — ولكن أكثرهم يجهلون » .

ويعلق صاحب تفسير المنار على هذه الآيات فيقول :

« بين الله سبحانه : أن مقترحى الآيات الكونية على الرسول صلى الله عليه وسلم أقسموا بالله مجتهدين فى إيمانهم مؤكدين قائلين : لئن جاءتنا آية لنؤمنن بها وبما تدل عليه من صدق الرسول فى دعوى الرسالة ، وماجاء به عن الله تعالى .

وأن المؤمنين كانوا يودون إجابة اقتراحهم ، ويظنون أنها تفضى إلى إيمانهم . فبين الله تعالى لهم خطأ ظنهم بقوله : وما يشعركم أنها إذا جاءت . . . الخ

نفى عنهم الشعور بسنته تعالى فيهم وفى أمثالهم من المعاندين ، ومايكون من شأنهم إذا رأوا آية تدل على خلاف مايعتقدون ومايهوون وهى أنهم ينظرون إليها ويفكرون فيها بقصد الجحود والإنكار . . .

وبعد بيان سنته تعالى فيهم عند مجىء الآية المقترحة صرح بما هو أبلغ من ذلك فقال : ولو أننا نزلنا . . . الخ .

أى ما كان من شأنهم ولا مقتضى استعدادهم أن يؤمنوا . . .

ولكن أكثرهم يجهلون سنن الله تعالى فى عبـــاده وانطباقها على الأفراد والجماعات . . .

وليست الآيات بملزمة ولا مغيرة لطباع البشر فى إختيار ماترجح عند كل منهم بحسب نظره فيها وفى غيرها . . »

ويعلق الطبرى على آية : « ماآمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون . . ؟ » بقوله : —

« يقول تعالى ذكره ما آمن قبل هؤلاء المكذبين محمدا من مشركى قومه، الذين قالوا فليأتنا محمد بآية كما جاءت به الرسل قبله من أهل قرية عند نبأهم بالهلاك فى الدنيا إذ جاءهم رسولنا إليهم بآية معجزة . .

أفهم يؤمنون ؟ أفهؤلاء المكذبون محمدا ، السائلوه الآية ، يؤمنون به أن جاءتهم آية ولم تؤمن قبلهم أسلافهم من الأمم الخالية . » .

إن المعجزات لا يمكن أن تدفع إلى التصديق، وقد تدفع إلى غيره، تدفع إلى هلاك الأمم كما سبق أن شرحنا ، وتدفع إلى هلاك الأنبياء والرسل كما توضح هذه الآية : —

« ولقد آتينا موسى الكتاب ، وقفينا من بعده بالرسل ، وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس .

أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم .

ففريقا كذبتم .

وفريقا تقتلون . . »

لا علاقة إذن بين الآية المعجزة والتصديق بالرسول وبالدعوة التى يدعو إليها الرسول .

وتقرير هذه القاعدة قد حرر البشرية من حقيقة نفسية تقعد بالإنسان عن مركز القيادة حتى يأتى بما لا يستطيع أن يأتى به الإنسان العادى .

« وما أنا إلا بشر مثلكم يوحى إلى » هى القاعدة القرآنية .

فالرسول إلى الناس بشر منهم ، ولا يفضلهم إلا بما يدعو إليه من آراء ومعتقدات . .

* * *

على أن القرآن الكريم بعد جهاده فى سبيل تحرير العقل البشرى من أدوات التقويم التى كان الناس فى العهد الجاهلى يقومون بها الرسل والأنبياء . بعد أن

حررتهم من ذلك ، أعلن فيهم حقيقة أخرى تعتبر بحق الأساس القوى المتين فى تحرير الإنسان من كل مايحول بينه وبين القيادة الروحية أو الزعامة الشعبية . .

لقد تقرر أن حق إختيار الرسل والأنبياء لله وحده ، لا يشاركه فى ذلك شريك، ولا ينازعه فيه منازع .

وتقرر أيضا أن هذا الحق لن يستخدم بعد إختيار محمد عليه السلام . ذلك لأن محمدا هو خاتم النبيين وآخر المرسلين .

لن يبعث الله نبيا بعد محمد ، ولن يرسل الله رسولا لأى شعب بعد هذه الرسالة التى بدأت بالشعب العربى وانتهت بأنها رسالة عالمية للناس كافه . .

لكن ليس معنى هذا أن لن تكون بعد وفاة محمد عليه السلام قيادة روحية وزعامة شعبية للناس . .

ليس معنى هذا أن منصب القيادة قد ألغى ، وأن الناس يستطيعون ممارسة الحياة بدون قائد .

إن معناه أن هذا الحق الذى كان بيد الله قد إنتقل إلى الشعب . وأن الناس هم الذين يختارون القادة فيما بعد . .

والذى يؤكد هذه الحقيقة أن القرآن الكريم الذى أعلن ختم النبوة ونهاية الرسالة لم يضع نظاما لمن يخلف النبى عليه السلام ويصبح أحد الخلفاء الراشدين .

والنبى عليه السلام لم يضع مثل هذا النظام .

ولا يمكن الذهاب إلى أن النسيان أو الإهمال كان السبب فى ذلك ، فحاشاه سبحانه وتعالى من أن ينسى أو يهمل أمرا خطير كهذا .

لقد أهمله سبحانه عمدا ليكون حقا من حقوق الناس يمارسونه على الوجه الذى يرون ويرتضوه . .

ولقد جاءت ممارسة الصحابة رضوان الله عليهم لهذا الحق مؤكدة هذه الحقيقة . .

فقصة إختيار أبى بكر خليفة جاءت نتيجة ظروف معينة أهمها ، ممن يكون الخليفة .. أيكون من الأنصار أم من المهاجرين ؟

ولقد حسم عمر الموقف حين بايع أبابكر .

وقصة إختيار عمر خليفة للمسلمين جاءت على أساس مغاير لإختيار أبى بكر لأن الظروف غير الظروف ، ولأن التجربة السابقة قد ألهمت أبا بكر حلا معينا هوأن يختار بنفسه خليفة المسلمين حتى يجنب المسلمين ذلك الصراع الذى نشب بين المهاجرين والأنصار بعد وفاة النبى عليه السلام .

وقصة إختيار عثمان تختلف عن القصتين السابقتين . فقد حصر عمر الخلافة فى ستة نفر وترك للمسلمين إختيار من يرونه أهلا لذلك من بين هؤلاء الستة .

أما على فقد جاء بعد مقتل عثمان،وببيعة من جماعةمن المسلمين ،وبطريقة مغايرة لكل طريقة من الطرق السابقة .

لم يتفق الصحابةعلى صيغة بعينها لإختيار الخلفاء ، وإنما تركوا المسألة للظروف

وهذه الظروف كان من بينها إزاحة بعض الخلفاء عن مراكزهم بالقوه . فالخليفة الأول هو الذى نجا من القتل ،أما الثلاثة الباقون فكان نصيبهم القتل فى ظروف مختلفة ولأسباب مختلفة .

لقد أصبح الاختيار بعد محمد عليه السلام حقا من حقوق الناس حقا تنازل عنه الله للناس .

ولم يضع محمد عليه السلام لذلك نظاما حتى لا يلتزم الناس بالنظام الذى وضعه محمد ، ويتخذونه دينا . .

أما الصحابه فكانوا ناسا من الناس ، واختاروا من الصيغ مايلائم أوضاعهم وظروفهم . .

ونحن اليوم نمارس هذا الحق ؛ ونمارسه فى الصيغه التى نرى أنها أفضل الصيغ بالنسبة لظروفنا وأحوالنا . .

لقد حررنا القرآن الكريم ، وحررنا الرسول الصادق الأمين ، وحررنا عمل الصحابة رضوان الله عليهم ، من التزام صيغة بعينها يمكن أن تسمى بالصيغة الدينيه.

وهذا هو الفرق بين المسيحيين والمسلمين .

ففى المسيحية دولة دينية يختار رئيسها من بين رجال الدين .

وفى الإسلام دولة مدنية يختار رئيسها من بين المدنيين ويطلب إليه تطبيق أحكام الدين .

والصيغة التى يتم إختياره عليها متروك أمرها للمسلمين .

٤

ومما زاد من حدة هـذه المشكلة ، وجعل الصراع الفكرى فيها يبدو قاسياً وعنيفاً ، والحوار الجدلى من حولها يدور ساخناً وملتهباً ، أن الوحى الذى كان ينزل من السماء على محمد بن عبد الله عليه السلام لم يـكتف بهذه الآيات البينات التى تدور حول مشكلة النبوة والرسالة وإنما تجاوزها إلى ما هو أبعد منها أثراً فى مجالات الصراع الفـكرى والحوار الجدلى .

لم يـكتف القرآن الـكريم بتحطيم الأدوات التى يعتمد عليها الناس فى تقييم الأنبياء والمرسلين ، وإنما عمل فى الوقت ذاته على القضاء على النفوذ والسلطان اللذين تملـكهما القيادات المدنية والقيادات الدينية فى المجتمع العربى بصفة عامة وفى المجتمع المـكى بصفة خاصة .

وهذا الصنيع من القرآن الـكريم هو الذى زاد من أبعاد هذه المشكلة ودفع بها إلى مجال الخصومات التى تبـــدو شخصية ، من بعض الأطراف ، فى القوى المتصارعة .

وأرى أنه من الخير لنا فى هذا المقام أن نستعرض سويا موقف القرآن الـكريم من النفوذ والسلطان اللذين كانت تملـكهما هذه القيادات .

ونبدأ بموقف القرآن الـكريم من القيادات المدنية .

كانت هذه القيادات تستمد سلطانها من القوة التى تملـكها ، وكانت هذه القوة تنبع من مصدرين معروفين هما : كثرة الأموال وكثرة الأولاد .

وكانت هذه القوة تمـكن لهذه القيادات من المجتمع وتـكسبها كثرة كاثرة من الأتباع .

ونزل القرآن الـكريم ليحط من شأن هذه القوة ، وليبين للناس أن القوة

لا تصلح أبداً لأن تكون قيمة إجتماعية أو سياسية يمارس الناس الحياة على أساس منها . . .

وأسلوب القرآن فى هذا الموقف ، ووسيلته إلى تحقيق أهدافه من الحط من شأن القوة ، يمضى على الأساس التالى :

أولا : نسبية القوة .

إن القوة التى لا تقهر هى قوة الله وحده ، أما ما عداها من القوى فهى قابلة للقهر وللغلبة . ومن هنا يحرص الناس على إمتلاك أسباب القوة الأكبر ، والأشد ، والأقوى .

هذا الحرص من الناس ليس فى محله لأن القوة فى حد ذاتها ليست الهدف الأفضل ، وإنما الهدف الأكمل والأفضل هو العمل الصالح — العمل الذى يصلح به حال الفرد ، ويصلح به حال المجتمع ، ويحقق الخير العام .

وثانياً : زوال القوة .

فالقوة البشرية مهما يكن شأنها لا تثبت ولا تدوم ، وهى منتهية حتما إلى زوال .

قد يطول أمر القوة بعض الشىء ، وقد يزهو بها أصحابها ويتفاخرون ، ولكنها منتهية حتما إلى ضعف وزوال .

وثالثاً : فتنتها للناس .

فالقوة قد تدفع إلى الطغيان ، وقد تصرف الناس عن سبل الخير وتدفع بهم إلى سبل الشر والنكر والبلاء .

إن العدل مع القوة فى خطر من حيث أنهما لا يتعايشان إلا فى القليل النادر . . .

وإن الظلم مع القوة فى قرن لأنهما لا يفترقان إلا فى القليل النادر ، وعند من ترتفع قيمة المبادىء عندهم إلى الحد الذى يضحون فيه بمصالحهم الشخصية .

ورابعاً : لأنها لا قيمة لها عند الله .

فالله العادل القوى العزيز لا يعبأ بالقوة التى يملكها الأقوياء ، ولا تزن عنده جناح بعوضة .

إن العدل هو الذى يسود يوم الحساب . يوم نضع الموازين القسط للناس فلا تظلم نفس شيئاً .

وفى ضوء هذا الذى ذكرنا نقرأ سويا هذه الآيات البينات التى استقينا منها كل ما سبق من وصف لوسيلة القرآن فى الحط من شأن القوة ، ومن شأن أسباب القوة من كثرة الأموال وكثرة الأولاد .

لنقرأ سويا هذه الأقاصيص التى تصور التجربة الإنسانية للقوة فى عصور مختلفة سبقت عصر محمد عليه السلام .

يقول الله تعالى : « فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق ، وقالوا : من أشد منا قوة ؟ .

أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة . . . »

ويقول : « أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم . . .

كانوا أكثر منهم ، وأشد قوة وآثارا فى الأرض ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون . . . »

ويقول : « وكأين من قرية — هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك — أهلكناهم ، فلا ناصر لهم . . . »

إنها واضحة الدلالة فى أن القوة نسبية ، وفى أن القوة ليست دائمة — أى ليست أبدية أو أزلية .

ولنقرأ سويا هذه الآيات التى وردت فى شأن حرص الناس على أسباب القوة

من كثرة للأموال وكثرة للأولاد ، وكيف أن هذا الحرص ليس فى محله ، وأنه قد يوردهم مورد التهلكة .

يقول الله تعالى : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا .

والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا . . . »

ويقول : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو ، وزينة وتفاخر بينكم ، وتكاثر فى الأموال والأولاد .

كمثل غيث أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفراً ، ثم يكون حطاما . . . »

وندرك نحن من الآيتين أن القرآن الكريم لا يرى الغاية التى ليست بعدها غاية فى تملك أسباب القوة من كثرة للأموال وكثرة للأولاد ، وإنما يراها فى الباقيات الصالحات . .

إن الأعمال التى يصلح بها حال الفرد ، وتصلح بها حال الجماعة ، هى عند الله خير ثواباً ، وهى عند الله وعند الناس خير أملا . . .

أما الأموال والأولاد فشأنهما شأن ذلك النبات الذى أعجب به الكفار والذى هاج ثم اصفر ثم صار حطاما .

والذى ندركه من هذه الآيات هو الذى يشرح لنا الأسباب التى من أجلها كانت هذه التوجيهات الواردة فيما يلى من آيات :

يقول الله تعالى : « واعلموا أنما أموالكم ، وأولادكم فتنة ، وأن الله عنده أجر عظيم . . . »

ويقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ، ولا أولادكم ، عن ذكر الله .

ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون » .

ويقول مخاطباً النبى عليه السلام : « فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ،

إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا ، وتزهق أنفسهم وهم كافرون » .

ويصف المؤمنين فيقول : « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .. »

ويصف المشركين والمنافقين فيقول : « وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما . . »

ويقول على لسانهم : « شغلتنا أموالنا وأهلونا » .

جاء فى تفسير المنار عند توضيح معنى الفتنة فى الأموال وفى الأولاد ما يلى :
« وفتنة الأموال والأولاد عظيمة لا تخفى على ذى فهم — إلا أن الأفهام تتفاوت فى وجوهها وطرقها . .

فأموال الإنسان عليها مدار معيشته ، وتحصيل رغائبه وشهواته ، ودفع كثير من المكاره عنه . .

إنه يتكلف فى كسبها المشاق ويركب الصعاب ...

ويكلفه الشرع فيها التزام الحلال واجتناب الحرام ، ويرغبه فى القصد والإعتدال ...

وهذا أصل عظيم فى تربية المؤمن نفسه على التزام الحق ، وكسب الحلال وأجتناب الحرام ، واتقاء الطمع والدناءة فى سبيل جمع المال ، والإدخار للأولاد ... »

ويمضى القرآن الكريم إلى ما هو أبعد من كل ذلك أثراً فى حياة هذه القيادات المدنية ...

إن أسباب القوة لن تغنى شيئا عند الله ، ولا يكسب أصحابها أى امتياز فى الحياة الآخرة — يوم يقوم الناس ليروا أعمالهم ...

ان الفضل والامتياز فى الحياة الآخرة إنما يكون بالإيمان وبالعمل . الإيمان بالله الواحد الأحد ، والعمل فى سبيل الصالح العام وتحقيق الخير للناس .

يقول الله تعالى : « وقالوا : نحن أكثر أموالا وأولاداً وما نحن بمعذبين ..

قل : إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ...

وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى — إلا من آمن وعمل صالحا .

فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا ... »

أما الازدياد فى حدة المشكلة ، والعنف فى الصراع الفكرى ، والسخونة فى الحوار الجدلى ، فتمثل لها بالآيات التالية :

يقول الله تعالى : « ويل لكل همزة لمزة ، الذى جمع مالا وعدده ، يحسب أن ماله أخلده .

كلا : لينبذن فى الحطمة ، وما أدراك ما الحطمة ، نار الله الموقدة ... »

ويقول : « ذرنى ومن خلقت وحيداً ، وجعلت له مالا ممدوداً ، وبنين شهوداً ومهدت له تمهيداً ، ثم يطمع أن أزيدا .

كلا : إنه كان لآياتنا عنيداً . سأرهقه صعوداً ... »

ويقول : « أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا . قال : أساطير الأولين . سنسمه على الخرطوم . »

ويقول : تبت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى ناراً ذات لهب . وامرأته حمالة الحطب . فى جيدها حبل من مسد ... »

* * *

ولننتقل الآن إلى القيادات الدينية .

وتمتلك هذه القيادات من السلطان أكثر مما تمتلك القيادات المدنية ،

وذلك لأن سلطان الدين فى العهود القديمة والعصور الغابرة لا يدانيه أى سلطان آخر .

وينبع هذا السلطان من مصادر عديدة أهمها من وجهة نظرنا ثلاثة .

المصدر الأول : إيمان الناس فى ذلك الوقت بأن القيادات الدينية قادرة بذاتها على معرفة الغيب ، وأنها بهذه القدرة تقدم خدمات جليلة للناس ، من حيث أنها قادرة على اخبارهم بغيبهم ، وبالمقدر لهم ، وبالمكروه قبل أن ينزل بهم .

ويترتب على ذلك أنها الوسيلة إلى الله ، وتطالب الناس بالقربات التى يتقربون بها إلى الله ليكشف عنهم الضر ، ويزيل عنهم المكروه .

المصدر الثانى : ايمان الناس فى ذلك الوقت بأن للقيادات الدينية منزلة خاصة عند الله . منزلة تجعل من حقهم الاستشفاع عند الله للناس ، ومن حقهم على الله قبول شفاعتهم .

وكان الناس — وبخاصة الخطأة والعصاة — يرون فى ذلك مصلحة لهم من حيث أن هذا الإستشفاع ينجيهم من العذاب فى الدنيا وفى الآخرة .

أما المصدر الثالث والأخير — وهو الأهم من وجهة نظرنا — هو أنهم قادرون على توجيه حياة الناس فى كل صغيرة وكبيرة باعتبارهم قيادات دينية .

لقد كانت قيادات ذاك الزمان تملك حق التحليل وحق التحريم ، وكان الناس يستجيبون لها بدون مجادلة فى حلال أو فى حرام . إن عليهم أن يسمعوا وأن يطيعوا .

وعمل القرآن الكريم على القضاء على هذه الحقوق منذ اللحظات الأولى ، وحدد القرآن الكريم الوسيلة إلى التعرف على الغيب بحيث تصبح كل وسيلة غيرها غير صحيحة . وحدد القرآن الكريم مواطن الشفاعة والأشخاص الذين يشفعون أو يشفع لهم بحيث يعتبر كل ما عداها باطل الأباطيل ، وأسقط

القرآن الكريم كل حق للقيادات الدينية فى التحليل أو فى التحريم ، وجعل ذلك حقاً لله وحده . لا ينازعه فيه منازع ، ولا يشاركه فيه شريك .

ونرى من الأوفق أن نستعرض سويا موقف القرآن الكريم من كل مصدر من مصادر هذه القوة .

ونتجه أول ما نتجه إلى موقفه من مسألة علم الغيب .

لقد كان العرب فى الجاهلية يعتقدون أن الأرواح الخفية — الجن والشياطين — تستطيع الصعود إلى السماء والإطلاع على الغيب ، وأنها حين تنزل من السماء تخبر القيادات الدينية بهذا الغيب الذى تخبر به هذه القيادات الناس .

وكانت هذه العقيدة سبباً قويا من الأسباب التى دفعت بالعرب إلى إنكار نبوة النبى عليه السلام ، ذلك لأنهم اتهموه بأنه على صلة بهذه الأرواح الخفية ، وأنها التى تنزل عليه بما يتلوه عليهم من آيات .

وحارب القرآن هذه العقيدة — لا دفاعا عن النبى عليه السلام فحسب ، وإنما لأن معرفة الغيب فى ذاتها من الأمور التى لا تكون إلا لله ، فهو وحده الذى يعرف الغيب ، وهو وحده القادر على أن يخبر بالغيب من يراه أهلا لذلك .

والآيات التى يحارب فيها القرآن هذه العقيدة ، ويدافع فى الوقت ذاته عن محمد عليه السلام عديده ، ونقف منها عند هذه الآيات البينات .

يقول الله تعالى على لسان هذه الأرواح الخفية — الجن — : « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرصاً شديداً وشهباً ، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصداً »

ويقول دفاعا عن القرآن الكريم : « وما تنزلت به الشياطين ، وما ينبغى لهم وما يستطيعون . إنهم عن السمع لمعزولون » .

ويقول : « إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ، وحفظاً من كل شيطان

مارد . لايسمعون إلى الملأ الأعلى ، ويقـــذفون من كل جانب دحوراً ، ولهم عذاب واصب . »

أما الآيات التى يثبت فيها القرآن الكريم أن علم الغيب وقف على الله تعالى ، وعلى من يرتضيه الله تعالى ليعلم الغيب ويعلمه الناس ، فكثيرة هى الأخرى. ونقف منها عند هذه الآيات :

يقول الله تعالى : « قل : لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله . »

ويقول : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو . »

ويقول : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول »

ويقول : « ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ، وما كان الله ليطلعكم على الغيب ، ولكن الله يجتبىء من رسله من يشاء. »

وكان محمد عليه السلام يتلو على الناس من الآيات مايقطع بأنه لا يعرف الغيب إلا بالقدر الذى يعلمه الله به ، ويطلعه عليه .

يقول الله تعالى معرفا محمداً عليه السلام بما يجب أن يقوله للناس

« قل : لا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول إنى ملك . إن اتبع إلا مايوحى إلىّ ...»

« قل : لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير رمامسنى السوء — إن أنا إلا نذير مبين . »

جاء فى تفسير المنار .

الغيب قسمان : —

غيب حقيقى مطلق ، و هو ماغاب علمه عن جميع الخلق حتى الملائكة . وفيه يقول الله عز وجل : « قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله . »

وغيب إضافى ، وهو ماغاب علمه عن بعض المخلوقات دون بعض ، كالذى يعلمه الملائكة من أمر عالمهم وغيره ، ولا يعلمه البشر مثلا .

وأما ما يعلمه بعض البشر بتمكينهم من أسبابه ، واستعمالهم لها ، ولا يعلمه غيرهم لجهلهم بتلك الأسباب أو عجزهم عن استعمالها ، فلا يدخل فى عمومه معنى الغيب الوارد فى كتاب الله .

وهذه الأسباب :

منها ما هو علمى : كالدلائل العقلية والعلمية . فإن بعض العلماء فى الرياضيات وغيرها يستخرجون من دقائق المجهولات ما يعجز عنه أكثر الناس ، ويضبطون ما يقع من الخسوف والكسوف بالدقائق والثوانى قبل وقوعه بالآلاف من الأعوام.

ومنها ما هو عملى : كالتلغراف اللاسلكى الذى يعلم به الإنسان ما يقع فى البلاد الأخرى .

ومنها ما قد يصل إلى حد العلم من الإدراكات النفسية الخفية كالفراسة والإلهام.

وجاء فيه أيضاً : —

ولكن علم الغيب من موضوع الرسالة . فإن أصل موضوعها رؤية الملائكة ، والتلقى عنهم . وذلك من عالم الغيب الذى أمرنا بالإيمان به — اتباعا للرسول الذى رأى بعينيه وسمع بأذنه ، ووعى بقلبه .

وقد أثبت سبحانه وتعالى علم الغيب المتعلق بالرسالة للرسل عليهم السلام .

قال تعالى فى آخر سورة الجن : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول . »

فكيف أمر رسوله أن يتنصل من ادعاء علم الغيب ؟

نقول : —

أولا : — أن ما يظهر الله عليه الرسل هو الغيب الإضافى — لا الحقيقى المطلق الذى لم يؤت أحداً من خلقه الاستعداد له .

ثانياً : — إن إظهاره تعالى إياهم على شيء خاص من هذا الغيب لا يجعل ذلك داخلا فى علومهم الكسبية .

إن الوحى ضرب من العلم الضرورى يجده النبى فى نفسه عندما يظهره تعالى عليه ، فإذا حبس عنه لم يكن له قدرة ولا وسيلة كسبية إليه ..

إن الرسل عليهم السلام لم يعطوا علم الغيب بحيث يكون إدراكه من علومهم الكسبية .

أما موقف القرآن من الشفاعة والشفعاء فنتركه إلى الفصل التالى الخاص بمشكلة التوحيد من حيث أن ظاهرة الشفاعة مرتبطة إلى حد كبير بتعـــدد الآلهة ، وبالشرك .

إن من الآلهة عند المشركين نوعا يعتبر الوسيلة إلى الله ويملك حق الشفاعة .

وإن من الأنبياء عند أهل الكتاب من يملك حق الشفاعة ، ومن يستطيع إنقاذ الأهل والعشيرة من سوء المصير ومن العذاب .

وكل ذلك مما يتصل بفكرة التوحيد الخالص ، وبفكرة التعدد ، وبفكرة الأسرة الآلهية ووجود أبناء وبنات لله .

هذه الاعتبارات هى التى جعلتنا نؤثر جعل الحديث عن الشفاعة والشفعاء فى الفصل الخاص بمشكلة التوحيد ــ وهو الفصل التالى إن شاء الله .

* * *

أما موقف القرآن الكريم من حق التحليل والتحريم فيمكن أن نستعرضه سويا على الوجه التالى : —

يشير القرآن الكريم فى بعض الآيات إلى أن المشركين كانوا يعترفون بحق التحليل والتحريم للشركاء ، ولمن يقوم على خدمة الشركاء من السدنة ، والكهان ، ومن إليهم .

ويشير القرآن أيضاً إلى أن أهل الكتاب كانوا يعترفون بهذا الحق لرجال الدين عندهم من الأحبار والرهبان ومن إليهم .

والذى يترتب على الإعتراف بهذه الحقوق هو أن كلا من المشركين وأهل

الكتاب يقومون بتنفيذ الأوامر والنواهى التى توجه إليهم من هذه السلطات وإلا عدوا من الخارجين على أوامر الدين ونواهيه .

ووقف القرآن الكريم من هذه المسألة موقف المنكر لها ، وموقف المؤكد لأن هذا الحق ليس إلا لله وحده .

يقول الله تعالى فى شأن المشركين : — « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله »

ويقول : « قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم ،وحرموا مارزقهم الله افتراء على الله »

ويقول : « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم — ليردوهم ، وليلبسوا عليهم دينهم »

ويقول : « واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا ، والله أمرنا بها .

قل إن الله لايأمر بالفحشاء . أتقولون على الله مالا تعلمون »

ويقول الله تعالى فى شأن أهل الكتاب : — « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله »

والأكثرون من المفسرين يقولون : ليس المراد من الأرباب أنهم اعتقدوا أنهم آلهة العالم ، بل المراد أنهم أطاعوهم فى أوامرهم ونواهيهم .

نقل أن عدى بن حاتم كان نصرانيافانتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ سورة براءة ، فوصل إلى هذه الآية .

قال : فقلت لسنا نعبدهم .

فقال : أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ؟ ويستحلون ما حرم الله فتستحلونه ؟

قلت : بلى

قال : فتلك عبادتهم .

وقال الربيع : قلت لأبى العالية كيف كانت تلك الربوبية فى بنى إسرائيل ؟

فقال : أنهم ربما وجدوا فى كتاب الله مايخالف أقوال الأحبار والرهبان فكانوا يأخذون بأقوالهم .

أما الآيات التى تنكر على الشركاء ،وعلى الأحباروالرهبان ، هذا الحق وتثبته لله وحده فكثيرة . ونكتفى هنا ببعض الآيات .

يقول الله تعالى مخاطباً نبيه عليه السلام ، ومعاتباً إياه فى الوقت ذاته : « ياأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك »

ويقول الله تعالى فى توجيه النبى عليه السلام إلى الحديث عن قضايا التحريم : « قل : تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم »

ويقول : « قل : لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ... »

وهذا النوعان من ايات يشعران بما لايدع مجالا للشك أن حق التحليل والتحريم ليس إلا لله وحده ، وأنه لايثبت لنبى من الأنبيا ... »

وهناك نوع ثالث من الآيات القرآنية يطلب إلى المسلمين ألا يستجيبوا فى التحليل والتحريم إلا لما نزل من عند الله ، وأن يمتنعوا عن الإستجابة لما هو من عند غير الله لإنه فى الحقيقة ليس إلا الإفتراء على الله .

يقول الله تعالى : « إتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ، ولا تتبعوا من دونه أولياء »

ويقول الله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ما أحل الله لكم ، ولاتعتدوا ، إن الله لايحب المعتدين »

ويقول : « قل إما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا ، قل : آلله أذن لكم أم على الله تفترون ؟ »

ويقول : « ولاتقولوا لما تصف ألسنتكم الـكذب : هذا حلال وهذا حرام ، لتفتروا على الله الـكذب ... »

ويعلق صاحب المنار على الآية الأولى من هذه الآيات بقوله : —

« والمتبادر هنا من النهى عن إتباع الأولياء من دونه تعالى هو : النهى عن طاعة أحد من الخلق فى أمر الدين غير ماأنزله من وحيه ، كما فعل أهل الـكتاب فى طاعة أحبارهم ورهبانهم فيما أحلوا لهم وزادوا على الوحى من العبادات ، وماحرموا عليهم من المباحثات ..

وكل من أطاع أحداً إطاعة دينية فى حـكم شرعى لم ينزله ربه اليه فقد اتخذه ربا ...

والآية نص فى عدم جواز طاعة أحد من العلماء ، ولا الأمراء ، فى اجتهاده فى أمور العقائد ، والعبادات ، والحلال والحرام تديناً » ...

وعن القرمزى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : — الحلال ما أحل الله فى كتابه . والحرام ما حرم الله فى كتابه . وما سـكت عنه فهو مما عفا عنه » .

* * *

هذه المسائل وكثير غيرها ، هى التي زادت من حدة هذه المشكلة وجعلت الصراع من حولها يبدو قاسياً عنيفاً .

ولعله أن يـكون من الخير لهذا الـكتاب ولقارئه أن ننهى هذا الفصل بهذه الفقرة الهامة من تفسير المنار .

جاء فى ص ٢١٩ من الجزء الحادى عشر تحت عنوان « بيان ما جهل البشر من أمر النبوة والرسالة ووظائف الرسل » ما يلى :

كانت العرب تنـكر الوحى والرسالة الا أفراداً من بقايا الحنفاء فى الحجاز وغيره ، ومن دخل فى اليهودية والنصرانية لمجاورته لأهلهما ، وقليل ما هم .

وكانت شبهة مشركى العرب وغيرهم على الوحى استبعاد اختصاص الله تعالى بعض البشر بهذا التفضيل على سائرهم ، وهم متساوون فى الصفات البشرية بزعمهم.

ويقرب منهم اليهود الذين أنكروا أن يختص الله تعالى بهذه الرحمة والمنه من يشاء من عباده، وأوجبوا عليه أن يحصر النبوة فى شعب إسرائيل وحده — كأن بقية البشر ليسوا من عباده الذين يستحقون من رحمته وفضله ما أعطاه اليهود من هداية النبوة .

على أنهم وصفوا الأنبياء بالكذب والخداع والاحتيال على الله .

ووافقهم النصارى على حصر النبوة فيهم، وأثبتو قداسة غير الأنبياء من رسل المسيح عليه السلام وغيرهم ...

واتخذ كل من الفريقين أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله تعالى ، بأن نحلوهم حق التشريع الدينى من : وضع العبادات ، والتحليل ، والتحريم .

وكل ذلك من الكفر بالله وإنكار عدله ، وعموم رحمته وفضله . ومن مفسدات نوع الإنسان ، وجعل السواد الأعظم منه مستعبداً لأفراد من أبناء جنسه .

أبطل الله تعالى كل ذلك بما أنزله من كتابه على خاتم النبيين ، وأثبت بعثة الرسل والمنذرين لجميع شعوبه .

فقال تعالى : « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت . فنهم من هدى الله ، ومنهم من حقت عليه الضلالة » .

وقال :« إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً . وإن من أمة إلاخلا فيها نذير »

وكرم الإنسان بجعل التشريع الدينى من حقوق الله وحده . وإنما النبيون والرسل مبلغون عنه ، وليسوا بمسيطرين على الأقوام ، وطاعتهم تابعة لطاعته .

لقد أبطل مانحلهم الناس من ربوبية التشريع .

كما أبطل عبادتهم وعبادة من دونهم من القديسين .

وبذلك تحرر الإنسان من الرق الروحى والعقلى الذى منيت به الأمم .

المشكلة الثانية
التوحيد

١

كانت مشكلته الثانية أنه يدعو الناس إلى إله واحد ، ويقول لهم ، إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد .

وكان يتلو عليهم ما ينزل عليه به الوحى من آيات تقرر الوحدانية وترفض التعدد والشرك .

كان يتلو عليهم الآيات القرآنية التالية ، وأمثالها : —

« قل : هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » .

« هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم .

هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون .

هو الله الخالق البارىء المصور ، له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم » .

« وجعلوا لله شركاء الجن ، وخلقهم ، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم — سبحانه وتعالى عما يصفون . بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبه ، وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم .

ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو ، خالق كل شىء فاعبدوه ، وهو على كل شىء وكيل .

لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير » .

إن هذا لهو القصص الحق ، وما من إله إلا الله ، وإن الله لهو العزيز الحكيم » .

كانت هذه الآيات وأمثالها مما تدعو إلى التوحيد الخالص تثير ثائرة المشركين ، أولئك الذين يؤمنون بالتعدد ، ويرون فى القضاء عليه كارثة يجب أن تدفع قبل أن تستفحل .

ويسجل القرآن عليهم كثيراً من الانفعالات التى كانت تلم بهم حين يسمعون هذه الآيات الكريمة التى تدعو إلى التوحيد الخالص الذى لا تشوبه أية شائبة من شرك أو تعدد .

جاء فى القرآن الكريم على لسانهم : —

« قالوا : أجئتنا لنعبد الله وحده ، ونذر ما كان يعبد آباؤنا . . » .

وجاء : « أجعل الآلهة إلها واحداً ؟ إن هذا الشىء عجاب . ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة ، إن هذا إلا اختلاق » .

وجاء فيه أيضاً تصوير لحالتهم الذهنية ، وحالتهم النفسية ، حين يسمعون آيات التوحيد ما يلى : —

« وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون » .

« وإذ ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً » .

« ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم ، وإن يشرك به تؤمنوا » .

* * *

ومضى القرآن إلى ما هو أبعد من الدعوة إلى التوحيد ، ذلك لأنه تناول معبوداتهم بالحديث ، وبين لهم حقيقة أمر هذه المعبودات من أنها لا تستحق العبادة. إنها عاجزة عجزاً تاما عن أن يكون لها أمر أى أمر فى الخلق والإبداع ، وفى التدبير .

والآيات التي تظهر هذا العجز ، وتكشف أمام البصر والبصيرة حقيقة أمر هذه المعبودات كثيرة ، ونختار من بينها هذه الآيات البينات .

يقول الله تعالى : « ذلكم الله ربكم له الملك ، والذين تدعون من دونه ما يملكونه من قطمير .

إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ، ولا ينبئك مثل خبير . . » .

ويقول : « قل : أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله .

أروني ماذا خلقوا من الأرض ، أم لهم شرك في السموات ، أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه . . »

ويقول : « قل : ادعوا الذين زعمتم من دون الله ، لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، ومالهم فيهما من شرك ، وماله منهم من ظهير . . . » .

ويقول : « هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه » .

وأقوى الآيات في الدلالة على عجز الآلهة التي كانوا يعبدونها هي الآية القرآنية التالية .

يقول الله تعالى : « يا أيها الناس ، ضرب مثل فاستمعوا له :

إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له . وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه .

ضعف الطالب والمطلوب .

ما قدروا الله حق قدره . إن الله لقوى عزيز . . . »

ولأن هذا شأن آلهتهم ، وهو شأن مغاير تماما للخالق البارىء المصور . قال الله فيهم ! « ذلك بأن الله هو الحق . وأن ما يدعون من دونه هو الباطل . وأن الله هو العلي الكبير . . »

وصدق الله العظيم .

لم يكن من شأن العربى أن يرضى بمثل هذه الأقوال التى تقال فى آلهته — ومن هنا راح يدافع عنها ، ويعادى ذلك الذى ينطق فى حقها بمثل هذه الأقوال .

وأقوى الدوافع التى كانت تدفع العربى الجاهلى إلى هذ الموقف المعادى للنبى عليه السلام ، وللقرآن ، دافعان :

أولهما : — أن هذه الآيات القرآنية كانت تنحدر بآلهتهم من مواطن العز والفخار إلى مواطن الذل والمهانة ، وذلك أمر لا يليق أبداً بآلهتهم التى يعبدونها .

لقد كان هؤلاء الناس يرون عزتهم وكرامتهم من عزة الآلهة وكرامتها .

إن القبيلة إنما تكون قوية لأن الإله الذى تعبده قوى وينصرها وينتصر لها. وإن القبيلة إنما تكون ضعيفة حين يضعف إلهها عن الإنتصار لها، أو يصبح تابعاً لإله آخر أقوى منه وأشد .

والتنادى الذى تنادى به المشركون فى غزوة أحد من قولهم حين انتصروا أول الأمر : اعل هبل ، يدل على ذلك .

وقول المسلمين فى ذلك اليوم : الله أعلى وأجل ، فى سبيل الرد عليهم ، دليل آخر .

ولم يكن من اليسير أبداً على القبائل العربية أن تضحى بالآلهة التى تعبدها فى سبيل إله محمد من دون أن ينتصر عليها محمد .

لقد كان محمد فى نظرهم داعية يدعو إلى إحداث تغييرات جذرية فى معتقداتهم الدينية المبنية على التعدد ـ وذلك أمر يرفضونه ويصرون على البقاء على معتقداتهم ويدافعون عن التعدد .

وثانى الدافعين : — أن هذه الآيات القرآنية تدعو إلى إحداث تغييرات

جذرية فى الكيانات الاجتماعية التى يقوم عليها أساساً النظام العشائرى أو القبلى .

إن القبيلة هى الوحدة الأساسية فى المجتمع الجاهلى . ولقد تعددت الكيانات الاجتماعية بتعدد الوحدات الأساسية أو تعدد القبائل .

وكانت العلاقات بين هذه الوحدات علاقة عداوة فى الغالب — وهذا الذى يفسر لنا كثرة الحروب أو كثرة الوقائع والأيام فى هذا المجتمع .

وكان انتصار القبائل بعضها على البعض الآخر ينتهى بما كان يسمى فى عرفهم بالتبعية أو بالولاء .

ولم يكن من اليسير أبداً أن تضحى قبيلة بكيانها ، وأن تذوب قبيلة فى كيان قبيلة أخرى من دون هزيمة تضعفها أو تقضى عليها .

ولقد كانت دعوة التوحيد التى جاء بها القرآن الكريم ، ودعا إليها محمد عليه السلام ، قادرة على أن تجرهذه القبائل جميعها إلى الذوبان فى كيان واحد جديد — وهذا هو الأمر الذى ترفضه القبائل ، وترى فيه ذلة ومهانة .

إن الإيمان بإله واحد يؤدى حتما إلى وحدة فكرية ، وإلى تماسك إجتماعى قوى . وهذا هو الهدف الأساسى الذى استهدفه القرآن الكريم من الدعوة إلى التوحيد .

لقد رمى القرآن الكريم إلى القضاء على :

التعدد فى الألوهية .

والفرقة والانقسام فى الكيانات الاجتماعية .

والقرآن الكريم هو الذى يسجل كل هذا .

يقول الله تعالى : « ص ، والقرآن ذى الذكر — بل الذين كفروا فى عزة وشقاق .

وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ، وقال الكافرون : هذا ساحر كذاب .

أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟

إن هذا الشيء عجاب .

وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا الشيء يراد .
ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق . . » .

ويقول الله تعالى : « واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً .

كلا .

سيكفرون بعبادتهم ، ويكونون عليهم ضداً . . . » .

وامتن الله على العرب الذين أسلموا وتحققت لهم الوحدة ، فقال لهم :
« واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تتفرقوا .

واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم وأصبحتم بنعمته إخوانا . . . » .

كما قال للنبي عليه السلام : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شيء . . . » .

وحذر المسلمين من العودة إلى الفرقة والإنقسام فقال : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات .

وأولئك لهم عذاب عظيم . . . » .

وصدق الله العظيم

* * *

والذين عارضوا محمدا عليه السلام ، وناصبوه العداوة ، وسلكوا كل سبيل فى دحض دعوته والتغلب عليه ، لم يكونوا ملة واحدة ، وإنما كانوا مللا مختلفة من حيث صيغ الوحدانية والتعدد .

والذين أرخ القرآن لمعتقداتهم أنواع من الناس : —

النوع الأول : — هم أولئك الذين استجابوا لدعوة الأنبياء والمرسلين ، وآمنوا بإله واحد وأنكروا كل ماعداه .

والقرآن الكريم يصرح فى كثير من الآيات بأن الأنبياء جميعاً قد آمنوا بالتوحيد ، ودعوا إلى التوحيد .

وتاريخ الأنبياء الذى يقصه القرآن الكريم ـ وبخاصة ما ورد من قصص فى سورتى الأعراف وهود يشهد بذلك :

والآية القرآنية التالية نص واضح صريح فى ذلك .

يقول الله تعالى مخاطباً محمداً عليه السلام : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه : أنه لا إله إلا أنا فاعبدون . »

ونستطيع أن نقول إن تلك هى عقيدة الأنبياء ، فما من نبى إلا ودعا إليها .

والنوع الثانى : ـ هم أولئك الذين يؤمنون بالتعدد من أصحاب المعتقدات الوثنية .

أو هم أولئك الذين يؤمنون بالتوحيد ، ولكن توحيدهم يماثل فى بعض صيغة معتقدات الوثنية .

والنوع الثالث : ـ أولئك الذين لا يؤمنون بالله على الإطلاق . وهم الذين يعرفون فى كتب الملل والنحل بالمعطلة .

ويذكر الشهرستانى فى كتابه الملل والنحل أنهم أصناف عديدة .

وهؤلاء هم الذين يتحدث عنهم القرآن الكريم فيقول : « وقالوا : ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا . وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم، إن هم إلا يظنون »

والنوع الثانى من هذه الأنواع الثلاثة هو الذى يهمنا أكثر من غـيره فى هذا المقام .

والشرك أو التعدد عند هذا النوع الثانى له صور عديدة نذكر من بينها : ـ

أولا : ـ الصورة التى يكون فيها لله أنداد .

والند فى اللغة هو المشارك فى الجوهر . فنديد الشىء مشاركة فى جوهره — وذلك ضرب من المماثلة فيما يذكر الراغب الأصفهانى فى كتابه « الغريب فى مفردات القرآن » .

ويرى بعض المفسرين وبعض اللغويين أن اللفظ يقتضى إلى جانب معنى المماثلة معنى المخالفة — وذلك لأن الند والأنداد إنما تجىء من الندود ، وهو المخالفة .

فالمشركون الذين يجعلون لله أنداداً إنما يعتبرون أندادهم أكفاء مماثلين لله ، ومناظرين له .

وإستخدام الـكلمة فى القرآن يشعر بهذا .

يقول الله تعالى : « وجعلوا الله أنداداً ليضلوا عن سبيله .. »

ويقول : « ومن الناس من يتخـــذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله .. »

وفى القرآن الـكريم صورة لحوار يجرى يوم القيامة بين المستضعفين والمستكبرين يدل على هذه الحقيقة .

يقول الله تعالى : « وقال الذين كفروا : لن نؤمن بهذا القرآن ، ولا بالذى بين يديه .

ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول .

يقول الذين استضعفوا للذين استـكبروا : لولا أنتم لـكنا مؤمنين .

قال الذين استكبروا للذين استضعفوا : أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم . بل كنتم مجرمين .

وقال الذين استضعفوا : للذين استكبروا : بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً .. »

كما تدل على هذه الحقيقة الآية القرآنية التالية :

يقول الله تعالى : « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين ، وتجعلون له أنداداً . ذلك رب العالمين .. »

والعلاقة بين الأنداد فى الآيات القرآنية ليست علاقة ود وإنما يحتمل اللفظ فيها معنى المخالفة أيضاً .

والآيات القرآنية التى يشير فيها القرآن إلى فساد معنى التعدد توحى بذلك .

يقول الله تعالى : « قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا »

ويقول : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا .. »

ويقول : « ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض .

سبحان الله عما يصفون .. »

ويعلق الطبرى على هذه الآية الأخيرة بقوله : يقول لاعتزل كل إله منهم بما خلق من شىء فأنفرد به ، ولتغالبوا ، ولعلا بعضهم على بعض وغلب القوى منهم الضعيف لأن القوى لا يرضى أن يعلوه ضعيف ، والضعيف لا يصلح أن يكون إلها . »

ويقول صاحب الكشاف معلقاً على نفس الآية : « لا نفرد كل واحد من الآلهة بخلقه الذى خلقه واستبد به ، ولرأيتم ملك كل واحد منهم متميزاً من ملك ،

الآخرين ، ولغلب بعضهم بعضاً كما ترون حال ملوك الدنيا . ممالكهم متمايزة وهم متغالبون .

وحين لم تروا أثراً لتمايز الممالك ، وللتغالب ، فأعلموا أنما هو إله واحد بيده ملكوت كل شيء »

وهذا النوع من التعدد هو الذى يلائم البيئة الطبيعية والاجتماعية للبلاد العربية . فحياة القوم حياة قبلية . ولكل قبيلة إلهها الذى تعتز به ، ويقودها إلى النصر . والشاعر العربى يقول :

وسارت بنا يغوث إلى مراد

فناجزناهم قبل الصباح

وقصة أبى سفيان مع المسلمين يوم أحد تقرر هذه الحقيقة . فقد ظن أبو سفيان أن هبل قد انتصر على إله محمد ، وطلب إلى القوم أن يتنادوا : أعل هبل . ورد المسلمون عليه بأن الله أعلى وأجل .

والصورة الثانية من هذا الشرك هى التى يتصور فيها المشركون آلهة صغرى وآلهة كبرى . فهناك أرباب، وهناك رب الأرباب . وهناك الإله الأب والآلهة الأبناء والبنات .

والمشركون هنا يؤمنون بالله ، ولكنهم يؤمنون إلى جانبه بآلهة صغرى يتخذون منها الوسيلة إلى الله ، أو الشفاعة عند الله .

وهذه الآلهة الصغرى من جنس الملائكة فى الغالب ، أو هى الأوثان والأصنام التى تحتلها أرواح الآلهة .

والآيات القرآنية فى هذه العقيدة كثيرة جداً ، ونختار من بينها هذه الآيات.

يقول الله تعالى : « قل من يرزقكم من السماء والأرض ، أم من يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، ومن يدبر الأمر، فسيقولون الله .

قل :أفلا تتقون ؟

ويقول : « والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى. »

ويقول :« ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون؟

قالوا : سبحانك أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون .. »

ويقول : » وقالوا : اتخذ الرحمن ولداً .

سبحانه ، بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعلمون . يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ، وهم من خشيته مشفقون .

ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم .

كذلك نجزى الظالمين .. »

ويقول : « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر وله الأنثى ؟

تلك إذا قسمة ضيزى .

إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . إن يتبعون إلا الظن وماتهوى الأنفس

ولقد جاءكم من ربكم الهدى ... »

ويقول :« ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ...

قل : أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض ، سبحانه وتعالى عما يشركون ... »

إلى غير ذلك من أمثال هذه الآيات

ويرى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده أن هذا الآله الخالق الرازق الذى يظنه هـذا الفريق من المشركين رب الأرباب ، والذى يلجأون إليه حـين ينالهم المـكروه أو يصيبهم الشر إنما هو إله آخـر غـير الإله الذى يدعو إليه محمد عليه السلام .

يقول رحمه الله تعالى عند تفسيره للآية القرآنية الـكريمة : « قل : يا أيها الـكافرون لا أعبد ماتعبدون ... »

ما يلى : أى أن الإله الذى تزعمون أنـكم تعبدونه ليس هو الذى أعبده ، لأنـكم انما تعبدون ذلك الذى يتخذ الشفعاء ، أو الولد ، أو الذى يظهر فى شخص أو يتجلى فى صورة معينة ، أو نحو ذلك مما يزعمون . وإنما أعبد إلها منزها عن جميع ماتصفون به إلهـكم »

* * *

أما الصورة الثالثة فتلك التى يذكرها القرآن الـكريم على أنها التثليث . الأب، والإبن ، وروح القدس

وتختلف هذه الصورة عن الصور السابقة فى أمرين هامين : —

أولهما : — أن عدد الآلهة هنا محصور جداً . إنه ثلاثة ينتهون إلى واحد ، حتى لـكأنه التوحيد . أما فى الصور السابقة فالعدد كبير إذ لـكل قبيلة إله تقريباً . إله يعتبر ندا لله . ولبعض آلهة القبائل بنات هم الملائـكة

ثانيهما : — أن بعض أجزاء الثالوث فى هذه الصورة يتمثل للناس بشراً سوياً . أما الآلهة فى الصور السابقة فلا تظهر لا فى الصورة البشرية ولا فى غيرها. إنها أرواح خفية تحل فى الأوثان والأصنام وما أشبه .

ذلك المذهب يتبين فى وضوح من الآيات التالية .

يقول الله تعالى : « ياأهل الـكتاب ، لاتغلوا فى دينـكم ، ولا تقولوا على الله إلا الحق . إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه .

فآمنوا بالله ورسوله، ولا تقولوا ثلاثة . انتهوا خيراً لـكم. إنما الله إله واحد. سبحانه أن يـكون له ولد له ما فى السموات وما فى الأرض ، وكفى بالله وكيلا . . . »

ويقول : « لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلا إله واحد . . . »

ويقول : « لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم

قل : فمن يملك من الله شيئاً ان أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً . . . »

ويقول : « لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم

وقال المسيح : يابنى اسرائيل اعبدوا الله ربى وربـكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ، ومأواه النار وما للظالمين من أنصار . . . »

* * *

ويشير القرآن فيما يشير من مسائل التعدد إلى مسألة يعتبر فيها التعدد مجازياً ، تلك هى اتخاذ أهل الـكتاب الأحبار والرهبان أربابا من دون الله .

لقد كان مركز الأحبار والرهبان من حيث التشريع مركز من يحللون ويحرمون. أى مركز من يشرع ابتداء معتديا فى ذلك على حقوق الله التشريعية ، إذ التحليل والتحريم الدينى حق من حقوق الله وحده . . .

يقول الله تعالى فى هذه الصورة من صور التعدد : « قل : يا أهل الـكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينـكم ، ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله .

فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون ٠٠٠ »

ويقول : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، والمسيح بن مريم، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ٠٠٠ » .

* * *

وإلى جانب ماتقدم صور خاصة بعبادة الكواكب والنجوم ، وعبادة إلهين أحدهما للخير والثانى للشر ، وما إلى ذلك مما جاء إلى الجزيرة العربية نقلا عن الديانة الفارسية القديمة ٠

وجاء محمد بما يهدم ذلك كله ويقضى عليه من الأساس ٠ جاء يدعو الناس الى إله واحد ، ويجعل من المؤمنين بدعوته أمة واحده مهما تختلف أجناسهم ولغاتهم وأديانهم السابقة ٠٠٠

ولم يكن من السهل أبداً أن يقضى محمد على كل ذلك فى حياته القصيرة الأمد ٠ إن ذلك يحتاج إلى أزمان متطاوله تعد بالقرون لا بالسنوات ٠٠٠

والذين آمنوا بدعوة محمد مكلفون من بعده بالعمل من أجل تحقيق هذين الهدفين ٠ إيمان بالله وحده ، وأمة واحدة تدعو إلى الخير ، وتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ٠

وحين تقوم هذه الأمة التى يدعو الإسلام المسلمين إلى إقامتها يتحقق الخير العام ، ويقضى على الفرقة والانقسام ، ويسود الأمن ، ويطمئن الناس فى معاشهم ٠٠

إنها دعوه إنسانية

وما أحوج الناس إلى تحقيق هذه الدعوة اليوم قبل الغد

« وإن هذه أمتكم أمة واحدة ٠

وأنا ربكم فاعبدون ٠٠٠ »

وصدق الله العظيم

٢

وهناك مشكلة أخرى ترتبط بالمشكلة السابقة ارتباطاً قوياً ،وتتصل بها اتصالا مباشرا ، وتلك هى مشكلة الشفاعة .

لقد دعا القرآن الكريم الى التوحيد ، مستهدفاً بذلك القضاء على الشرك وعلى تعدد الآلهة . وفى القضاء على الشرك وعلى تعدد الآلهة قضاء على تلك الفكرة التى يؤمن بها المشركون وأهل الكتاب على حد سواء، وهى فكرة الشفاعة .

لقد كان المشركون يعتقدون أن من وظائف بعض آلهتهم الاستشفاع لهم عند الآلهة الأكبر أو عند رب الأرباب . وحين استهدف القرآن القضاء على هذه الآلهة التى تشفع ، فإنه قد استهدف فى الوقت ذاته القضاء على الشفاعة فى حد ذاتها .

والقضاء على الشفاعة أو إحداث تغييرات جذرية فى مضمونها مطلب أصيل من مطالب القرآن الكريم ، وليس ذلك إلا لأن الشفاعة فى حد ذاتها أكبر خطورة على المجتمع من تعدد الآلهة .

إن خطر التعدد يكاد ينحصر فى الفرقة والانقسام ومن هنا كان التوحيد هو العلاج الوحيد من حيث إن التوحيد يؤدى حتما إلى الوحدة الفكرية وهى الأساس القوى المتين فى التماسك الاجتماعى .

وإن خطر الشفاعة يمتد إلى القضاء على القيم الأصيلة لأى مجتمع من المجتمعات. قيم الحق والعدل والخير العام .

إن الشفاعة إنما تعنى استمرار الظلم ، واستمرار البغى والعدوان ، واستمرار السخرة واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان .

إن خطر الشفاعة أقوى ، وأشد فتكا بالمجتمعات ، من خطر الشرك والتعدد.

وفكرة الشفاعة قد نبتت عند المشركين من قياسهم أمور الدين على أمور الدنيا .

إنهم يرون أن الإنسان العادى فى هذه الحياة الدنيا لايحق له الاتصال المباشر بالحكام ورؤساء الدول من الملوك والأباطرة ، وإنما يتصل عن طريق فريق من الناس يعتبره الواسطة أو الوسيلة لهؤلاء .

وإنهم ليرون نفس الرأى فى الدين ، فليس من حق أحدهم الاتصال المباشر بالله وإنما لابد من الاعتماد فى ذلك على الآلهة الصغرى ، أو على الملائكة ، أو على المقربين من الأولياء ورجال الدين .

وتثبت فكرة الشفاعة عند أهل الكتاب من أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأن الله لن يعذب أبناءه وأحباءه ، وأنه يقبل منهم الفدية والعدل ، ويقبل فيهم شفاعة الأنبياء والقديسين .

واستهدف القرآن الكريم منذ اللحظات الأولى إحداث تغييرات جذرية فى هذا الذى يراه المشركون وأهل الكتاب من أمر الشفاعة .

وموقف القرآن الكريم فى ذلك واضح كل الوضوح .

فالشفاعة لله وحده ، ولايملكها كائن غيره مهما يكن أمره :

يقول الله تعالى : « الله الذى خلق السموات والأرض ومابينهما فى ستة أيام، ثم استوى على العرش ، ما لكم من دونه من ولى ولاشفيع ... »

ويقول : « أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لايملكون شيئاً ولا يعقلون . قل : لله الشفاعة جميعاً ، له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون ... »

والله الذى يملك الشفاعة قد يأذن بها لمن يشاء . يأذن فى الاستشفاع عنده بشروط تتوفر فى المشفوع لهم .

وهؤلاء الذين يأذن الله لهم فى الاستشفاع للناس عنده هم فيا يظهر من الآيات القرآنية من الملائكة .

يقول الله تعالى : « لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً .

ويقول : « يومئذ لاتنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا »

ويقول : « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . سبحانه، بل عباد مكرمون ، لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى، وهم من خشيته مشفقون . . »

ويقول : « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه . . »

والقرآن ينص على أن هناك من لاتقبل الشفاعة فيهم على الاطلاق ، وذلك هم الكفرة والظالمون .

يقول الله تعالى : « وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين . فما تنفعهم شفاعة الشافعين . . »

ويقول :« وأنذرهم يوم الآزفة إذالقلوب لدى الحناجر كاظمين ، ماللظالمين من حميم ولاشفيع يطاع . . »

وحتى غير الكفرة وغير الظالمين لاتقبل فيه الشفاعة إلا بإذن من الله سبحانه وتعالى .

يقول الله تعالى : « وكم من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ، » .

والشفاعة فى صيغتها هذه لاتعارض تحقيق العدالة أبدا . فالعدالة لابد من أن تتحقق — وهذا هو الذى تنص عليه الآيات القرآنية التى يخاطب بها المولى سبحانه وتعالى كلا من بنى اسرائيل ، والذين آمنوا .

يقول الله تعالى : « يابنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين .

واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس شيئا ، ولا يقبل منها عدل ، ولاتنفعها شفاعة . . »

ويقول : — « ياأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لابيع فيه ، ولاخلة ، ولاشفاعة . . »

إن الشفاعة التى تنافى العدالة إنما هى تلك التى كان يتصورها المشركون ويتصورها أهل الكتاب ، وهى الشفاعة التى تنجى من العذاب مهما تكن الذنوب والآثام .

جاء فى ص ٥٤٥ ومابعدها من الجزء السابع من تفسير المنار مايلى : —

وأما قاعدة وثنية العرب وغيرهم فهى : اتخاذ أولياء من العباد يزعمون أنهم وسطاء بين الله وبين عباده فى شئون الخلق والإيجاد ، والإشقاء والإسعاد ، . .

قياسا على ما يعهدون عن الأقربين والمقربين عند الملوك المستبدين .

فهم لذلك يدعونهم مع الله ، أو من دون الله .

« ويعبدون من دون الله مالايضرهم ولاينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله . . »

وقد هدم القرآن جميع قواعد مشركى العرب وغيرهم من الوثنيين وأهل الكتاب الذين جعلوا مدار السعادة والنجاة على شفاعة أنبيائهم وأوليائهم — لا على اتباعهم فى العمل والإيمان وفضل الله تعالى .

ولما كان إبراهيم عليه السلام أعلى البشر مقاما فى أنفس العرب ، ومقامه الأعلى فى الرسل عند أهل الكتاب مقامه ، كرر الله تعالى فى كتابه ذكر كفر والده ، واجتهاده هو فى هوايته ، وعنايته بالاستغفار له . وأن ذلك كله لم يفده شيئا . .

ليعلم الناس أن مدار النجاة فى الآخرة على الإيمان الصحيح المستلزم للعمل بما جاء به الرسل — لا بأشخاص الرسل وتأثيرهم الشخصى عند الله كتأثير الأقربين والمقربين عند الملوك المستبدين . إذ يحملونهم بالشفاعة أو الإقناع على عفو عن مذنب ، أو إحسان إلى غير مستحق .

وهذه هى نظرية الوثنيين فى الشفاعة التى نفاها القرآن المجيد.

وأثبت القرآن الكريم أن الشفاعة لله جميعا ، ولا يشفع عنده أحد إلا من بعد إذنه للشافع ورضاه عن المشفوع له . . »

* * *

ومن الواضح عند الجميع أن هذه الأوثان التى لا تملك من أمر نفسها شيئا . والتى لا تستطيع أن تنفع أو تضر ، تملك حقا مثل حق الشفاعة ، وتستطيع به أن تستشفع للظلمة والخاطئين فيقبل الله شفاعتها ، ويعفو عن هؤلاء وينجيهم من العذاب .

إن فى هذا إزهاقا للحق ، وتقويضا للعدل ، وحاشا للمولى سبحانه أن يستجيب لمثل هذه الأوهام .

المشكلة الثالثة

البعث ثم الحساب
أو
حتمية العدالة

١

أما المشكلة الثالثة فتدور حول حتمية العدالة ، أو حول ذلك اليوم الذى يبعث فيه الناس من قبورهم للمجازاة على أعمالهم — وهو اليوم الذى يعرف بيوم البعث أو يوم الحساب .

وارتباط العدالة بيوم الحساب ظاهرة واضحة تماماً فى الآيات القرآنية الـكريمة ، ذلك لأن هذا اليوم هو اليوم الذى يحاسب فيه الناس على ماقاموا بهمن أعمال — فمن كان عمله للصالح العام أثيب وأدخل الجنة، ومن كان عمله سيئاوضارا بالمجتمع ، وبالصالح العام ، عوقب وأدخل النار .

يقول الله تعالى : « إن إلينا إيابهم ، ثم إن علينا حسابهم »

ويقول : « اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ، لاظلم اليوم إن الله سريع الحساب » .

ويقول : « ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون . الا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين » .

ويقول : « وترى كل أمة جاثية . كل أمة تدعى إلى كتابها ، اليوم تجزون ما كنتم تعملون »

ويقول : « وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا »

ويقول : «ونفخ فى الصور فإذاهم من الأحداث إلى ربهم ينسلون. قالوا : ياويلنا من بعثنا من مرقدنا ؟

هذا ماوعد الرحمن وصدق المرسلون . إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم

جميع لدينا محضرون . فاليوم لاتظلم نفس شيئا ، ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون » . .

وحتمية العدالة من الأمور التى أكدها القرآن الكريم ، ودعا الناس إليها فى مثالية يعز تحقيقها إلا على من هم فى منزلة الأنبياء والقديسين .

وهذه المثالية هى التى جعلت تحقيق العدالة فى أكمل صورها من اختصاص أعدل الحاكمين — وهو المولى سبحانه وتعالى — فى ذلك اليوم الذى يعرف بيوم الحساب .

والآيات القرآنية التى تشير إلى حتمية العدالة كثيرة ، ونختار من بينها هذه الآيات البينات : —

يقول الله تعالى : « ياداوود ، إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ، ولاتتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله . إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب »

ويقول : « ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولايجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون »

ويقول : « وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون »

ويقول : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعما يعظكم به . إن الله كان سميعا بصيرا »

* * *

والمشكلة المتعلقة بيوم الحساب إنما تدور حول أمرين :

الأول : — أن صيغة العدالة التى تكون فى يوم الحساب أو يوم الجزاء تختلف عن هذه الصيغة التى يجرى عليها العمل فى هذه الحياة الدنيا — وبخاصة تلك التى كان يجرى عليها العمل فى الجاهلية .

لقد كانت العدالة فى هاتيك الأيام غير حتمية فقد كان هناك أصحاب الامتيازات الذين لايقبلون المساواة فى الحقوق مع غيرهم : ممن يشعرون أنهم دونهم فى المستوى الطبقى .

وكان هناك إلى جانب هؤلاء من يدعون أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأنهم من من أجل ذلك فى مقام أعلى من مقامات بقية الناس .

وكان هناك إلى جانب هذين قوم يذهبون إلى أن عندهم من يشفع لهم عند الآلهة ، أو أنهم قادرون على دفع العدل الذى ينجيهم من طائلة العقاب .

كانت هذه الصور من الحياة موجودة فى المجتمع الجاهلى ، وجاء القرآن الكريم يقضى عليها جميعها ويحل محلها هذه الصورة التى رأيناها فى الآيات السابقة التى تدور حول حتمية العدل ، وحول إقامته على أساس من الحق بدون النظر إلى أى شىء آخرى .

والآيات التى تعطينا الصيغة الجديدة للعدل كثيرة ، ونختار من بينها هذه الآيات .

ويقول الله تعالى : « واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس شيئا ، ولايقبل منها عدل ، ولاتنفعها شفاعة ، ولاهم ينصرون » .

ويقول : « يأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لايجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ، إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولايغرنكم بالله الغرور . . »

ويقول : « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه . قل : فلم يعذبكم بذنوبكم ؟

بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، ولله ملك السموات والأرض ومابينهما ، وإليه المصير . . »

ويقول : « ويعبدون من دون الله مالايضرهم ولاينفعهم ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله

قل : أتنبئون الله بما لايعلم فى السموات ولافى الأرض ، سبحانه وتعالى عما يشركون . . »

وفى سورة إبراهيم وسورة غافر حوار يقع فى الحياة الآخرة ويكشف عن عن العلاقة بين الأتباع الذين يظنون أن العلاقه فيما بينهم كفيلة بأن تنجى فريق المستضعفين من النار .

جاء فى السورة الأولى : « وبرزوا لله جميعا

فقال الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعا ، فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء ؟

قالوا : لو هدانا الله لهديناكم . سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص .

وقال الشيطان لما قضى الأمر : إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم، وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى ، إنى كفرت بما أشركتمونى من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم »

وجاء فى السورة الثانية : « وإذا يتحاجون فى النار

فيقول الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار ...

قال الذين استكبروا : إنا كل فيها ، إن الله قد حكم بين العباد .

وقال الذين فى النار لخزنة جهنم : ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب

قالوا : أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟

قالوا : بلى

قالوا : فادعوا ، وما دعاء الـكافرين إلا فى ضلال ...

إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الاشهاد . يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم » ...

* * *

الأمر الثانى إمـكانية البعث . ذلك لأن المعاصرين للنبى عليه السلام كانوا لا يتصورون إعادة الحياة مرة ثانية إلى الموتى . فهم ينـكرون عملية البعث فى ذاتها — فضلا عن حتمية العدالة والصيغة التى تمارس بها قيمة العدالة .

والمعاصرون للنبى عليه السلام لم يـكونوا على رأى واحد فى هذه المسألة ، وإنما كانت لهم آراء مختلفة نشير إليها فيما يلى :

أولا : الذين ينـكرون البعث إنـكاراً تاماً .

وهؤلاء نقف على مذهبهم من الآيات التالية :

قال الله تعالى : « ق والقرآن المجيد ، بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ، فقال الـكافرون : هذا شىء عجيب ، أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد ؟ » .

وقال : « وقال الذين كفروا : أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون ؟ لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين » .

وقال : « وقال الذين كفروا : هل ندلـكم على رجل ينبئـكم إذا مزقتم كل ممزق إنـكم لفى خلق جديد ؟ .

افترى على الله كذبا أم به جنة ؟

بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد » .

وقال : « إن هؤلاء ليقولون : إن هى إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين . فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين » . .

وقال : « وقالوا : ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون : . .

وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا : ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ...

قل : الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

وقال : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت . بلى وعداً عليه حقاً ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . . .

وقال : « وقالوا : أئذا كنا عظاما ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً ؟

قل : كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم ، فسيقولون : من يعيدنا ؟ .

قل : الذى فطركم أول مرة فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون : من هو ؟.

قل : « عسى أن يكون قريباً » .

ثانياً : الذين يتشككون فى البعث ويحارون فى أمره .

وهؤلاء نقف على وجهة نظرهم من الآيات القرآنية التالية :

قال الله تعالى : « وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها ، قلتم : ما ندرى ما الساعة ؟ .

إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين » .

وقال : « زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا . . .

قل : بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم — وذلك على الله يسير » .

وقال : قل : لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله ، وما يشعرون

أيان يبعثون . بل إدارك علمهم فى الآخرة ، بل هم فى شك منها ، بل هم منها عمون . . . » .

قال : « ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ، ألا إنه بكل شيء محيط » .

ثالثاً : — الذين يؤمنون بالحياة الآخرة وبالبعث .

وهؤلاء هم الذين يعتقدون فى الشفاعات ، وهم أصحاب الامتيازات الطبقية ممن أشرنا إليهم سابقاً . .

ويضاف إليهم أولئك الذين تمثلهم الآيات القرآنية التالية : —

قال الله تعالى : « وقالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى — تلك أمانيهم .

قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين . بلى من من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . . » .

قال : « قل: إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين . ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ، ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ، وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون . . . ».

وقال : « وقالوا : لن تمسنا النار إلا أياما معدودة .

قل : أتخذتم عند الله عهداً أم تقولون الله ما لا تعلمون . بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . . . » .

وقال : « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ماخولناكم وراء ظهوركم ، ومانرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء . لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون » .

وقال : « إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

* * *

لقد نبتت هذه المشكلة الثالثة من الفوضى الفكرية الدائرة حول إمكانية البعث وحول حتمية العدالة . وكان تعدد الآراء ومخالفتها لما جاء به محمد عليه السلام هو السبب المباشر فى نشأة هذه المشكلة ، وهو السبب أيضاً فى هذه المعارضة القوية التى نراها ممثلة فى الآيات القرآنية الكريمة .

وفى كتب المفسرين آراء كثيرة حول إمكانية البعث . آراء أقرب إلى الفلسفة منها إلى أسلوب القرآن الكريم فى الإقناع وتوضيح الأفكار .

وقد اعتمد القرآن الكريم على القصة فى إقناع الناس بإمكانية البعث ، إلى جانب هذه النشأة الأولى التى كان يلفت إليها أذهان الناس .

وإذا كنا سنعرض لهذه المسألة مرة ثانية عند حديثنا عن الأساليب التى اعتمد عليها القرآن الكريم فى إحداث التغييرات الجذرية فى أفكار الناس ومعتقداتهم حول البعث فإنا نترك هذه المسألة إلى هناك .

وتبقى بعد ذلك إشارة إلى الدور الاجتماعى الذى يمكن أن تلعبه فكرة الحياة الآخرة فى أعمال الناس وفى سلوكهم .

جاء فى ص ٣٦٨ وما بعدها من الجزء السابع من تفسير المنار عند حديثه عن تفسير الآية القرآنية الكريمة : «وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين » ما يلى : —

إن الكفر بالبعث والجزاء ، واعتقاد أنه لا حياة بعد الحياة ، يجعل هم الكافر محصوراً فى الاستمتاع بلذات الدنيا وشهواتها البدنية والنفسية كالجاه ، والرياسة، والعلو فى الأرض ولو بالباطل . . .

ومن كان كذلك يكون فى اتباع هواه ولذاته الشهوانية أسفل من البهائم . .

وفى اتباعه لهواه فى لذته الغضبية أضرى ، وأشد أذى ، من الوحوش الضارية المفترسة . . .

وفى اتباعه لهواه ولذته النفسية شراً من الشياطين يكيد بعضهم لبعض ،

ويفترس بعضهم بعضاً. لا يصدهم عن باطل ولا شر يهوونه إلا العجز ، ولا يرجعون إلى حكم يفصل بينهم إلا القوة التى جعلوها فوق الحق .

وطالما غشوا أنفسهم ، وفتنوا غيرهم ، فى هذا الزمان بما كان من تأثير التوازن فى القوى من منع كثير من البغى والعدوان، الذى كان يصول به قوى الأمم على ضعيفها ، والحكومات الجائرة على رعيتها، فزعموا أن الحضارة المادية والعلوم والفنون البشرية ، هى التى تفيض روح الكمال على الإنسان — إذا لم يؤمن بالبعث والجزاء ولا بالإله الديان . . .

واستدلوا على ذلك بما أجمعت عليه أممهم ودولهم من ذم الحرب ، والتفاخر ببناء سياستهم على أمتن قواعد السلم . وزعموا أن الباعث لهم على ذلك حب الإنسانية ، والرغبة فى العروج بجميع البشر إلى قمة السعادة المدنية .

فإن قيل : فما بالكم تسابقون إلى استذلال الأمم الضعيفة فى الشرق ، وتسخرونها لمنافعكم وتوفير ثروتكم بغير حق ؟ .

قالوا : كلا ، إنما نريد أن نخرجها من ظلمات الهمجية والجهل . لتشاركنا فيما نحن فيه من نور الحضارة والعلم .

فإن قيل : فما بالنا لا نراها لم تنل من علومكم إلا بعض القشور ؟ ولم تستفد من مدنيتكم إلا الفسق والفجور ؟

قالوا : إنما ذلك لضعف الاستعداد ، وما تمكن فى نفوس هذه الشعوب من الفساد — على أننا خير لها من حكامها الأولين ، بما قمنا به من حفظ الأمن ، وتوفير أسباب النعيم للعاملين .

ذلك شأنهم ، لا تقام عليهم حجة إلا ويقابلونها بشبهة تؤيدها القوة .

وقد قوضت الحروب جميع ما بنيت عليه هذه الشبهات من المزاعم والأوهام ، إذ رأينا فيها أهل الأرض فى الحضارة والعلوم والفلسفة يستعينون بكل ما ارتقوا إليه من العلوم والفنون والصناعات والحكمة والنظام لإهلاك الحرث والنسل

وتخريب العمران ، بمنتهى القسوة والشـــدة التي لا تشوبها عاطفة رأفة ولا رحمة . . .

ولو كان من بأيديهم أزمة الأمور يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وما فيه من الحساب والجزاء بالحق ، لما انتهوا فى الطغيان إلى هذا الحد .

نعم إن هذه الشعوب كانت تتقاتل لنصر المذهب أو الدين ، فى القرون التى كانت تعمل كل شىء فيها باسم الدين ، ولـكنها لم تصل فى التقتيل والتخريب فى ذلك الزمان إلى عشر معشار ما هى عليه الآن .

على أن الرؤساء كانوا يتخذون اسم الدين وسيلة لأهوائهم التى ليست من الدين فى شىء . . .

إنما الحرب الدينية الصحيحة هى التى تـكون دفاعاً عن النفس ، وتقريراً للحق والعدل ، والمساواة فى الحقوق بين أصناف الحق .

القسم الثاني

الفرقاء في الجدل والحوار

١

لم يكن يتوقع أبداً أن تقوم فى سبيل دعوته كل هذه المشكلات التى قامت فى شأنه ، وفى شأن الوحدانية ، وفى شأن البعث أو الحياة الآخرة ، فإنما كان يتوقع التفاف الناس من حوله والاستجابة لدعوته .

وكان يبنى توقعاته على أمور كثيرة نجدها مسطورة فى كتاب الله الكريم ، فقد نزلت فى شأنها آيات ساعدتنا فى التعرف عليها .

وهذه الأمور هى : —

أولا : — أن البيئة التى ولد فيها ، والمجتمع الذى كان يعيش فيه ، قد صدرت عنهم رغبات مؤداها أنهم كانوا يتطلعون إلى نبى يبعث فيهم وكتاب من السماء ينزل عليهم .

والقرآن الكريم يسجل هذه الرغبات فى الآيات التالية : —

يقول الله تعالى : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم : لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ... » .

ويقول : « وإن كانوا ليقولون : لو أن عندنا ذكر من الأولين لكنا عباد الله المخلصين . . .

لقد كان يقدر أنه وقد جاء تلبية لمتطلبات الحياة الدينية عندهم سيكونون أحسن الناس استقبالا له ، وأكثرهم إيماناً به ، وأقدرهم على ممارسة الحياة بما يدعو إليه من معتقدات وآراء ، ومن مبادىء ، ومن قيم .

ثانياً : — إن الله سبحانه وتعالى هو الذى اختاره نبياً رسولا ، والذى يختاره الله له حق على الناس أجمعين : أن يطيعوه فيما يأمر به ، وفيما ينهى عنه . وإلا عدوا من الخارجين على طاعة الله .

والقرآن الكريم هو الذى يسجل ذلك أيضاً .

يقول الله تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله » .

ويقول : « من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً ... » .

ويقول : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، واحذروا . فإن توليتم فاعلمو أنما على رسولنا البلاغ المبين ... » .

ويقول : « إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا : سمعنا وأطعنا . وأولئك هم المفلحون ... » .

ثالثاً : أنه ماجاء إلا ليظهر الحق ويدحض الباطل . جاء ليقضى على هذه الفوضى الفكرية النابتة من الاختلاف فى وجهات النظر — ذلك الاختلاف الذى يخلخل التماسك الاجتماعى ، ويؤدى حتما إلى الفرقة والانقسام . جاء ليضع بأيديهم ميزان الحق والعدل الذى لا يضل من استمسك به ، ويذهب عن عقولهم ميزان الهوى والشهوات — ذلك الميزان الذى يضل من استمسك به ، وينحرف عن الطريق القويم أو الصراط المستقيم .

والذى يكون هـذا موقعه من قومه ، ومن الذين أرسل إليهم يتقبل قبولا حسناً ؛ ولا تقام فى سبيله العقبات .

والقرآن الكريم هو الذى يدل على هذه المهمة من أمر محمد عليه السلام ، وأمر غيره من الرسل والأنبياء .

يقول الله تعالى : « وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ... » .

ويقول : « إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون » .

ويقول : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه •

وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات — بغياً بينهم •

فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، والله يهدى من يشاء صراط مستقيم ••• » •

رابعاً : — وهو الأهم من كل ما تقدم، أنه ما جاء إلا ليرفع من مستواهم الحضارى ، ويجعل منهم الأمة الرائدة التى تقود الإنسانية إلى الخير العام • الأمة التى تحقق من الإصلاحات الاجتماعية ما يجعلها الأمة الأنموذج أو الأمة المثال •

لقد جاء ليخرجهم من الظلمات إلى النور — من ظلمات الجهل إلى نور المعرفة واليقين •

يقول الله تعالى : « آلر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور . بإذن ربهم — إلى صراط العزيز الحميد . . . »

ويقول : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » .

ويقول : « كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ، ويزكيكم ، ويعلمكم الكتاب والحكمة ، ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون »

وجاء ليجعل منهم خير أمة أخرجت للناس بما يأمرون بالذى تتعارف الجماعة على أنه من مصلحتها ، وبما ينهون عن الذى ترى الجماعة أنه ضار بمصلحتها ، من حيث إن السكوت عن هذه الأشياء هو الذى يقضى على الأمة بما يشيع فيها من فساد .

يقول الله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله . ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم — منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون . . . »

ويقول منددا بموقف أهل الـكتاب . وكيف أنهم وصلوا إلى ماوصلوا إليه من ظلم وفساد بسكوتهم على دواعى الشر والمنكر والفساد .

« لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داوود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .

كانوا لايتناهون عن منـكر فعلوه — لبئس ما كانوا يفعلون .

ومن أجل ذلك كله حرص القرآن الـكريم على الدعوة إلى وجود جماعة يكون من مسئولياتها الدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنـكر ، وذلك فى قوله تعالى : « ولتـكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنـكر ، وأولئك هم المفلحون »

ومن أجل أنهم خير أمة أخرجت للناس يـكونون أداة من أدوات التقييم فى الحياة الآخرة . وأنهم الشهداء على الناس — أى أنهم الذين يشهدون بأعمالهم وسلوكهم على صحة أو فساد أعمال غيرهم من الأمم .

يقول الله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتـكونوا شهداء على الناس ويـكون الرسول عليـكم شهيدا »

جاء ليحقق ذلك كله ، ومن أجل هذا الذى كان يفعل توقع منهم الاستجابة لدعوته ، والالتفاف من حوله .

* * *

وكان يتطلع إلى العناية الإلهية يريد منها أن تدفع الناس إلى الإيمان به كنبى رسول ، والالتفاف من حوله كمصلح دينى واجتماعى — تدفع الناس ولو عن طريق المعجزات وخوارق العادات .

كان يتطلع إلى هذا كما كان يتوقع ذلك .

وجرت الأمور على غير ما كان يتوقع ، ومضت الحياة على غير ما كان يتطلع إليه .

لقد وقف منه الكثيرون موقف المعارضه ، وأخذوا فى الجدل والحوار ، وفى رميه بالكذب ، وبالسحر ، وبالكهانة .

ولم يقف بهم الأمر عند هذا الحد وإنما مضوا فى الاستهزاء به والسخرية منه .

وضاقت نفسه بما رأى ، وبما سمع ، وسجل لنا القرآن كل ما ألم بنفسه من خواطر .

ووقف القرآن إلى جانبه . وقف ليعلمه أن الله سبحانه وتعالى يعلم من أمره كل شيء . يعلم حتى الخواطر التى لاتزال فى المهد والتى قد تكلفه الكثير إن هى تحولت إلى فكر وإلى عمل — أى إلى موقف يتخذ .

ووقف القرآن ليبصره بالنواميس النفسية والسنن الاجتماعية فى مثل هذه الحالات .

وكان مما بصره به القرآن — مما يليق بهذا المقام — أمران جديران بالوقوف عندهما .

أول الأمرين : — أن هذا الموقف منهم ليس خاصا به ولا بهم . إنه الأمر الذى يحدث فى كل زمان ، وفى كل مكان .

والثانى : — أن وظيفته لاتتصل بهداية الناس فإنما عليه البلاغ ، والبيان ، وتقديم المثال الذى يحتذى .

ونستطيع أن نستعرض سويا الآيات القرآنية المسجلة لكل خواطره ، والمبينة لحقيقة الموقف من الناحيتين النفسية والاجتماعية .

يقول الله تعالى فى شأن هذه الخواطر التى كانت تمر به ، وتدور فى رأسه :

« فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين . إنا كفيناك المستهزئين . الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون .

ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون »

ويقول : « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا : لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك .

إنما أنت نذير ، والله على كل شىء وكيل . . . »

ويقول : « فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك، قد جاءك الحق من ربك ، فلا تكونن من الممترين . . . »

أما الآيات الدالة على أن هذا الموقف ليس خاصا به وحده فيمكن أن نثبت من بينها الآيات التالية :

يقول الله تعالى : « ياحسرة على العباد مايأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون . . . »

ويقول : « كذلك ماأتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا : ساحر أو مجنون .

أتواصوا به بل هم قوم طاغون . . . »

ويقول : « ثم أرسلنا رسلنا تترى ، كلما جاء أمة رسولها كذبوه . . »

ويقول : « فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات ، والزبر ، والكتاب المنير . . »

* * *

أما وظيفته والحدود التي تنتهى عندها فقد بين القرآن الكريم أن هذه الوظيفة تقف عند حدود بيان ماأنزل الله وتوضيحه للناس — بيانه بالأقوال ، وبيانه بالأعمال. ثم ممارسة الحياة على أساس مما يدعو إليه حتى يعتبر المثل الصالح الذى يحتذيه كل الناس .

فالله سبحانه وتعالى هو الذى يقول : « فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر . . . »

وهو الذى يقول : « إنما أنت منذر ولكل قوم هاد »

وهذه الوظائف التى يحددها القرآن الكريم للنبى عليه السلام هى الوظائف التى يقوم بها كل قائد يتخذ من العمل الثورى وسيلته إلى تحقيق الإصلاح بأبعاده المختلفة .

إن الثائر إنسان لا يرضى أبدا عن الأوضاع السائدة فى مجتمعه ، ويرى بعين البصر والبصيرة أن الاستمرار فى ممارسة الحياة على أساس من هذه الأوضاع ضار أبلغ الضرر بالمجتمع الذى يعيش فيه وينتمى إليه — ومن هنا يأخذ فى تبصرة الناس بما يمكن أن تنتهى إليه هذه الأوضاع من شر ، ومن نكر وبلاء .

ومن هذا الذى يفعل يستحق أن يسمى بالنذير ، من حيث إنه إنما ينذر الناس بعقبة السير فى ممارسة الحياة على أساس من هذه الأوضاع التى يراها فاسدة .

وهو حين يشعر بهذا الفساد إنما يشعر به لدقة فى حسه ، ووعى فى عقله ، وإدراك تام لكل ما فى المجتمع من عوامل الضعف والانحلال .

وهذا الذى يشعر به قد لا يشعر به الآخرون من مواطنيه ، بل قد يعجزون عن الوعى به وإدراكه ، ومن هنا يقفون منه موقف المعارضة . وهذا هو الذى تشرحه الآية القرآنية الكريمة : —

« وإذا قيل لهم : لا تفسدوا فى الأرض

قالوا : إنما نحن مصلحون .

ألا إنهم هم المفسدون ، ولكن لا يشعرون ...

وإذا قيل لهم : آمنوا كما آمن الناس ...

قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء ...

ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ... »

والثائر إنسان لا يقف عند حدود عدم الرضا فإنما عليه أن يتصور البديل الذى يرضى عنه الناس وتحسن به أحوالهم . . .

هذه الصورة الجديدة لمجتمع المستقبل هى الصورة التى يأخذ الثائر فى دعوة الناس إليها والعمل على تحقيقها : مستقبلا باسماً سعيداً .

وهذا الذى يفعله الثائر هو الذى من أجله سمى بالبشير .

إنه يبشر الناس بأمل جـديد ، وحياة جـــديدة ، يتحقق بهما الأمن والطمأنينة .

إنه يبشرهم بالفضل الـكبير من الله .

ولا يقف أمر الثائر عند البشارة والإنذار ، وإنما يتعداه إلى ماهو أهم من ذلك وهو الشهادة .

أن الشاهد هو الثائر الذى يلتزم بما يدعو إليه من إصلاحات ، وإنه الذى يمارس الحياة على أساس من القيم التى يأخذ الناس بها ، فهو بعمله هذا يشهد بصحة مايدعو إليه من مبدأ أو عقيدة . إنه الذى يضرب للناس المثال، ويضع أمام أبصارهم وبصائرهم الأنموذج الذى يجب أن يحتذى .

وهذا المعنى للشاهد الثائر هو الذى تحدث عنه القرآن الـكريم عند حديثه عن الأمة العربية التى تتـكون بالإسلام ، فقد جعل القرآن هذه الأمة شاهدة — أى جعلها أداة تقويم لغيرها من الأمم ، وميزاناً تعرف به أقدار الأمم الأخرى .

والآية القرآنية المشار إليها هى قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتـكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليـكم شهيداً » .

جاء فى تفسير المنار عند حديثه عن هذه الآية القرآنية الـكريمة مايلى : — « أى أن الرسول عليه الصلاة والسلام هو المثال الأكمل لمرتبة الوسط . . .

وإنما تـكون هذه الأمة وسطاً باتباعها له فى سيرته وشريعته ، وهو القاضى بين النـاس فيمن اتبع سنته ، ومن ابتدع لنفسه تقاليد أخـــرى أوحذا حذو المبتدعـين .

فـكما تشهد هذه الأمة على الناس بسيرتها وارتقائها الجسدى والروحى بأنهم

قد ضلوا عن القصد ، يشهد لها الرسول بما وافقت فيه سنته، وما كان لها من الأسوة الحسنة فيه ، بأنها استقامت على صراط الهداية المستقيم . . . »

أما إنه الداعى إلى الله بإذنه فذلك هو مضمون الرسالة أو موضوع الدعوى .

إن عليه أن يقرر فى الحياة شعبية القيادة، وذلك هو الأمر الذى أكده القرآن الكريم لا بالنسبة لمحمد عليه السلام وإنما بالنسبة لغيره من الأنبياء .

والقرآن الكريم يمضى على أن الرسول يكون دائماً من القوم المرسل إليهم . والتعبيرات القرآنية فى ذلك واضحة .

« ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إنى لكم نذير مبين »

« وإلى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره »

« وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره »

« وإلى مدين أخاهم شعيباً قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره »

ويمضى القرآن إلى أبعد من هذا فيؤكد العلاقة بين الرسول وقومه على أساس من اللغة باعتبارها الوعاء الثقافى . فيقول سبحانه وتعالى : «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم »

وشعبية القيادة فى القرآن الكريم إنما تتأكد من شىء آخر أهم من كل ماسبق هو أن القرآن الكريم قد صرح بأن اختيار القائد من الشعب لن يكون بعد محمد عليه السلام لله سبحانه وتعالى وإنما سيكون للناس .

إن هذا إنما يعنى أن القائد الشعبي ينبث نباتاً شعبياً ، ويختار اختياراً شعبياً ، ولا دخل للسماء فى هذا الاختيار بعد محمد عليه السلام .

وإن عليه أن يقرر فى الحياة تخطى القبلية والطائفية والارتفاع الى المستوى القومى أو المستوى العالمى .

إن محمداً عليه السلام إنما أرسل من أجل هداية الناس أجمعين إلى الصراط المستقيم . فدعوته دعوة عالمية تتخطى الحدود والقيود إن ميدانها العالم أجمع .

وإن على محمد عليه السلام أن يتخطى أولا القبلية والطائفية إلى القومية . ثم إن عليه أن يتخطى فيما بعد القومية الى العالمية

« وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً »

« تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً »

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »

« وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون : إنه لمجنون .

وما هو الا ذكر للعالمين »

وهذا الذى نقول هو الذى جعل التوحيد الأساس الذى يقوم عليه بناء الدعوة الإسلامية .

إن هذه الدعوة تقوم على التوحيد وعياً منها بأن التوحيد موصل حتماً إلى الوحدة الفكرية والتماسك الاجتماعى وهما الأساس فى تكوين الأمة .

وإن على محمد أن يقرر حتمية العدالة ، وهى حتمية ستكون ، كما سبق أن ذكرنا ، فى حياة غير هذه الحياة الآخرة ، وسيتولاها من بيده ملكوت السموات والأرض وهو على كل شىء قدير .

والقدرة على تحقيق العدالة ضرورية وإلا ساد الظلم وعجز العدل عن أن يتحقق ، وهذا هو السبب الذى من أجله كانت حتمية العدالة فى الحياة الآخرة ، وبيد أقوى الأقوياء .

إن القوة بدون عدل ظلم

وإن العدل بدون قوة عجز

ولابد من العمل على أن يصبح العادل قوياً والقوى عادلا . . .

إن مانراه فى حياتنا الدنيا ليس إلا القوة التى تفوق حاجة العدل ، وإلا العدل الذى لايزال دون القوة المستثمرة فى ممارسة الحياة .

وأما إنه السراج المنير فلأنه الذى يهدى الناس بأقواله وأعماله الى الطريق المستقيم . إنه كالضوء الذى يهتدى الناس به فى ظلمات الحياة .

لقد جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وهذا يكفى فى الحديث عنه على أنه السراج المنير .

المنافقون
والمشركون
وأهل الكتاب

١

أحدث هذا الذى دعا إليه محمد بن عبد الله عليه السلام من : إيمان بالله وحده ، وإيمان بالبعث والحساب ، وممارسة الحياة على أساس من القيم الروحية والخلقية والاجتماعية التى تحقق السعادة أو الحياة الأفضل — أحدث هذا ما كان ينتظر منه وهو انقسام الناس إلى فريقين : فريق يؤمن بمحمد عليه السلام وبالكتاب ، وفريق يعارض محمداً عليه السلام وينكر الوحى الذى ينزل من السماء والكتاب. وقالوا : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » .

كان المنكرون لمحمد عليه السلام وللكتاب كثرة كاثرة أول الأمر — وبخاصة فى العهد المكى ، لكنهم لم يلبثوا أن أخذوا فى التناقص حتى أصبحوا قلة قليلة عند وفاة محمد عليه السلام .

وهذا الذى حدث هو الظاهرة الاجتماعية التى لا تتخلف فى أى زمان وفى أى مكان.

إن الدعوة الجديدة التى تستهدف تغييرات جذرية فى حياة المجتمع وفى معتقداته تقابل بالنفور وبالمعارضة أول الأمر ، ثم يأخذ الناس فى اكتشاف ما فيها من نفع، وما تقدمه لهم من خير . وعند ذلك يرتبطون بها ، ويقبلونها أساساً ثقافياً يمارسون الحياة على ما فيه من آراء ومعتقدات ، ومافيه من قيم عملية .

إن الدعوة الجديدة التى تلبى متطلبات الحياة فى مجتمع ما ، تستقطب الناس من حولها ، وتنجح فى نهاية الأمر النجاح الذى يحقق أهدافها .

أما الدعوة التى تسقط فهى التى تكون أبداً من عمل المهرجين. والتى لا تكون أبداً من عمل الصادقين ، ومن مسئوليات الأنبياء والمرسلين .

والقرآن الكريم يشير إلى هذه الظواهر على أنها سنة الله فى خلقه . سنة الله التى لاتتبدل ولا تتحول .

وإشارات القرآن لهذه الظاهرة تكون غالباً عند حديثه عن التجربة التاريخية التى مرت بها الإنسانية من قبل ، والتى وقف فيها معظم الناس من الأنبياء والمرسلين موقف المكذبين .

يقول الله تعالى : « وأقسموا بالله جهد إيمانهم : لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً .

استكباراً فى الأرض ، ومكر السيء — ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله .
فهل ينظرون إلا سنة الأولين ؟

فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا .. »

ويقول الله تعالى : « طسم ، تلك آيات الكتاب المبين . نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون .

إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم : يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ، إنه كان من المفسدين .

ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الأرض، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » .

ويقول : « وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا .

سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ، ولا تجد لسنتنا تحويلا » .

ويقول : « لئن لم ينته المنافقون ، والذين فى قلوبهم مرض ، والمرجفون فى المدينة ، لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا »

ملعونين . أينما ثقفوا أخذوا ، وقتلوا تقتيلا .

سنة الله فى الذين خلوا من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

ويقول : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحيـــاة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد » .

وصدق الله العظيم .

* * *

والمنـكرون للدعوة الجديدة ، والمعارضون للنبي عليه السلام كانوا فرقاء . فمنهم المشركون ، ومنهم أهل الـكتاب : اليهود والنصارى .

وإلى جانب هؤلاء ، أو من هؤلاء ، فريق يكيد للدعوة فى السر ، وفى الخفاء — وأولئك هم المنافقون » .

وقد تناول القرآن الـكريم كل هؤلاء بالحديث ، تناول حجم العداوة ، وتناول أساليب الـكيد ووسائله .

ونحن هنا إنما نقف معهم لنـكشف عن مبلـغ عداوتهم ، ونرتبهم حسب حجم عداوتهم .

أما الحديث عن أساليب الـكيد ووسائله ، وعن الدوافع التى دفعت بهم إلى اتخاذ مواقفهم من النبى عليه السلام فله موضعه من الفصول المقبلة من هذا الـكتاب.

* * *

والدرجة الأولى فى العداوة هى الدرجة التى يحتلها المنافقون — أولئك الذين نزل فى شأنهم سورة تسمى بأسمهم — المنافقون .

وهذا إلى جانب الآيات الـكثيرة الواردة فى السور الطوال من أمثال سورتى : النساء والتوبة » .

والذى يدفعنا إلى القول بأنهم الذين يحتلون المنزلة الأولى هو حديث القرآن عنهم ، وعن أنهم العدو الخطر الذى يجب أن يحذره النبى عليه السلام ، وعن هذا العذاب الذى أعده الله لهم .

يقول الله فيهم : « إذا جاءك المنافقون قالوا : نشهد إنك لرسول الله . والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون .

اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله . إنهم ساء ما كانوا يعملون — ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا ، فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون

وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم .

هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ».

يقول الله تعالى : « وممن حولكم من الأعراب منافقون ، ومن أهل المدينة ، مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم ..

سنعذبهم مرتين ، ثم يردون إلى عذاب عظيم .. »

ويقول: « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، ولن تجد لهم نصيراً » .

ويقول : « وعد الله المنافقين والمنافقات ، والكفار ، نار جهنم خالدين فيها .

هى حسبهم ، ولعنهم الله ، ولهم عذاب مقيم » .

ويقول : « يا أيها النبى : جاهد الكفار والمنافقين ، واغلظ عليهم ، ومأواهم جهنم ، وبئس المصير .. »

* * *

ولمفسرى القرآن الكريم مواقف مختلفة من ظاهرة النفاق أو من المنافقين ، نرى من الخير تلخيصها فى هذا المقام .

والنفاق عندهم خلق ردىء ، ووصف خبيث ، تتلوث به الأنفس الدنيئة الفاسدة الفطرة ، فلا يرى أهلها وسيلة إلى مطامعهم فى المال ومطامحهم إلى الجاه إلا الكذب والرياء ، ولقاء الناس بالوجوه المختلفة والتصنع ، والخداع ولين القول .

« وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وإن يقولوا تسمع لقولهم » .

وهم يوجدون فى كل شعب ، وفى كل قبيلة ، ولن تخلو منهم بادية ولا حاضرة .

* * *

والنفاق قسمان : خاص وعام .

فالخاص هو النفاق الذى يحاول صاحبه لقاء كل أحد بما يرضيه عنه ويحببه إليه — ولا سيما الحكام وأصحاب الجاه الذين يرجى الانتفاع منهم أو يخشى ضرهم.

وهذا اللون من النفاق أهون النفاقين .

أما النفاق العام : فهو ما يكون فى الدين والدولة ، وخيانة الأمة والملة .

وما وجد النفاق فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بعد الهجرة — لما صار للاسلام قوة ودولة .

لقد آمن بعض الأوس والخزرج أولا بلقاء النبى عليه السلام فى موسم الحج ودعوا قومهم إلى الإسلام بعد عودتهم إلى المدينة .

صادفت الدعوة رواجا لقوة المقتضى وهو التوحيد وفضائل الإسلام .

ولما كثر عدد المسلمين هاجر النبى عليه السلام إليهم .

ومن المسلم به أن نور الإسلام لم يظهر لكل فرد منهم على سواء ، وأن يكون منهم من اضطر إلى الدخول فيما دخل فيه قومهم من معتقد مواتاة لهم ، فكان منافقو المدينة من هؤلاء ، وممن حولهم من قبائل الأعراب الذين لم يعقلوا الإسلام كأسد وغطفان .

وكان هناك يهود كثيرون يقيمون فى حصون لهم بالقرب من المدينة كبنى قريظة وبنى النضير ، وقد عاهدهم النبى عليه السلام على حريتهم فى دينهم وأنفسهم وأموالهم — ولكنهم كانوا ينقضون عهده ويظاهرون عليه المشركين كلما جاءوا لقتاله، فكانوا فى إظهار الوفاء بعهده منافقين .

وكان لهم أحلاف من عرب المدينة تحافظ على مودتهم منافقوها .

* * *

كانت سياسة الإسلام أن من أظهر الإسلام يعامل كما يعامل سائر المسلمين لأن القاعدة : أن الحكم على الظواهر ، وأن الله تعالى وحده هو الذى يحاسب ويعاقب على السرائر .

وترتب على ذلك أن من حافظ على الوفاء بعهده من أهل الكتاب يوفى له .

كان اليهود ينقضون عهدهم مع النبى سراً ، فإذا ظهر شىء من خياناتهم وغدرهم اعتذروا عنه ، حتى إذا ما افتضح أمرهم حاربهم وأجلاهم عن البلاد .

وقد قص الله علينا فى سورة الحشر ما كان بين اليهود والمنافقين من الإخاء والولاء ، وأنه لا خير فيه لأحد منهما .

قال الله تعالى : « ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب : لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً ، وأن قوتلتم لننصرنكم .

والله يشهد إنهم لكاذبون

لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون .. »

* * *

فإن قيل : إن القرآن قد فضح بعض المنافقين وحكم بكفرهم ، ولم ينفذ النبى عليه السلام أحكام المرتدين عن الإسلام ، بل بقى يعاملهم هو وأصحابه معاملة المسلمين .

قلنا : إن ما بينه الله تعالى من حال المنافقين إنما كان وصفا لأناس غير معينين بأشخاصهم إنذاراً وزجراً لهم ، ليعرفوا حقيقة حالهم ويخشوا سوء مآلهم عسى أن يتوب المستعدون للتوبة منهم .

وقد تاب الكثيرون منهم بما ظهر لهم من إخبار القرآن عنهم مما لا يعلمه إلا الله تعالى من أمرهم.

٢

والدرجة الثانية فى العداوة هى التى يحتلها اليهود .

والدرجة الثالثة هى التى يحتلها المشركون . . .

أما الدرجة الرابعة ، وهى الأخف وزناً من حيث العداوة فهى التى يحتلها النصارى .

والآية القرآنية التالية هى التى توضح لنا الترتيب التنازلى لهذه العداوات .

يقول الله تعالى : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا . . .

ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا : الذين قالوا إنا نصارى — ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون : ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين . . . »

وللمفسرين رأى واضح فى هذه العداوة ، وفى ترتيبها هذا الترتيب التنازلى ، لا نرى بأساً فى إيراد بعض فقراتهم التى كتبوها .

العداوة بغضاء يظهر أثرها فى القول والعمل .

والمودة محبة يظهر أثرها فى القول وفى العمل .

وفى كلمة لتجدن تأكيدان : لام القسم فى أول الكلمة ، ونون التوكيد فى آخرها . . .

وأشد ما لاقى النبى صلى الله عليه وسلم من العداوة والإيذاء كان من يهود الحجاز فى المدينة وما حولها ، ومن مشركى العرب — ولا سيا مكة وما قرب منها . . .

ولم ير من النصارى مثل تلك العداوة والإيذاء . . .

بل رأى من نصارى الحبشة أحسن المودة بحماية المهاجرين الذين أرسلهم صلى الله عليه وسلم فى أول الإسلام من مكة إلى الحبشة خوفاً عليهم من مشركيها الذين كانوا يؤذونهم أشد الإيذاء ليفتنوهم عن دينهم . . .

وحين أرسل النبى عليه السلام رسله بكتب الدعوة الإسلامية إلى الملوك ورؤساء الشعوب كان النصارى منهم أحسن رداً

وجملة القول أن النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به رأوا فى عصره من مودة النصارى وقربهم من الإسلام بقدر ما رأوا من عداوة اليهود والمشركين فى مكة والمدينة معاً . . .

والعلة الصحيحة فى عداوة المعادين ومودة الوادين هى الحالة الروحية التى هى أثر تقاليدهم الدينية ، والعادية ، وتربيتهم الأدبية والاجتماعية . . .

وقد نبه القرآن الكريم إلى ذلك فى حديثه عن سبب مودة النصارى من هذه الآية . . .

ولقد ترك القرآن الكريم بيان عداوة اليهود والمشركين فى هذه الآية لأن حالتهم الروحية مبينة فى القرآن الكريم أتم البيان ، وفى عدة سور . . .

ومن أوسع السور بياناً لأحوال اليهود سورة المائدة وما قبلها من السور الطوال . . .

ومن أوسعها بياناً لأحوال المشركين سورة الأنعام وهى من السور الطوال المكية . . .

واليهود والمشركون يشتركون فى بعض الصفات والأخلاق التى اقتضت شدة العداوة للمؤمنين .

فنها ، الكبر والعتو والبغى وحب العلو .

ومنها ، العصبية الجنسية والجامعة القومية .

ومنها ، غاية الحياة المادية التي ينبت منها الأثرة والقسوة وضعف عاطفة الحنان والرحمة . . .

وكان مشركو العرب على جاهليتهم أرق من اليهود قلوباً، وأكثر سخاء وإيثاراً، وأشد حرية في الفكر والاستقلال . . .

وما قدم الله ذكر اليهود في الآية إلا لإفادة أصالتهم وتمكنهم فيما وصفوا به ، وتبريزهم على مشركي العرب فيه . . .

هذا إلى جانب ما وصفوا به مما سبق لهم من الأفعال من مثل قتل بعض الأنبياء وإيذاء بعض ، واستحلال أكل أموال غيرهم بالباطل . . .

وهذا الذي ذكر من كون النصارى أقرب مودة للذين آمنوا إنما كان بسبب أن منهم قسيسين ورهبانا . . .

قسيسين يتولون تعليمهم وتربيتهم الدينية . . .

ورهبانا يمثلون فيهم الزهد ، وترك نعيم الدنيا ، والخوف من الله عز وجل ، والانقطاع بعبادته ، وأنهم لا يستكبرون عن الإذعان للحق إذا ظهر لهم أنه الحق لأن من أشهر آداب دينهم التواضع . . .

وقد عهد من النصارى قبول سلطة المخالف لهم طوعاً واختياراً ، والرضا بها سراً وجهاراً . . .

أما اليهود فإذا أظهروا الرضا بذلك اضطراراً أسروا الكيد إسراراً، ومكروا مكرا كبارا ...

فتلك كانت صفات الفريقين الغالبة . . .

* * *

فإن قيل : إن اليهود أقرب إلى الإسلام من النصرانية لأنها ديانة توحيد ، والنصرانية ديانة تثليث ، والتوحيد هو أساس دين الله على ألسنة جميع

رسله ، وهو منتهى الـكمال فى العقائد ، ولذلك يجوز أن يغفر الله كل الذنوب إلا الشرك . . . ؟

قيل فى الجواب : إن عقيدة التثليث دخيلةفى المسيحية إذ الأصل فيهاالتوحيد . وإنه لما كانت هذه العقيدة الدخيلة لاتفهم ، ولا تعقل ، لم يكن لها تأثير فى أنفس أهلها ببعدهم عن الإسلام . . .

بل ربما كانت من أسباب قبول دعوة الإسلام .

إن التأثير الأعظم فى تقريب الناس بعضهم من بعض ، أو نفور الناس بعضهم من بعض ، إنما يكون للأخلاق والآداب . . .

ثم إننا نرى فى كل عصر من المودة بين المسلمين والنصارى مالا نرى مثله بين غيرهما من المختلفين فى الدين . . .

وما ضعفت المودة بين المسلمين والنصارى إلا بفتن أهل السياسة ، وعصبيات أهل الرياسة . . .

ولعنة الله على مثيرى العداوة والبغضاء بين عباد الله اتباعاً لأهوائهم ، أو إرضاء لرؤسائهم

وصدق الله العظيم حين يقول فيهم : « وإذا سمعوا ماأنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق. يقولون: ربنا آمنا فا كتبنا مع الشاهدين.

الدوافـع
أو
البـواعث

١

لم تـكن الدوافع التى دفعت بـكل من المنافقين واليهود والمشركين والنصارى إلى اتخاذهم مواقفهم من محمد عليه السلام واحدة ، وإنما كانت عديدة ومختلفة .

ولم تـكن هذه الدوافع فـكرية خالصة تستمد مقوماتها من القيم العقلية ، والحقائق التاريخية ، والظواهر الاجتماعية ، وإنما كانت دوافع شخصية تلعب فيها الرغبات والمصالح ، وتلعب فيها الأهواء والشهوات الدور الأكبر . . .

ولقد عرض القرآن الـكريم لـكل هذه الأشياء ، فتحدث عن الاختلاف فى الرأى . تحدث عن طبيعته ، وتحدث عن العوامل التى تلعب دورها فيه ،فتذكيه جدلا أو حواراً عنيفاً .

ونحن فى هذا الموقف إنما نعرض عليك موقف القرآن من كل ، وتصوير القرآن لـكل .

والاختلاف فى الرأى ظاهرة إنسانية لا تتخلف — وبخاصة عند ما تـكون التغييرات جذرية ، والقضايا هامة ، والمسائل كبرى . . .

والقرآن الـكريم يتناول هذه الظاهرة الإنسانية على الوجه التالى : —

أولا : الاختلاف فى الرأى ظاهرة لايمكن تخلفها أوتلافيها : فالاختلاف من الأمور التى تقع حتما ، ومن الأمور التى لا يمـكن تلافيها إلا فى أضيق الحدود ، وفى القضايا الـكبرى من قضايا الوجود .

والآيات القرآنية فى ذلك كثيرة ، ومنها :

يقول الله تعالى : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم . . . »

ويقول : « وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون » . . .

وتشير الآية التالية إلى أن من المهام الكبرى للرسل والأنبياء تضييق شقة الخلاف بقدر الإمكان •

يقول الله تعالى : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه •

وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغياً بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » •••

وللمفسرين موقف من هذه الآية الأخيرة يحسن بنا عرضه فى هذا المقام شرحاً للآية ، واستفادة منها •

خلق الله الإنسان أمة واحدة — أى مرتبطاً بعضه ببعض فى المعاش ، لا يسهل على أفراده أن يعيشوا فى هذه الحياة الدنيا إلى الأجل الذى قدره لهم إلا مجتمعين ، يعاون بعضهم بعضاً • ولا يمكن أن يستغنى بعضهم عن بعض • فكل واحد منهم يعيش ويحيا بشىء من عمله — ولكن قواه النفسية والبدنية قاصرة عن توفيته جميع ما يحتاج إليه ، فلابد من انضمام قوى الآخرين إلى قوته فيستعين بهم فى بعض شأنه ، كما يستعينون به فى بعض شأنهم •••

فلما كان الناس أمة واحدة ولا يمكن أن يكونوا بمقتضى فطرهم إلا كذلك، وهم إنما يعملون بمقتضى آرائهم ، وينحون فى أعمالهم نحو المنافع التى يرونها لازمة لقوام معيشتهم ، ولم يمنحوا من قوة الإلهام مايعرف كلا منهم وجه المصلحة فى حفظ حق غيره ، لتوفير المنفعة فى ذلك لنفسه — لما كانوا كذلك كان لابد لهم من الاختلاف ، وكان من رحمة الله بهم أن يرسل رسلا مبشرين ومنذرين •••

وترتيب بعثة الرسل على وحدة الأمة هو :

أن الناس أمة واحدة ، ولا بد لهم أن يعيشوا تحت نظام واحد يكفل لهم ما يحتاجون إليه مدة بقائهم فى هذه الحياة الدنيا ، ويضمن لهم مابه يسعدون فى الحياة الأخرى •••

ولا يمكن في هذه الوحدة ومع تلك الوصلة اللازمة بمقتضى الضرورة ، الاتفاق على تحديد ذلك النظام مع اختلاف الفطر ، وتفاوت العقول ، وحرمانهم من الإلهام الهادى لكل منهم إلى ما يجب عليه لصاحبه .

لما كانوا كذلك كان من لطف الله بهم أن يرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين :

يبشرونهم بالخير والسعادة في الدنيا والآخرة إذا لزم كل واحد منهم ماحدد له واكتفى بماله من الحق ، ولم يعتد على حق غيره .

وينذرونهم بخيبة الأمل وحبوط العمل وعذاب الآخرة إذا اتبعوا شهواتهم الحاضرة ، ولم ينظروا في العاقبة .

والضمير في قوله تعالى : « وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه » يعود إلى الكتاب .

وهو استدراك على ماعساه يقال : إذا كان الناس في جامعتهم مستعدين للتخالف بمقتضى فطرتهم إذا تركت وحدها ، ولاغنى لهم عن هداية تعليمية تأتيهم من الله تعالى ، ولهذا بعث الأنبياء ليكونوا قوادا للفطرة إلى ماهو خير الدنيا والآخرة ، فما بال الناس بعد إنزال الكتب لايزالون مختلفين ، ولايرتفع من بينهم ذلك الخلاف الذى كان يخشى منه إفساد جماعتهم وهلاك خاصتهم ؟

فقد كانوا يختلفون على جلب المنافع والتوسع في مطالب الشهوات ، ولم تكن لديهم آلة يستعملها كل منهم في نيل مطالبه من صاحبه سوى القوة أو الحيلة

وبعد إنزال الكتب السماوية ، انضم إلى الآلات السابقة آلة أخرى ربما كانت أقوى من سواها وهى آلة الإقناع بالكتاب ، فيتخذ الواحد منهم كلمة من الكتاب أو أثرا مما جاء به ، وسيلة إلى تسخير غيره لما يريده — وذلك بقطع الكلمة أو الأثر عن بقية ماجاء بالكتاب ، ولىّ اللسان به وتأويله بغير ماقصد منه . وماهم

المؤول أن يعمل بالكتاب ، وإنما كل مايقصد هو أن يصل إلى مطالب لشهوته ، أو عضد لسطوته — سواء عليه هدمت أحكام الله أم قامت ، واعوجت السبل أم استقامت .

ثم يأتى ضال آخر يريد أن ينال من هذا مانال هذا من غيره ، فيحرف ويؤول حتى يجد المخدوعين بقوله ، ويتخذهم عونا على ذلك الخادع الأول . فيقع الخلاف والاضطراب .

وآلة المختلفين فى ذلك هى الكتاب .

وقد شوهد ذلك فى الأزمان الغابرة بين اليهود وبين من سبقهم وبين النصارى ، ولايزال الأمر على ما كان عليه عند هاتين الطائفتين إلى اليوم .

وكم حروب وقعت بين المسلمين أنفسهم حتى قصمت ظهورهم ، ودمرت ما كان من قوامهم . وما كان آلة المبطلين فى تلك المشاغب إلا دعوى الدين ، وحمل الناس على الحق المبين — والله يعلم إنهم لكاذبون فيما يقولون ، وإنهم لخاطئون فيما يفعلون . وما كلمة الدين ودعوى تأييد الكتاب إلا وسائل لإرضاء الشهوة ، وتمكين الظالم من السطوة . .

ثم هناك داع آخر للخلاف وهو : —

اختلاف القوم فى فهم ماجاء فى الكتاب ، فكل يذهب إلى أن الواجب أن يعتقد كذا وربما كان حسن النية فيما يقول ، ويعد المخالف مخطئا فيما يزعم .

وقد يعرض لكل منهم التعصب لرأيه فيذهب حسن النية ولايبقى إلا الميل إلى تأييد المذهب وتقرير المشرب بدون رعاية للدليل ولا نظر إلى البرهان . . . فلم يستفد النوع الإنسانى من إرسال الرسل ونزول الكتب إلا حدوث سبب جديد للخلاف لم يكن ، وإلا موضوعا للشقاق كان العالم فى سلامة منه .

فما فائدة إرسال الرسل ؟

وكيف يمن الله على الناس بأمر لم يزدهم إلا شقاء ، ولم يكسب بصائرهم إلا عماء ؟

أراد الله جل شأنه أن يستدرك على هذا الظن ، ويبين وجه الخطأ فيه فقال : « وما اختلف فيه . . . الخ »

وحاصل الاستدرك :

أن غرائز البشر وحدها ليست كافية فى توجيه أعمالهم إلى مافيه صلاحهم ، فلابد لهم من هداية أخرى تعليمية تتفق مع القوة المميزة لنوعهم وهى قوة الفكر والنظر — تلك الهداية التعليمية هى هداية الرسل منهم ، والكتب التى ينزلها الله عليهم . مع الأدلة القائمة على عصمة الرسل من الكذب ، وعصمة الكتب من الخطأ .

فعلى الناس أن يستعملوا عقولهم فى فهم الأدلة على الرسالة والعصمة أولا .

وسطوع الأدلة يحمل المستعدين منهم على التصديق حتما . فإذا عقلوا ماجاءت به الرسل وجب عليهم أن يقوموا عليه ولايعدلوا بعمل من أعمالهم عنه .

ذلك كما وهب لهم السمع والبصر ليهتدوا بهما إلى ما يوفر لهم الفوائد ، ويدفع عنهم الغوائل ، ويتقوا بهما الوقوع فى المكاره .

وكما وهب لهم العقل ليهتدوا به فيما يتبع الأعمال من العواقب ..

ماذا يقول القائل فى أولئك الذين يؤتيهم الله العقل ثم لا يستعملونه فيما أوتى لأجله؟. هل تنقص حالهم هذه من منزلة العقل ، وتدل على أن العقل ليس من نعم الله على الإنسان ؟.

ماذا يقول القائل فى أولئك الذين لهم أبصار وأسماع ولكن يخبط الواحد منهم فى سيره فلا يستعمل بصره فى معرفة الطريق التى يسير فيها ، أو فى وقاية رجليه من الشوك الواقع عليها ، أو التباعد من حفرة يتردى فيها ، وربما كانت نظرة واحدة تقيه من التهلكة لو وجهها نحوها . وقد يسمع من الأصوات التى تنذره بالخطر القريب منه ثم لا يبالى بما يسمع حتى يصيبه ما ليس له مدفع .

فهل تحط حال هؤلاء الناس من قيمة السمع والبصر ؟

* * *

ثانياً : أن هذا الخلاف الحتمى إنما يقع فى القرآن الكريم بعيداً عن القضايا التى يعدها القرآن الكريم عقيدة جميع الأنبياء والمرسلين .

ففى القرآن الكريم آيات تشير إلى وحدة العقيدة ، وفيه آيات أخرى تشير إلى اختلافات تكون بين الدعوة والدعوة ، لصالح المجتمعات البشرية المتعاقبة .

ومن النوع الأول قوله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا به ، كبر على المشركين ماتدعوهم إليه،الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب ... »

وقوله حين يطلب إلى الذين آمنوا بمحمد عليه السلام الإيمان بغيره من الرسل والأنبياء : « قولوا آمنا بالله،وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى ابراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ...»

وقوله فى حق الذين كفروا بمحمد عليه السلام : « إن الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا .

أولئك هم الكافرون حقاً ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهيناً .

والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ، وكان الله غفوراً رحيما ... »

ويعلق الرازى على الآية الأولى من هذه الآيات بقوله : « شرع لكم من الدين ديناً تطابقت الأنبياء على صحته .

وأقول . يجب أن يكون المراد من هذا الدين شيئاً مغايراً للتكاليف والأحكام ، وذلك لأنها مختلفة متفاوتة .. »

والقضايا الكبرى التى يعدها القرآن الكريم عقيدة جميع الأنبياء والمرسلين هى الثلاث التالية :

الوحدانية ، وجميع الأنبياء والمرسلين يدعون أقوامهم إلى الإيمان بالله وحده ، وعبادة الله وحده .

الحياة الآخرة، حيث تتحقق العدالة حتما ، ويحاسب الناس على ماقدمت أيديهم.

العمل الصالح ، الذى يتحقق به الخير العام لجميع الناس ، والذى يتخذ أساساً للثواب فى الحياتين الأولى والثانية .

والآية القرآنية الكريمة التالية تدل على مانذهب إليه من قول فى بيان واضح لايحتاج إلى تأويل .

يقول الله تعالى : « إن الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والنصارى ، والصابئين من آمن بالله ، واليوم الآخر ، وعمل صالحاً ، فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون .. »

ويعلق صاحب تفسير المنار على الآية بقوله : فالآية بيان لسنة الله تعالى فى معاملة الأمم تقدمت أو تأخرت ، فهو على حد قوله تعالى : « ليس بأمانيكم ولاأمانى أهل الكتاب ، من يعمل سوءاً يجز به ، ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً، ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً »

فالله يقرر أن الفوز لا يكون بالجنسيات الدينية وإنما يكون بإيمان صحيح له سلطان على النفس ، وعمل يصلح به حال النفس ، ولذلك نفى كون الأمر عند الله بحسب أمانى المسلمين أو أمانى أهل الكتاب .

وأثبت كونه بالعمل الصالح مع الإيمان الصحيح.. »

ومن النوع الثانى الدال على وقوع الاختلافات بين دعوة نبى ودعوة نبى آخر، فى غير قضايا الإيمان الصحيح والعمل الصالح — الآيات القرآنية التالية :

يقول الله تعالى : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق .
لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً .
ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات . إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ».

ويقول : « ولكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه فلا ينازعنك فى الأمر ، وادع إلى ربك إنك على هدى مستقيم » .

ولإخوان الصفا تعليل مقبول فى مثل هذه الاختلافات ، من حيث إنهم يردونه إلى عوامل صحية فى تاريخ المجتمعات البشرية ، وفى التفاوت الذى يكون بين المجتمعات بعضها والبعض الآخر ، وبين مرحلة ومرحلة فى حياة المجتمع الواحد.

يقولون : « ثم اعلم أنه لما كانت طباع الناس مختلفة ، وأخلاقها متغايرة ، والنفوس تعرض لها أمراض مختلفة بحسب الزمان والأمكنة والطباع والأمزجة والعادات .

وكان واضعو النواميس هم أطباء النفوس ومنجموها ، كقول النبى عليه السلام : « ان مثل أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم أهديتم » وغرض كلهما كتساب الصحة وحفظ السلامة من الآفات العارضة ..

فمن أجل هذا اختلفت مفروضاتهم ، وتغايرت سننهم حسب ما يليق بأمة أمة ، وطائفة طائفة من الناس والأمم من المداواة لنفوسهم والحمية لها من المحرمات عليهم ، كما يفعل أطباء الأجسام فى العلاجات المختلفة بالبلدان المختلفة لأجل الأمراض المختلفة فى الأزمان المختلفة : تغيير الأشربة ، وتبديل الأدوية ، وتقليل الأوزان وتكثيرها بحسب اختلاف الأزمنة والأمكنة . .

فهكذا أفعال الأطباء من أصحاب النواميس واختلاف سننهم ، وترتيب أوضاعهم وأمرهم وإجازتهم فى شىء ، ونهيهم وتحريمهم عن شىء ، تشبه بعينها أفعال أطباء الأجسام ومداواتهم تماماً » .

ومايشرحه إخوان الصفا هو الذى انتهى إليه فقهاء المسلمين من وضعهم للقاعدة الشرعية الذاهبة إلى تبدل الأحكام بتبدل الأزمان .

إن الاختلاف إنما يدور حول ماهو خارج عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

إنه يقع فيما هو خارج عن دائرة الاعتقادات .

أما ماهو من ميدان الاعتقادات فيجب التسليم به .

وماهو من ميدان العبادات يختلف فى دين عنه فى دين آخر بحكم اختلاف العصور ، واختلاف الظروف والمناسبات .

أما ما يكون فى ميدان التعامل الذى يقع بين الناس فيصح أن يقع فيه الاختلاف بين مجتمع ومجتمع يعيشون فى عصر واحد ، كما يصح أن يقع هذا الاختلاف فى المجتمع الواحد بين مرحلة تاريخية ومرحلة تاريخية أخرى .

* * *

ثالثاً : إذا كانت القضايا الكبرى الدائرة حول الوحدانية ، وحول الحياة الآخرة التى تتحقق فيها العدالة حتما ، وحول العمل الصالح الذى يصلح به حال الناس ويتحقق به الخير العام ، مما لا يصح أن يقع فيه خلاف أو يدور حوله الجدل .

وإذا كان الذى يقع فعلا ، ويحدث فى حياة الناس ، أن هذه القضايا قد وقع فيها الاختلاف ودار حولها الجدل ، فإن القرآن الكريم قد علل لهذه الظاهرة الاجتماعية ، وتحدث عن العوامل المؤدية إلى الاختلاف أو الدافعة إلى الجدل .

وهذه العوامل ، فيما تحدث القرآن ، كثيرة ، ويمكن عرضها على القارىء على الوجه التالى :

١ — الثروة الطائلة والغنى الفاحش .

وموقف القرآن من هذا العامل واضح صريح .

يقول الله تعالى فى سورة الزخرف : « بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين » .

ولما جاءهم الحق قالوا : هذا سحر وإنا به كافرون .

وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم .

أهم يقسمون رحمة بك ؟

نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخريا ، ورحمة ربك خير مما يجمعون .

ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن : لبيوتهم سقفاً من فضة ، ومعارج عليها يظهرون . ولبيوتهم أبواباوسرراً عليها يتكئونوزخرفا.

وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا .

والآخرة عند ربك للمتقين » .

ويقول سبحانه وتعالى فى سورة الفرقان : « ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله ، فيقول : أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل .

قالوا : سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ، ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر ، وكانوا قوماً بوراً » .

ويمضى القرآن الكريم إلى أبعد من هذا فيجعل هذا الموقف ظاهرة اجتماعية لاتخص قوم محمد عليه السلام وحدهم ، وإنما تتحقق فى كل مجتمع ، ومع كل داعية إلى نظام جديد وتغييرات اجتماعية جذرية ،

يقول الله تعالى : « وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا بما أرسلتم به كافرون .

وقالوا : نحن أكثر أموالا وأولاداً وما نحن بمعذبين .

قل : إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

وما أموالكم ولاأولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى ، إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا ، وهم فى الغرفات آمنون .. »

وواضح من هذه الآيات جميعها أن الموقف يتلخص فى : —

(ا) أن الاطمئنان وعدم القلق يصرفان الإنسان عن التفكير فى التغيير ،

ويدفعان به إلى مقاومة التغيير مادامت الحال الحاضرة تحقق الأمن والطمأنينة .

(ب) أن الثروة الطائلة ، والغنى الفاحش ، والقوة القادرة ، تصرف الإنسان عن التفكير فى الخالق .

إن الإنسان الذى يقدر على قضاء حاجاته ، وتحقيق رغباته ، لا يتوجه فى الكثير الغالب إلى الخالق بالعبادة والدعاء .

إنه يعتمد على نفسه أكثر من اعتماده على خالقه ، وينسى الله فى الأعم الأغلب. ولعله من هنا نبتت الفكرة القائلة بأن الغنى الشاكر خير من الفقير الصابر .

إن الغنى الشاكر إنسان يذكر الله دائماً ، وذكر الله من الغنى هو الأمر القليل الحدوث .

٢ — قلة المنذرين ، وندرة القادة المصلحين .

وهذا الأمر يلفت القرآن الكريم إليه الذهن دائما ، ذلك لأن الاستجابة إلى الجديد تتوقف على الحالات النفسية والعقلية لمن يطلب منهم إحداث التغيير استجابة للجديد .

يقول الله تعالى : « أم يقولون : افتراه .

بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون ».

ويقول : « وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون »

ويقول : « يس ، والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين. على صراط مستقيم ».

تنزيل العزيز الرحيم .

لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون .

لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون . إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون .

وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون .. »

إن الاستجابة للجديد تتوقف دائماً وأبداً على الحالات النفسية والحالات الذهنية والعقلية لأولئك الذين يدعون إلى الجديد ، ويطالبون بإحداث التغييرات الاجتماعية التي تتجاوب والجديد ،وتؤكده

إن الإنذار إنما يجدى مع من يتجاوب مع الدعوة . مع من يتبع الذكر ويخشى الرحمن .

٣ — سلطان العادات والتقاليد .

وهذا الأمر مترتب على سابقه ، ذلك لأن هذا السلطان إنما يستمد قوته من ندرة القادة وقلة المنذرين .

إن المجتمع الذى يكثر فيه القادة المصلحون لا تقوى فيه العادات والتقاليد إلى الحد الذى يجعلها عقبة كبرى فى سبيل الاصلاح والتجديد .

واهتمام القرآن الكريم بهذه الظاهرة واضح جداً من كثير من الآيات الكريمة.

يقول الله تعالى تعالى : « وإذا قيل لهم : اتبعوا ما أنزل الله .

قالوا : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا .. »

ويقول : « وإذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول .

قالوا : حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا .

أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون .. »

ويمضى القرآن الكريم إلى ما هو أبعد من ذلك فيصور هذه العادة على أنها من الظواهر التى لا تتخلف . إنها من الظواهر التى توجد فى كل زمان وكل مكان وتتلازم والترف أو الغنى أو الثروة .

يقول الله تعالى : « وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون » .

* * *

وتنتهى من هذه الفقرة بالإشارة إلى ما يلى :

إن الأختلاف فى الآراء ظاهرة إنسانية لا تتخلف .

إن القادة إنما تنحصر مهمتهم فى القضاء على هذا الاختلاف فيما يخص القضايا الكبرى التى تستوجب الوحدة الفكرية والتماسك الأجتماعى ..

إن نجاح القادة فى تأدية مهتهم متوقف إلى حد كبير على الحالات الاقتصادية ، والحالات الثقافية ، لمن يطلب منهم الاستجابة إلى الدعوة الجديدة ، وممارسة الحياة على أساس منها :

إن القرآن الكريم قد وقف عند هذه الحالات واهتم بها إهتماما خاصاً وجعلها من الظواهر الاجتماعية التي لا تتخلف .

٢

وإلى جانب هذه الظواهر الاجتماعية المؤثرة فى عوامل التنمية قبولا ورفضاً ، توجد ظواهر أخرى فردية أو عوامل أخرى شخصية تؤثر هى الأخرى فى عوامل التنمية قبولا ورفضاً .

والقرآن الكريم قد اهتم بهذه العوامل الشخصية اهتمامه بالظواهر الاجتماعية لأنها فى كثير من الأحيان تكون العوامل القوية الفعالة فى عمليات التنمية ، وفى المعوقات التى توضع فى طريقها .

واهتمام القرآن بهذه العوامل واضح من هذه الآيات الكثيرة التى تعرض فيها القرآن لهذه العوامل وزادها شرحاً وتفسيراً .

ونستطيع أن نستعرض سويا هذه العوامل التى يمكن تسميتها بالعوامل النفسية من حيث إنها إنما تنبع من خفايا النفس البشرية .

وأول هذه العوامل : ـــ الحرص على المصلحة الشخصية .

والحرص على المصلحة الشخصية والجرى وراءها ، والتضحية بالمصلحة العامة فى سبيلها ، أمر نشاهده فى حياتنا كل يوم تقريباً .

لقد تعود الكثيرون — وبخاصة أولئك الذين ليست لديهم مبادىء أو قيم تسدد خطاهم وتحول بينهم وبين الانحراف أثناء السير — على أن يلتفوا حول الأشخاص أو حول الأفكار التى تحقق لهم منفعة ، ويدافعون عن كل ذلك دفاع المستميت من حيث إنه فى الحقيقة دفاع عن أنفسهم .

وتعود الناس كذلك النفور من الأشخاص أو من الأفكار التى تدعوهم إلى التضحية بالمصلحة الشخصية فى سبيل المصلحة العامة ، وينكرونها ويعملون على دحضها بقدر المستطاع .

وسجل القرآن الكريم على بعض خصوم النبي عليه السلام أنهم كانوا يقفون هذا الموقف الأخير . كانوا ينفرون مما يدعوهم إليه ذهاباً منهم إلى أن ما يدعوهم إليه يفوت عليهم مصالح كثيرة قد استقرت لهم وأصبحت جزءاً من نظام حياتهم .

والقرآن عند تسجيله لهذه الحقيقة يرد عليهم فى الوقت ذاته ويبين لهم ما فى موقفهم هذا من تناقض .

يقول الله تعالى : « قالوا : إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا » .

كما يقول فى سبيل الرد عليهم : « أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء — رزقا من لدنا

ولكن أكثر الناس لا يعلمون

كما يقول أيضاً فى سبيل الرد عليهم : « أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم ؟

أفبا لباطل يؤمنون ، وبنعمة الله هم يكفرون ؟

* * *

وثانى هذه العوامل : — الحسد

ويهيج هذا العنصر العاطفى عندما يرى الحاسد إنسانا غيره قد وصل إلى ما لم يصل هو إليه ، أولما كان يحلم هو بالوصول إليه من حيث إنه أمنية من أمانيه ، أو أمل من آماله .

وأكثر ما يكون هذا العنصر العاطفى هياجا عندما تكون هناك تغييرات جذرية وخلخلات ثقافية واجتماعية . إذ فى مثل هذه المرحلة تكون الضوابط غير قادرة على كبح جماح أصحاب العواطف الثائرة ...

وكان الذى يستهدفه محمد عليه السلام هو إحداث هذه التغييرات الجذرية فى الحياة العربية . وإعادة بناء الإنسان العربى من جديد على أساس جديد .

وكان اليهود أكثر الناس حسداً لمحمد عليه السلام . وهذا هو الواضح من الآيات القرآنية الكريمة الواردة فى شأن الحاسدين لمحمد عليه السلام .

لقد كانوا يذهبون إلىأن أمور النبوة والرسالة من خصائصهم ، فهم شعب الله المختار وهم أبناء الله وأحباؤه . فأن يجىء عربى من تلك الأمة الأمية ـ العرب ـ ويعلن أنه رسول الله إلى الناس ، أمر لم يكن ليخطر لهم ببال ...

لقد كانوا يتوقعون دائماً ظهور هذا النبى — ولكنهم كانوا يتوقعونه من جنسهم أو داعية لدينهم .

والآيات القرآنية الموضحة لهذا الموقف هى : —

يقول الله تعالى : » ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب : يؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا ! هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا :

أولئك الذين لعنهم الله ، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً

أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيراً ؟

أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ؟ ... » .

ويقول : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا . حسداً من عند أنفسهم ، من بعد ما تبين لهم الحق .

فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره ... »

ويقول الأستاذ الإمام عند تفسيره للآية الأولى من هاتين الآيتين ما يلى :

« إن اليهود حكموا بأن المشركين أهدى سبيلا من المؤمنين ، وذلك من الحسد والغرور بأنفسهم . فإنهم يقولون ذلك مع أن المشركين يؤمنون بالجبت

والطاغوت — فهم فى شر حال . ثم هم يعيبون المؤمنين — مع أنهم فى أحسن حال .

إن الله تعالى يقول : إن اليهود يريدون أن يضيق فضل الله بعباده ، ولا يحبون أن يكون لأمة من الأمم فضل أكثر مما لهم ، أو مثله ، أو قريباً منه — لما استحوذ عليهم من الغرور بنسبهم وتقاليدهم مع سوء حالهم .

فكأنه يقول :

هل غرر هؤلاء بأنفسهم تغريراً ؟

أم لهم نصيب من الملك فى هذا الكون فهم يمنعون الناس فلا يؤتونهم منه نقيراً ؟

أم يحسدون الناس — أى العرب — على ما أعطاهم الله من فضله ؟
فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة . . . الخ والعرب منهم فهم من ذرية ولد إسماعيل ...

والحاصل أن حال اليهود يومئذ كان لا يعدو هذه الأمور الثلاثة :

إما غرور خادع يظنون معه أن فضل الله محصور فيهم ، ورحمته تضيق عن غير شعب إسرائيل من خلقه ...

وإما حسبان أن ملك الكون فى أيديهم فهم لا يسمحون لأحد بشىء منه — ولو حقيراً كالنقير .

وإما حسد العرب على ما أعطاهم الله من الكتاب ، والحكمة ، والملك الذى ظهرت مبادىء عظمته ... »

كما يقول عند تفسيره للآية الثانية :

« بيان لما يضمرونه ، وما تكنه صدورهم للمسلمين من الحسد على نعمة

الإسلام التى عرفوا أنها الحق، وأن وراءها السعادة فى الدارين ولكنهم شق عليهم أن يتبعوهم فتمنوا أن يحرموا هذه النعمة ويرجعوا كفاراً كما كانوا .

ذلك شأن الحاسد — يتمنى أن يسلب محسوده النعمة ولو لم تكن ضارة به ، فكيف إذا كان يعلم أن تلك النعمة إذا تمت وثبتت يكون من آثرها سيادة المحسود عليه وإدخاله تحت سلطانه .

هذا ما كان يتوقعه علماء يهود فى عصر التنزيل .

وقد جاء هذا التنبيه فى هذه الآية تكملة لقوله تعالى : « ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ، ولا المشركين ، أن ينزل عليكم من خير من ربكم » .

وقد بين الله لنا ما كان من محاولة أهل الكتاب ، وتحيلهم على تشكيك المسلمين فى دينهم ، كقول بعضهم لبعض بأن يؤمنوا أول النهار ويكفروا آخره — لعل ضعفاء الإيمان يرجعون عن الإسلام اقتداء بهم . . .

وفائدة هذا التنبيه : أن يعلم المسلمون أن ما يبدو من أهل الكتاب أحيانا ، من إلقاء الشبه على الإسلام ، وتشكيك المسلمين فيه — إنما هو مكر السوء يبعث عليه الحسد .

وقال تعالى : حسداً من عند أنفسهم . .

ليبين أن حسدهم لم يكن عن شبهة دينية ، أو غيرة على حق يعتقدونه ، وإنما هو : خبث النفوس ، وفساد الأخلاق ، والجمود على الباطل وإن ظهر لصاحبه الحق . . .

ولذلك قال تعالى : من بعد ما تبين لهم الحق ... »

* * *

وعرض الأستاذ الإمام للباعث على هذا الحسد فقال : —

« وأهل الكتاب هم اليهود فهو ـ القرآن الكريم ـ لم يسند الحسد إلى غيرهم .

إنهم وقد سلب منهم الملك يتمنون عودته إليهم ، وقد كبر عليهم أن تسبقهم العرب إلى ذلك .

ولم يكن النصارى يؤمئذ يحسدون المسلمين لأنهم متمتعون بملك واسع . ولا مشركو العرب لأنهم ما كانوا يظنون أن النبوة التى قام بها واحد منهم حق ، ولا أنها تستتبع ملكا ، وإن من ظهرت له حقيقة الدعوة صار مسلماً .

أما اليهود فإنه لم يؤمن ممن ظهرت لهم حقبة دعوة الإسلام إلا نفر قليل ، ومنع الحسد باقى الرؤساء أن يؤمنوا وتبعهم العامة تقليداً لهم .

وقلما يمنع الناس من اتباع الحق بعد ظهوره لهم مثل الحسد والكبر . فالحسود يؤثر هلاك نفسه على انقيادها لمن يحسده — لأن الحسد يفسد الطباع .

* * *

وثالث هذه العوامل : — الغضب

ويستند هذا العنصر العاطفى إلى غريزة المقاتلة .

ويستثار الغضب فى العادة عندما يغيظ الإنسان إنسان آخر ، أو عندما يفعل هذا الانسان الأخير ما يكره الإنسان الأول .

والغضب يدفع الإنسان إلى أحد موقفين : —

الأول : — المقاتلة ، دفاعاً عن النفس وعن الرأى والمعتقد .

وهذا الموقف هو الذى يسبب الحرب الباردة ، أو الحرب الساخنة — الأمر الذى نعرض له فى القسم الثالث من هذا الكتاب .

الثانى : — الكبت أو الغيظ المكتوم .

وهذا الموقف هو الذى نعرض له فى هذا المقام .

إن الغيظ المكتوم إنما يسبب الحقد ، ويدفع إلى تشديد النكير على الخصم .

إن الذين لا يعادون فى صراحة ، إنما يلجأون فى الأعم الأغلب إلى استخدام الدس والوقيعة — يستخدمونها فى الخفاء .

وقد يدفع الحقد بعض هؤلاء إلى أن يصبحوا من المنافقين

يقول الله تعالى مصوراً حالهم : « ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ، وتؤمنون بالكتاب كله .

وإذا لقوكم قالوا : آمنا

وإذا خلوا : عضوا عليكم الأنامل من الغيظ .

قل : موتوا بغيظكم . إن الله عليم بذات الصدور

إن تمسسكم حسنة تسؤهم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ، وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ... »

ويقول أيضاً : « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم . . » .

* * *

ورابع هذه العوامل : الكبر أو الاستكبار والعناد .

ويقص القرآن الكريم علينا أنباء المستكبرين الذين دفعهم الكبر إلى العناد ورفض الحقيقة ، والسخرية والاستهزاء بالمنادى بها والداعى إليها .

ونرى من بين هؤلاء المستكبرين إبليس وفرعون .

فإبليس كبر عليه أن يطيع أوامر المولى سبحانه وتعالى حين أمره بالسجود لآدم عليه السلام ، ويذكر فى صراحة أنه خير من آدم .

يقول الله تعالى : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر ... »

ويقول أيضاً : — « ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين .

قال : ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ؟

قال : أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين .

قال : فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فاخرج إنك من الصاغرين ... »

وفرعون كبر عليه أن يستجيب لموسى عليه السلام .

يقول الله تعالى : « ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملائه بآياتنا ، فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين . . »

ومثل إبليس وفرعون المستكبرون من أقوام صالح وشعيب عليهما السلام .

يقول الله تعالى فى شأن المستكبرين من قوم صالح : —

« وإلى ثمود أخاهم صالحاً ...

قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم ، أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه ؟

قالوا : إنا بما أرسل به مؤمنون .

قال الذين استكبروا ، إنا بالذى آمنتم به كافرون »

ويقول الله تعالى فى شأن المستكبرين من قوم شعيب : —

« وإلى مدين أخاهم شعيباً ...

قال الملأ الذين استكبروا من قومه : لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك ، من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا .

قال : أو لو كنا كارهين ... »

وواضح من هذه القصص أن المستكبرين إنما يكونون من الأغنياء ، ومن الأقوياء ، ومن ذوى النفوذ والسلطان ...

والمستكبرون الذين وقفوا من محمد عليه السلام موقف المنكر أمره والمستهزىء به هم من هذا الصنف أيضاً - أو على أقل تقدير ، هذا ماتكشف عنه الآيات .

يقول الله تعالى فى حق بعضهم : « ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ، ويتخذها هزوا .

أولئك لهم عذاب مهين .

وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً ، كأن لم يسمعها ، كأن فى أذنيه وقرا ، فبشره بعذاب أليم »

ويقول فى حق آخر : « ويل لكل أفاك أثيم ، يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا ، كأن لم يسمعها »

ويقول فى حق ثالث : « إنه كان لآياتنا عنيدا :

سأرهقه صعودا . إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر ... »

وفى القرآن الكريم آيات عديدة وردت فى حق المستكبرين وفى موقف الله سبحانه وتعالى منهم يوم القيامة ، ونكتفى هنا بإيراد آية واحدة من هذه الآيات.

يقول الله تعالى : « ويوم يعرض الذين كفروا على النار ، أذهبتم طيباتكم فى الحياة الدنيا واستمتعتم بها . فاليوم تجزون عذاب الهون ، بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تفسقون ... »

ونختتم هذا الفصل لهذه الفقرة التى وردت فى المنار عند تفسيره للآية القرآنية الكريمة : « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ... إلى آخره » .

هذا بيان لسنته تعالى فى تكذيب البشر لدعاة الحق والخير ، من الرسل وورثتهم ...

وسببه الأول التكبر .

فإن من شأن الكبر أن يصرف أهله عن النظر والاستدلال على الحق

والهدى لأجل اتباعه ، فهم يكونون دائماً من المكذبين بالآيات الدالة عليه ، الغافلين عنها .

وتلك حال الملوك ، والرؤساء ، والزعماء الضالين : كفرعون وملائه ...

وإنما ذكرت هذه السنة العامة بصيغة المستقبل ، لإعلام النبي صلى عليه وسلم بأن الطاغين المستكبرين من مشيخة قومه لن ينظروا فى آيات القرآن الدالة على صدقة صلى الله عليه وسلم فى دعوى الرسالة ...

والدالة على وحدانية الله تعالى ...

لتكبرهم فى الأرض بالباطل

ووجهة نظرهم تنحصر فى تفضيل أنفسهم عليه بأنهم سادة قريش وكبراؤها وأغنياؤها ، فلا يليق بهم أن يتبعوا من هو دونهم سنا ، وقوة ، وثروة ، وعصبية .

والمعنى : سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق من قومك أيها الرسول ، ومن غيرهم فى كل زمان ومكان — كما صرفت فرعون وملائه عن آياتى التى أتيتها رسولى موسى ...

والتكبر صيغة تكلف أو تكثر — من الكبر الذى هو غمط الحق بعدم الخضوع له ، واحتقار الناس .

فهو شأن من يرى أنه أكبر من أن يخضع لحق ، أويساوى نفسه بشخص .

والأصل الغالب فى التكبر أن يكون بغير الحق ...

وقد يتصور أن يتكلف الإنسان إعلاء نفسه على غيره ، أو إكثاره من الاستعلاء عليه ، بحق . كالترفع عن المبطلين ، وإهانة الجبارين ...

فقوله تعالى : بغير الحق ، ... أى أنهم يتكبرون حالة كونهم متلبسين بغير الحق — أى منغمسين فى الباطل .

وأمثال هؤلاء لاقيمة للحق فى نفسه عندهم .

إنهم لا يطلبونه ، ولا يبحثون عنه .

وقد تظهر لهم آياته فيجحدونها ، وهم بها موقنون ...

كما قال تعالى فى آل فرعون : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا .. »

وقال فى طغاة قريش : « فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ... »

القسم الثالث

الغايات والوسائل

الغـــايات

أما الغايات فواضحة تماماً ، وليس يخطئها أى قارىء للقرآن الكريم مهما يكن حظه من الثقافات اللغوية والثقافات الدينية . أنها تكشف عن نفسها عند قراءة القرآن ، أو عند سماع أية تلاوة للقرآن .

ونحن هنا لانستطيع أن نقف عند هذه الغايات لنحددها ونبينها غاية غاية ، فذلك أمر يطول شرحه ولا تتسع له صفحات هذا الكتاب .

إننا هنا إنما نقصد إلى التمييز بين نوعين من الغايات يستهدفهما القرآن الكريم من الإنسان بصفة عامة والإنسان العربي بصفة خاصة . نوعين نعرف أن الوسائل التي إستخدمت فيهما قد إنتهت بهما إلى التحقيق .

فنحن حين نكتب هذا الكتاب عن « محمد والقوى المضادة » إنما نعرف مسبقاً أن محمداً عليه السلام قد إنتصر على هذه القوى المضادة ، وأن الكثيرين ممن كانوا ينتمون إلى هذه القوى قد تحولوا عنها ودخلوا فى الإسلام . نعرف ذلك ونعرف شيئاً أكثر منه هو أن هؤلاء حين دخلوا فى الإسلام حسن إسلامهم ، وأصبحوا قوة لايستهان بها . قوة عز بها الإسلام ، وقوة قادت الحركة الإسلامية ، ونشرت الإسلام فى بلاد بعيدة عن الوطن الأصلى للإسلام .

لقد خرج الإسلام بفضلهم من الجزيرة ، وطوف فى الآفاق شرقاً وغرباً حتى وصل إلى بلاد أندونيسيا من الشرق ، وبلاد الأندلس من الغرب ..

هذه الوسائل التى حققت هذا النصر هى مقصدنا الأول ،

أما الغايات فإنما نتعرف عليها من أجل أنها المؤشرات التى نعتمد عليها فى التعرف على مجموعة من هذه الوسائل :

* * *

والنوعان من الغايات التى نريد التمييز بينهما هما : —

أولا : الغايات التى يستهدفها القرآن الكريم باعتباره دعوة جديدة

تستهدف إحداث تغييرات جذرية فى مجالات الحياة المختلفة ولا سيما المجال الدينى ، والمجال الاجتماعى .

ثانياً : —الغايات التى يستهدفها القرآن الكريم باعتباره حواراً بناء مع معارضة قوية تستهدف القضاء على الدعوة الجديدة ، وصد الناس عن محمد عليه السلام وإنصرافهم من حوله حتى لا يتأثرون بما يتلوه عليهم من الآيات البينات .

والغايات التى من النوع الأول كثيرة العدد ومتنوعة من حيث أن مجالات الحياة عديدة ومختلفة ...

ويمكن الإشارة إليها فى إيجاز بالإطارات التالية :

١ — الإصلاح الدينى الذى تناول الأركان الدينية الثلاثة التى قام عليها كل دينى سماوى وهى : الإيمان بالله ، الإيمان بالبعث ومايتبعه من ثواب أو عقاب ، العمل الصالح .

٢ — الإصلاح الذى تناول وظيفة الرسل ، وأجناسهم ، وأنواعهم ، وعدم التفرقة بينهم من حيث الإيمان بهم .

٣ — الإصلاح الاجتماعى الذى يتناول الأسرة، والأمة ، والأخوة الإنسانية، والحرية .

٤ — الإصلاح السياسى الذى يتناول مسائل الأمن والخوف . ومسائل الحرب والسلم ، ومسائل العلاقات بين المسلمين وغيرهم ، ومسائل السياسات الدولية .

٥ — الإصلاح المالى الذى يتناول أحوال الفقراء والمساكين واليتامى وأبناء السبيل ومن إليهم ، والذى يتناول المكسب وعروض التجارة ، والذى يتناول القروض والربا وما أشبه .

٦ — بيان مافى الإسلام من مزايا : وكونه دين الفطرة ، ودين العلم

والحكمة ، ودين الحجة والبرهان والحرية فى الإستدلال، وتخطى الرجعية وضرب التقليد ، وما أشبه ...

وكل هذه الأشياء إنما تنتهى عند تكوين الإنسان الجديد الصالح للحياة فى المجتمع الجديد .

وقد أرشدنا القرآن الكريم إلى الخصائص التى تتوفر فى الإنسان الجديد ، وهى خصائص واردة فى الآيات التالية : —

يقول الله تعالى فى سورة « المؤمنون »

« قد أفلح المؤمنون .

الذين هم فى صلاتهم خاشعون .

والذين هم عن اللغو معرضون .

والذين هم للزكاة فاعلون .

والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون .

والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون .

والذين هم على صلواتهم يحافظون .

أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » .

ويقول تعالى فى سورة الفرقان : —

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما .

والذين يبيتون لربهم سجداً وقياما .

والذين يقولون : ربنا أصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما . أنها ساءت مستقرا ومقاما .

والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما .

والذين لايدعون مع الله إلها آخر ، ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلابالحق ، ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ، إلا من تاب وآمن وعمل صالحا . . .

والذين لايشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما .

والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا .

والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما . . .

أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما . خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما » .

* * *

والغايات التى من النوع الثانى قليلة العدد ، وإن تكن أكثر أهمية من الأولى، من حيث قدرتها على كشف الوسائل القوية الفعالة التي غيرت من موافف القوى المضادة .

هذه الغايات تختلف باختلاف الفرقاء ، فهى عند أهل الكتاب غيرها عند المشركين ، والذى يستهدف من أهل الكتاب غير ذلك الذى يستهدف من المشركين . .

والأسباب فى ذلك واضحة ، وتدور حول اختلاف التركيب الثقافى ، والتركيب الاجتماعى، عند كل من أهل الكتاب والمشركين. .

وهذا الاختلاف فى التركيبين الثقافى والاجتماعى هو الذى خالف بينهم فى

الغايات التي يستهدفونها من محمد عليه السلام ، وفى الوسائل التى يعتمدون عليها فى تحقيق هذه الغايات .

* * *

كانت الغاية التى يستهدفها القرآن الكريم من أهل الكتاب هى الالتقاء مع محمد عليه السلام عند صيغة من صيغ التوحيد فى الألوهية . وهذه الصيغة هى الواردة فى الآية القرآنية الكريمة التى توجه محمداً عليه السلام نحو مطالبتهم بتحقيق هذه الصيغة .

جاء فى القرآن الكريم : « قل : ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم :

ألا نعبد إلا الله ولانشرك به شيئا ، ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله .

فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون » .

ويرى المفسرون أن هذه الآية تقرر وحدانية الألوهية ، ووحدانية الربوبية .

فأما وحدانية الألوهية فهى قوله تعالى : « ألا نعبد إلا الله » وأكدها سبحانه بقوله : « ولانشرك به شيئاً » .

ويفسرون معنى الإله بقولهم: هو المعبود الذى تتوله العقول فى معرفته ، وتدعوه ، وتصمد إليه، لاعتقادها أن السلطة الغيبية له وحده .

وأما وحدانية الربوبية فهى قوله تعالى : « ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » .

فالرب هو السيد المربى الذى يطاع فيما يأمر وينهى . .

والمراد هنا من له حق التشريع ، والتحليل والتحريم . . .

قال الأستاذ الإمام : كان اليهود موحدين ، ولكن كان عندهم شىء هو منبع

شقاءهم فى كل حين — وهو أتباع رؤساء الدين فيما يقررونه وجعله بمنزلة الأحكام المنزلة من الله تعالى .

وجرى النصارى على ذلك ، وزادوا مسألة غفران الخطايا— وهى مسألة تفاقم أمرها فى بعض الأزمان ، حتى ابتلعت الكنائس أكثر املاك الناس .

ومن الغلو فى هذه المسألة نبتت مسألة الاصلاح الدينى ، إذ قام البروتستانت وقالوا : — هلم بنا نترك هؤلاء الأرباب من دون الله ، ونأخذ الدين من كتابه ولانشرك معه فى ذلك قول أحد .

ويمضى الأستاذ الإمام فى تعليقاته فيقول عند قوله تعالى فى ختام الآيةالسابقة: « فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون » مايلى :

نعبد الله وحده مخلصين له الدين ، لاندعو سواه ، ولا نتوجه إلى غيره فى طلب نفع ولادفع ضر ، ولانحل إلا ماأحله ولا نحرم إلا ماحرمه . . .

والآية حجة على أنه لايجوز لأحد أن يأخذ بقول أحد مالم يسنده إلى المعصوم. يعنى فى مسائل الدين البحتة : العبادات ، والحلال والحرام .

أما المسائل الدنيوية كالقضاء والسياسة فهى مفوضة بأمر الله تعالى إلى أولى الأمر وهم : رجال الشورى من أهل الحل والعقد . فما يقررونه يجب على حكام المسلمين أن ينفذوه ، وعلى الرعية أن يقبلوه .

* * *

وكانت الغاية التى يستهدفها أهل الكتاب من محمد عليه السلام أن يرجع عن هذا الذى يدعو إليه ، وأن يدخل هو فى ملتهم لاأن يدخلوا هم فى ملته .

وهذه الغاية تكشف عنها الآية القرآنية التالية : —

يقول الله تعالى : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم . قل : إن هدى الله هو الهدى .

ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير . . . »

وكانوا يستهدفون الغاية نفسها من الذين آمنوا بمحمد عليه السلام وهذا هو الأمر الذى تكشف عنه الآية القرآنية التالية :

يقول الله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين .

وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله » .

* * *

وكانت الغاية التى يستهدفها القرآن الكريم من المشركين والوثنيين من أبناء الأمة العربية: هى التحول التام مما هم فيه من شرك وكفر إلى الإيمان بالواحد الأحد ، وإلى الإيمان بالبعث ومافيه من جزاء ، وإلى القيام بالأعمال الصالحة التى تحقق الخير العام .

وكانت غايته من القيادات التى تثير الجدل وتصد الناس عن الاستماع إلى محمدعليه السلام، قائلين لهم فياحكى القرآن عنهم« : لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » . كانت غايته منهم أن يصبحوا من القيادات الرائدة فى المجتمع الجديد . فى الأمة التى تصبح بفضل الله ، وإيمان أهلها بالعقيدةالجديدة ، خير أمة أخرجت للناس .

كان يريد لهم وبهم الخير ، ولكنهم كانوا يقولون : « قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه ، وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل إننا عاملون » .

ويصور القرآن الكريم هذه الغاية ، والحرص على تحقيقها فى آيات كثيرة نكتفى منها بهاتين الآيتين : —

يقول الله تعالى : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ظلال مبين » .

ويقول : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم . عزيز عليه ماعنتم . حريص عليكم. بالمؤمنين رؤوف رحيم » .

* * *

وكانت الغاية التى يستهدفها المشركون من محمد عليه السلام أن يرجع عن هذه الدعوة التى يدعوهم إليها ، والتى تخرجهم عما كانوا عليه من ديانات الآباء والأجداد .

لقد كانوا يقيمون معه الحوار على هذا الأساس ، ويقولون له فيما حكى القرآن الكريم عنهم : « ائت بقرآن غير هذا أو بدله » .

ويصور القرآن نوعا من اللقاء يودونه منه ويسميه بالمداهنة ، فيقول تعالى : « ودوا لو تدهن فيدهنون » .

ويضع القرآن الكريم حدا لهذا الحوار الهادم للدعوة الجديدة حين يوجه الحديث إلى محمد عليه السلام قائلا له : « وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره — وإذا لاتخذوك خليلا .

ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا .

إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا . إلا رحمة من ربك .

إن فضله كان عليك كبيرا »

* * *

ونختتم هذه الفقرة بالإشارة العابرة إلى المسائل التالية :

أولا : أن القرآن الكريم كان يستهدف أمرين :

(ا) جذب الناس إلى الإسلام .

(ب) تزكيتهم ، وتغيير كل ما كان بأنفسهم .

ثانيا : — أن السير فى سبيل تحقيق هاتين الغايتين هو الذى حمل المشركين

وأهل الكتاب على صد النبي بالقوة عن تلاوة القرآن فى أى مكان : فى البيت الحرام . وفى الأسواق . وفى المواسم . . . الخ .

لقد كان كل مايطلبه النبي عليه السلام من قومه أن يمكنوه من تبليغ دعوة ربه بتلاوة القرآن فى الناس .

جاء فى القرآن الكريم تصويرا لهذا الموقف مايلى :

« إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها ، وله كل شىء ، وأمرت أن أكون من المسلمين .

وأن أتلو القرآن . فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين .

وقل : الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها .

وماربك بغافل عما تعملون » .

ثالثا : أن رؤساء قريش قد عرفوا من قوة جذب القرآن الكريم الناس إلى الإسلام بوقعه فى أنفسهم مالم يعرفه غيرهم .

وكانوا يعرفون فى الوقت ذاته أن ليس لجمهور العرب مثل مالهم من أسباب الجحود والمكابرة ، وأن محمدا لوترك وتلاوة القرآن فى الناس لانصرف العرب جميعا عن دين الآباء والأجداد . ومن هنا تنادوا باتخاذ المواقف من محمد عليه السلام .

قال لهم عمه أبو لهب من أول الأمر : خذوا على يديه قبل أن تجتمع العرب عليه . ففعلوا .

وكان من ثباته على بث الدعوة واحتمال الأذى ، ماأفضى إلى تشديد النكير عليه ، وإيقاع أشد الأذى وأقوى الاضطهاد عليه وعلى من يؤمن به .

وكان من أمرهم معه أن أجمعوا أمرهم على قتله لولا عناية الله به وهجرته إلى المدينة .

ثم صاروا يقاتلونه فى دار هجرته ، وفيما حولها . . . وينصره الله عليهم إلى أن اضطروا إلى عقد الصلح معه .

وكان هذا الصلح سنة ست من الهجرة .

ويعرف هذا الصلح فى التاريخ باسم صلح الحديبية .

الوســائل

والوسائل التى نتناولها بالحديث فى هذا المقام ليست الوسائل المستثمرة فى نشر الدعوة الإسلامية، وفى جذب الناس إليها للإيمان بها وممارسة الحياة على أساس منها، وإنما هى الوسائل التى استخدمت فى الصراع الذى قام بين محمد عليه السلام والذين معه من جانب، والمشركين وأهل الكتاب من الجانب الآخر. الوسائل التى استثمرت فى محاولات تغلب فريق على فريق.

والوسائل من هذه الناحية يمكن تقسيمها أقساما ثلاثة : —

قسم منها يدور حول الوسائل التى استثمرها المشركون فى رفض دعوة محمد عليه السلام والعمل على القضاء عليه وعليها، وهذه الوسائل قد استثمرت فى العهد المكى، ونقلت لنا السور المكية صوراً كثيرة عنها وعن كيفية استثمارها.

وقسم آخر يدور حول الوسائل التى استثمرها المشركون وأهل الكتاب على حد سواء. استثمروها فى العهد المدنى محاولين بها نفس المحاولات الأولى، وزادوا عليها ذلك التشكيك فى أمر محمد عليه السلام، وهو تشكيك قام به أهل الكتاب باعتبارهم أهل الكتاب الأول الذين يعرفون من أمر الرسل والأنبياء أكثر مما يعرف العرب الأميون الذين لا كتاب لهم.

وقسم ثالث، وهو أهمها جميعاً، يدور حول الوسائل التى اعتمد عليها محمد عليه السلام بتوجيه من القرآن الكريم فى التغلب على خصومه من المشركين، وأهل الكتاب.

وأهمية هذا القسم تنبع من مصدرين : —

الأول : — أن هذه الوسائل هى التى حققت أهدافها، فنحن نعلم جميعاً أن محمداً عليه السلام هو الذى انتصر، وأن الإسلام قد ساد مكة والمدينة ثم الجزيرة العربية ثم بلاداً أخرى عديدة خارج أرض الجزيرة وخارج نطاق البلاد العربية.

لقد هزم المشركون وأهل الكتاب، ولسنا حريصين أبداً على أن نقف طويلا عند وسائل المهزوم أو المغلوب.

يجب أن تكون هذه الوقفة مع الوسائل التى حققت نجاحا لندرك كيف أديرت هذه الوسائل حتى حققت أهدافها وبلغت غاياتها .

إن هذا الإدراك هو الوسيلة للاستفادة من هذه الوسائل فى معركتنا الحالية التى يدور فيها الصراع من حولنا ، وفى داخل أوطاننا ، وفى داخل أنفسنا .

الثانى : — أن هذه الوسائل قد حققت غاياتها لأنها أديرت فى هذا الصراع بتوجيه من القرآن الكريم .

إن عقيدتنا الدينية إنما تنبع من القرآن الكريم . والمسلمون فى كل بلاد العالم مطالبون بممارسة الحياة على أساس من تلك التوجيهات التى جاء بها القرآن الكريم.

إن وقفتنا مع هذه الوسائل الناجحة التى أدارها محمد عليه السلام بتوجيه من القرآن الكريم قد تكون وقفة دينية إلى جانب كونها وقفة سياسية أو ثقافية أو حربية . . .

وهذا البعد الدينى لهذه الوسائل هو الذى يكشف عن مدى فاعلية كل وسيلة — وبخاصة تلك الوسائل التى استثمرها كل من المشركين ، وأهل الكتاب ، ومحمد عليه السلام .

إن إدارة الوسيلة هو الذى يفرق بين إنسان وإنسان .

وحسن إدارة الوسيلة والكيفية التى بها تدار هو الذى يمكنها من بلوغ غاياتها. ومن تحقيق أهدافها .

* * *

وقبل أن نستعرض هذه الأقسام الثلاثة من الوسائل كل قسم على حدة نشير إلى بعض الظواهر :

فأولا : — هذه القسمة لا تدل على تميز واضح لكل قسم من هذه الأقسام ، وتحديد دقيق لكل وسيلة منها :

لقد وردت هذه الوسائل فى بعض الآيات مجتمعة غير متفرقة ، ووردت فى معرض الرد عليها تفصيلا فى أقل الحالات وإجمالا فى الكثير منها .

ولقد وردت هذه الوسائل في معرض السؤال والجواب . السؤال الذي يقصد به تعجيز النبي عليه السلام ، والجواب الذي يوجه محمداً عليه السلام إلى كيفية الإجابة أو الرد .

ووردت أيضاً في معرض الحوار الجدلي الذي يقصد منه توضيح الحقائق والتمييز فيما بينهما — ذلك التمييز الذي ينتهي إلى إحقاق الحق وإبطال الباطل .

ولقد وردت أيضاً في صيغة التجربة البشرية — تلك التجربة التي عانى فيها الرسل والأنبياء ما يعانيه محمد عليه السلام ، والتي توحي إليه بأن موقف قومه سيكون مثل مواقف أقوام جميع الرسل وكل الأنبياء .

إنها سنة الله في خلقه .

هذا الإيراد على هذه الصورة جعل هذه الوسائل مجتمعة لا متفرقة ، ومختلطة لا متميزة .

إنا حين نفصل بينها هنا إنما نفعل ذلك ليدرك القارئ مراحل الصراع — كل مرحلة على حده . وليستبين القارئ الأبعاد المختلفة لفاعلية كل وسيلة من هذه الوسائل.

هذا إلى جانب المراحل المتميزة في الصراع ا وهي المرحلة المكية والمرحلة المدنية . ففي الأولى كان المشركون وحدهم هم القوة المضادة . وفي الثانية كان المشركون وأهل الكتاب .

وثانياً : — هذه القسمة هي التي تكشف لنا استمرار واستخدام الوسيلة الواحدة أو عدم استمرارها .

فهل ظل للوسيلة فاعليتها في كل من مكة والمدينة — أي منذ أن بدأ الصراع إلى نهايته ، أو وقفت هذه الفاعلية عند مرحلة بعينها .

وهل إستخدم جميع الفرقاء هذه الوسيلة أو نفر منها فريق وإستخدمها فريق.

فالمال مثلا كقوة في الصراع اعتمد عليه الفرقاء جميعاً بما فيهم محمد عليه السلام.

والإستهزاء والسخرية كقوة فى الصراع قد استثمره المشركون فى مكة ، ثم استثمره المشركون وأهل الكتاب فى المدينة ، ولم يستثمره محمد عليه السلام — كما هو الواضح من توجيهات القرآن .

وظاهرة النفاق مثلا لم تظهر فى الصراع المكى وظهرت فى الصراع المدنى من كل من المشركين وأهل الكتاب ، ولم تظهر أبداً من قبل محمد عليه السلام وقبل الذى آمنوا به وكانوا معه طرفا فى هذا الصراع .

إن إيراد هذه الأقسام كل قسم على حده ، وإيراد كل هذه الوسائل كل وسيلة على حده ،هو الذى يكشف لنا كل ما أشرنا إليه من أبعاد .

ونستطيع أن نأخذ الآن فى استعراض كل قسم من الأقسام مشيرين إلى وسائله المختلفة كل وسيلة على حده ، ومنتهين من الحديث عن كل وسيله فى الموقف الواحد الذى بدأنا فيه دراستها والحديث عنها حتى لا نعود إليها مرة ثانية إلا إذا اضطرنا إلى ذلك هذا المقام أو ذاك .

القسم الأول

وسائل المشركين

١

وقع الصراع بين محمد عليه السلام والمشركين منذ اللحظات الأولى التي أعلن فيها محمد عليه السلام أن الوحي قد هبط عليه من السماء، وأن عليه منذ هذه اللحظات أن يعلن في الناس أنه رسول الله إليهم.

واستجاب محمد عليه السلام للوحي، وأعلن في الناس أنه رسول الله إليهم فآمنت به قلة قليله، وأنكرته كثرة كاثرة.

ووقفت هذه الكثرة عقبة في سبيله، وأخذت تستخدم الوسيلة تلو الوسيلة في صد الناس عنه، وانصرافهم عن هذا الذي يدعو إليه من دين جديد.

كان هذا الدين الجديد بالنسبة إليهم عملية تخريبية، لأنه يحدث تغيرات جذرية في معتقداتهم، وفي تقاليدهم وعاداتهم، وفي علاقاتهم بالسماء وعلاقاتهم بالفقراء وبالعبيد والإماء، وباليتامى والمحتاجين ومن إليهم ممن ينظر إليهم السادة من قريش نظرة إزدراء.

كانوا يتوهمون أول الأمر أن به مساً من جنون، وأن هذا المس قد أصابه من حيث أنه قد أغضب الآلهه.

والقرآن الكريم يكشف عن هذه الحقائق حين يسجلها في آيات قرآنية كريمة.

يقول الله تعالى مسجلا عليهم قيلهم فيه: «إن نراك إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء».

ويقول في الرد عليهم: «ن. والقلم وما يسطرون. ما أنت بنعمة ربك بمجنون. وإن لك لأجراً غير ممنون. وإنك لعلى خلق عظيم، فستبصر ويبصرون. بأيكم المفتون».

ويقول من نفس السورة مسريا عن محمد عليه السلام ما هو فيه من هم دائم:

« فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم : لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم . فاجتباه ربه فجعله من الصالحين.

وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون : إنه لمجنون .

وما هو إلا ذكر للعالمين »

ويمضى محمد عليه السلام فى دعوته ويمضون هم فى التأثير عليه حتى ينصرف عن هذه الدعوة ، ويستثمرون فى ذلك من الوسائل ما يلى :

الصراع اللفظى :

بدأ الصراع لفظيا أول الأمر ثم أخذ يزداد حدة وإنفعالا إلى أن كانت الغزوات والحروب آخر الأمر .

بدأ الصراع باستبعاد أن يكون محمد عليه السلام رسول الله حقا ، وأن الله قد اختاره وهو اليتيم . الراعى . الأجير . ليكون رسوله إلى الناس .

لقد كذبوه أول الأمر — ولكن إصراره فى موقفه هذا قد دفعهم إلى أن يأتوا بالتكذيب فى صورة ساخرة ، ليتخذوا من الاستهزاء به والسخرية منه أداة للهوان والإذلال فينصرف الناس عنه .

والسخرية والاستهزاء من الوسائل اللفظية أو الوسائل المعنوية التى استثمرت فى كل من مكة والمدينة . استثمرها المشركون أولا فى مكة ، ثم استثمرها المشركون وأهل الكتاب فى المدينة . .

والذين استثمروها فى العهد المدنى لم يكونوا جميعا صرحاء وواضحى العداوة . فقد كان من بينهم منافقون مردوا على النفاق .

ويقص القرآن الكريم صوراً عديدة من سخرية هؤلاء الفرقاء بمحمد عليه السلام .

من ذلك أنه عليه السلام كان إذا مر بقوم يشيرون إليه إشارة استخفاف واستهزاء ، ويتفوهون بما لا يليق بمقامه كرسول من رب العالمين .

فيقول الله تعالى موجها إليه الكلام ،ومصورا بعض هذه الحالات : « وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا

أهذا الذى يذكر آلهتكم ؟ . . »

كما يقول : « وإذ رأوك إن يتخذونك إلا هزوا

أهذا الذى بعث الله رسولا ؟ »

ويقول أيضا : « وقال الذين كفروا : هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد . . . »

ويقول مشيرا إلى قيل لهم يستهزءون به فيه — على أساس من أساليب البلغاء الأقدمين : « وقالوا : ياأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون .

لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين »

* * *

وامتدت سخريتهم به إلى الطقوس الدينية التى كان يقوم بها ، والأعمال الدينية التى كان يتولاها .

كانوا يؤدون هذه الأعمال ويقومون بهذه الطقوس فى صورة ساخرة — مستهزئين به وبها .

يفعلون ذلك فى تلاوة القرآن الكريم ، ويفعلونه فى إقامة الصلاة ، وفى غيرهما .

لقد كان عليه السلام يتلو القرآن على المؤمنين به ، وعلى الذين يرى حسن

استعدادهم للاستجابة لدعوته ، وكان القرآن الكريم يحدث آثارا حسنه فى أنفس المستمعين للنبى عليه السلام وللقرآن الكريم . وكانوا يضيقون ذرعا بهذا الذى يحدثه القرآن فى أنفس الناس فيصدون الناس عن الذهاب إلى محمد عليه السلام للاستماع له حينا ، ويجلسون هم يتلون على الناس كلاما يرون له قدرة صرف الناس عن الاستماع إلى محمد عليه السلام .

كانوا يوهمون الناس بما يفعلون أن محمدا عليه السلام لايتلو عليهم كلاما ينزل من السماء ، وإنما يتلو عليهم كلاما يملى عليه ويكتبه .

كانوا يقولون فيما حكى القرآن الكريم عنهم : « وقال الذين كفروا : إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون . فقد جاءوا ظلما وزورا .

وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا »

كما كانوا يقولون : « أن لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إن هذا إلا أساطير الأولين »

ويحكى المفسرون والكاتبون للسيرة النبوية أن النضر بن الحارث كان يجلس مجلس محمد عليه السلام يفعل فعله مقلدا أو ساخراً بالنبى عليه السلام وبالقرآن .

قالوا : كان النضر هذا يختلف إلى أرض فارس ليسمع أخبارهم عن رستم ، واسفنديار ، وكبار العجم .

وكان يمر باليهود والنصارى فيسمع منهم التوارة والإنجيل .

وكان يجلس يحدث الناس موحيا إليهم بأن أخبار القرآن الكريم عن الرسل وأقوامهم ليست إلا من قبيل ما يقص هو عليهم من أخبار ملوك العجم . وأنها ليست من وحى الله ، وليست من أخبار الغيب ، وأنه يأتى بمثلها .

وفى النضر هذا نزلت الآيه القرآنية الكريمة : « ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا — أولئك لهم عذاب مهين .

وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها ، كأن فى أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم »

* * *

واستمرت هذه الوسيلة فى العهد المدنى ، وتناولت فيما تناولت الأعمال الدينية وآيات الله البينات .

ومن الأعمال الدينية التى تناولها المشركون واهل الكتاب بالسخرية والاستهزاء : الصلاة ، فكانوا يقلدون فيها محمدا عليه السلام ، يفعلون مثله ولكن فى سخرية واستهزاء .

والقرآن الكريم هو الذى يسجل عليهم هذا الصنيع فى مقام تحذيره المؤمنين من أن يتخذوا من الساخرين المستهزءين أولياء .

يقول الله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار اولياء ، واتقوا الله إن كنتم مؤمنين .

وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ، ذلك بأنهم قوم لايعقلون »

ولم تسلم الغزوات والحروب من الحديث الساخر الذى يقعد بالناس عن طلب المعالى ، وكان اكثر الناس سخرية فى هذا المقام هم الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر — اولئك الذين يعرفون فى ذلك الوقت بالمنافقين .

يقول الله تعالى فى شأنهم : « يحذر المنافقون ان تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم . .

قل : إن الله مخرج ما كنتم تحذرون

ولئن سألتهم ليقولن : إنما كنا نخوض ونلعب

قل : أبا الله وآياته ورسله كنتم تستهزءون ؟ »

وصنعوا مثل ذلك الصنيع مع العاملين فى ميدان الزكاه فكانوا يستهزءون بهم ويسخرون منهم ايضاً .

يقول الله تعالى : « الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات ، والذين لايجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم . .

سخر الله منهم ، ولهم عذاب اليم »

* * *

وحتى لاتفعل السخرية فعلها فى نفس النبى ، وفى أنفس المؤمنين به والواقفين إلى جانبه ، اخذت الآيات القرآنية تحذرهم وتبصرهم بالموقف وأبعاده ، ومن ذلك دعوة المسلمين إلى عدم الجلوس مع المستهزءين الساخرين — وبخاصة المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر .

وفى ذلك يقول الله تعالى : « وقد نزل عليكم فى الكتاب ! أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ، ويستهزىء بها ، فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره .

إنكم إذاً مثلهم .

إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا »

هذا ما كان من أمر الآيات مع الذين مع محمد عليه السلام . أما أمرها مع النبى نفسه فيمكن شرحه على هذا الأساس .

أولا : — أن تلك سنة الله فى خلقه . والقرآن الكريم يؤكد فى كثير من الآيات موقف الأقوام من الرسل ، وأنهم يسلكون معهم هذه السبيل .

إن الأقوام يعتبرون المرسلين من الشخصيات الخارجة على القانون ، أو على

التقاليد والعادات ، لأنهم ينادون ببطلان الأفكار والآراء التى يعيش عليها المجتمع ويمارس حياته على أساس منها ، ويدعون فى الوقت ذاته إلى اعتناق آراء جديدة لا يرى الناس فيها خيراً ، ومن ثم ينكرونها ويضعون العقبات فى طريقها .

وتأخذ الأقوام فى السخرية بالأفكار الجديدة وبالاستهزاء بالداعين لها لعل أن يكون فى ذلك القضاء عليها .

يقول الله تعالى موجها الحديث إلى محمد عليه السلام : « وكم أرسلنا من نبى فى الأولين، وما يأتيهم من نبى إلا كانوا به يستهزءون »

ويقول : « ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون »

وثانيا . — أن وظيفة الرسل ليست إلا التبليغ — إلا البشارة والإنذار . أما دفع الناس إلى الإيمان ، وكف الناس عن الباطل ، فغاية ليس يلزم أن تكون من عملهم المباشر .

إن عليهم التبليغ والإقناع

يقول الله تعالى : « وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين .

ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق ، واتخذوا آياتى وما أنذروا هزوا .

أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم ، فلا نقيم لهم يوم القيامه وزنا .

ذلك جزاؤهم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا »

وثالثا : — ان العقاب سينزل بأمثال هؤلاء ، وعلى ذلك فلا يصح للنبى او الرسول ان يعبأ بهم او يقلق لما يقولون ويفعلون من سخرية واستهزاء .

يقول الله تعالى موجها الخطاب إلى محمد عليه السلام : « ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون »

ويقول . « ولقد استهزئ برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب » .

ويقول : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين .

إنا كفيناك المستهزئين »

وصـــدق الله العظيم

٢

التعذيب البدنى :

حين لم تنفع الوسيلة الأولى فى صرف محمد عليه السلام عن هذا المعتقد الجديد الذى يدعو إليه ، فكر المشركون فى وسيلة أخرى تنضاف إليها ليكون إلى جانب التعذيب المعنوى الذى هو أثر من آثار الاستهزاء والسخرية . تعذيب آخر يدنى تلاقيه أجسام محمد عليه السلام والذين معه .

وفى القرآن الكريم آية من الآيات يمن الله فيها على محمد عليه السلام ويذكره بأيام لم تمض كان المشركون فيها يمكرون به ، ويحاولون تعذيبه أو القضاء عليه لولا فضل الله عليه وعنايته به .

هذه الآية هى قوله تعالى : « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك .

ويمكرون ويمكر الله .

والله خير الماكرين »...

ويشرح المفسرون هذه الآية فيقولون : اذكر أيها الرسول فى نفسك ما نقصه فى الكتاب على المؤمنين والكافرين فى عهدك ومن بعدك . . .

اذكر ذلك الزمن القريب الذى يمكر بك فيه الذين كفروا من قومك فى وطنك ، بما يدبرون فيما بينهم سراً من وسائل الإيقاع بك . .

ليثبتوك .

أو يقتلوك .

أو يخرجوك .

فأما الإثبات فالمقصود به : الشد بالوثاق ، والإرهاف بالقيد ، والحبس المانع من لقاء الناس ودعوتهم إلى الإسلام .

وأما القتل فالمكر فيه يكون فى طريقة تنفيذه ، وصفته الممكنة التى لا يكون ضررها فيهم باعتبارهم قتله ، عظيما .

وأما الإخراج فهو النفى من الوطن . . .

وقد كان التشاور فى هذه المسائل الثلاث بدار الندوة . . .

ويحدثنا المفسرون وكتاب السيرة عن الكيفية التى جرى عليها أمر هذا التشاور فيقولون : إن نفرا من قريش ،من أشراف كل قبيلة ،اجتمعوا ليدخلوادار الندوة ، فاعترضهم شيخ جليل . فلما رأوه قالوا : من أنت ؟

قال : شيخ من أهل نجد . سمعت بما اجتمعتم عليه فأردت أن أحضركم ،ولن يعدمكم منى رأى ونصح .

فدخل معهم وقال : انظروا فى شأن هذا الرجل ، فوالله ليوشكن أن يؤاتيكم فى أمركم بأمره .

فقال قائل : احبسوه فى وثاق ، ثم تربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء : زهير والنابغة ، فإنما هو كأحدهم .

فقال الشيخ النجدى : لا والله ، ما هذا لكم برأى . والله ليخرجن رائد من محبسه لأصحابه ، فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم ثم يمنعوه عنكم . فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم ، فانظروا فى غير هذا الرأى .

فقال قائل : فأخرجوه من بين أظهركم فاستريحوا منه ، فإنه إذا خرج لم يضركم ما صنع ، وأين وقع . وإذا غاب عنكم أذاه استرحتم منه ، فإنه إذا خرج لم يضركم ما صنع وكان أمره فى غيركم .

فقال الشيخ النجدى : لا والله ، ما هذا لكم برأى، ألم تروا حلاوة قوله ،

وطلاقة لسانه ، وأخذه للقلوب مما تسمع من حديثه . والله لئن فعلتم ثم استعرض العرب ليجتمعن إليه وليسيرن إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم .

قالوا : صدق والله ، فانظروا رأيا غير هذا . . .

فقال أبو جهل : والله لأشيرن عليكم برأى لا أرى غيره .

قالوا : وما هذا .

قال : نأخذ من كل قبيلة غلاماً ، وسطاً ، شابا ، نهدا ، ثم يعطى كل غلام منهم سيفا صارماً ، ثم يضربونه به ضربة رجل واحد . فإذا قتلتموه تفرق دمه فى القبائل كلها فلا أظن هذا الحى من بنى هاشم يقدرون على حرب قريش كلهم . وإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل ، واسترحنا ، وقطعنا عنا أذاه . . .

فقال الشيخ النجدى : هـــذا والله هو الرأى . القول ما قال الفتى ، لا أرى غيره .

وتفرقوا على ذلك وهم مجتمعون له .

أتى جبريل النبى عليه السلام وأمره ألا يبيت فى مضجعه الذى كان يبيت فيه ، وأخبره بمكر القوم .

لم يبت النبى عليه السلام فى بيته تلك الليلة ، وأذن له عند ذلك فى الخروج وأمره بالهجرة .

وسائر خبر الهجرة معروف .

ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين .

هذا بيان لحالتهم العامة الدائمة فى معاملته عليه السلام هو ومن معه من المؤمنين . . .

أى وهكذا دأبهم معك ، ومع من اتبعك ، يمكرون بكم ويمكر الله بهم .

كما فعل من قبل إذ أحبط مكرهم ، وأخرج رسوله من بينهم إلى حيث مهد له في دار الهجرة ووطن السلطان والقوة .

والله خير الماكرين من حيث أن مكره نصر للحق وإعزاز لأهله ، خذل للباطل وإذلال لأهله ، وإقامة للسنن وإتمام للحكم . . .

* * *

وفي القرآن الكريم قصة تشبه إلى حد ما هذه القصة التي يحكيها المفسرون — قصة محاولة قتل محمد عليه السلام .

يقول الله تعالى : « ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون .

قال : يا قوم ، لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ، لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون .

قالوا : اطيرنا بك وبمن معك .

قال : طائركم عند الله ، بل أنتم قوم تفتنون .

وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، قالوا : تقاسموا بالله ، لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله ، وإنا لصادقون .

ومكروا مكراً ، ومكرنا مكراً ، وهم لا يشعرون .

فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا — إن في ذلك لآية لقوم يعلمون .

وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون » .

وهذا الذي قصة القرآن الكريم فيما يخص محاولتهم تعذيب النبي عليه السلام وقتله لولا عناية الله به ، تقص مثله كتب السيرة فيما يخص السابقين الأولين من المسلمين .

لقد حاول المشركون صرفهم عن هذا الدين الجديد بإيقاع الأذى البدنى بهم ، وتحمل المسلمون الأولون كل صنوف العذاب فى سبيل المبدأ والعقيدة .

لقد ضربوا لنا الأمثال ، وأعطونا الأنموذج الذى يجب أن يحتذى .

وهذا الذى فعله المشركون قد أسماه القرآن بالفتنة وجعل الفتنة التى من هذا القبيل أشد من القتل .

ومن الذين ذاقوا العذاب صنوفا : عمار بن ياسر وعشيرته ، وبلال ، وصهيب، وخباب بن الأرت ، وغيرهم .

كان عمار يعذب بالنار . يكوى بها ليرجع عن الإسلام .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يمر به ويرى أثر النار به كالبرص .

وعن أم هانىء قالت : إن عمار بن ياسر ، وأباه ، وأخاه عبد الله ، وسمية أمه ، كانوا يعذبون فى الله . فمر بهم النبى صلى الله عليه وسلم فقال : صبرا آل ياسر : صبرا آل ياسر . فإن موعدكم الجنة .

مات ياسر فى العذاب . كانوا يلبسونه درعا من الحديد المحمى فى اليوم القائظ يعذبه بحره .

وأعطيت سمية أم عمار لأبى جهل يعذبها ، وكانت مولاة لعمه أبى حذيفة بن المغيرة — وهو الذى عهد إليه بتعذيبها .

عذبها أبو جهل عذابا شديداً رجاء أن تفتن عن دينها فلم تجبه .

كان يقول لها : ما آمنت بمحمد إلا أنك عشقته لجماله — يؤذيها بالقول كما كان يؤذيها بالفعل . .

وذات يوم طعنها فى فرجها بحربة فماتت رضى الله عنها — وكانت عجوزا كبيراً .

وكان أمية بن خلف يعذب بلالا يفتنه عن دينه .

كان يجيعه ، ويعطشه ليلة ويوما ، ثم يطرحه على ظهره فى الرمضاء — أى

يضعه على الرمل المحمى بحرارة الشمس الذى ينضج اللحم .

وكان يضع على ظهره صخرة عظيمة ويقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى ، فيأبى ذلك .

وكانوا يعطونه للولدان فيربطونه بحبل ويطوفون به فى شعاب مكة وهو يقول : أحد أحد . ،

وحكى خباب رضى الله عنه عن نفسه قال : لقد رأيتنى يوما وقد أوقدت لى نار وضعوها على ظهرى فما أطفأها إلا ودك ظهرى — أى دهنه .

* * *

هذه نماذج من التعذيب البدنى أوقعها المشركون بالمسلمين الأولين — وبخاصة الضعفاء منهم .

لقد امتنع عليهم من له عصبية فى قومه ، ومن عز على قومه تركه لهم فتموه حمية وأنفة لقرابته منهم .

والله سبحانه وتعالى هو الذى منعهم من محمد عليه السلام ، وهذا هو الذى يثبته القرآن الكريم .

يقول الله تعالى مخاطبا نبيه عليه السلام : « إنا كفيناك المستهزئين » .

ولم يقف أمر المشركين مع المسلمين عند هذا الحد ، وإنما تابعوهم فى مهجرهم الجديد بأسلوب جديد هو الحرب التى نتحدث عنها فى فقرة خاصة بها .

ونكتفى هنا . بإيراد هذه الآية القرآنية الكريمة . . .

يقول الله تعالى : « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » .

وصدق الله العظيم .

* * *

وتبقى بعد ذلك إشارة إلى عملية التفكير فى قتل النبي عليه السلام من حيث إنها ظاهرة اجتماعيه . وليست حالة خاصة به وحده عليه السلام .

وفى القرآن الكريم آيات تدل على هذه الظاهرة ، وعلى قتل اليهود بصفة خاصه لأنبيائهم . ولكنا نكتفى من ذلك بالوقوف عند آية واحدة بالذات هى : —

« إن الذين يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير حق ، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم .

أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة ، ومالهم من ناصرين »

فهذه الآية واضحة فى أن القادة الذين يتولون أمور الإصلاح الدينى ، والإصلاح الاجتماعى ، معرضون دائما للأذى ، ومعرضون لنوع كبير من الأذى هو القتل .

ويقول صاحب المنار إن المقصود بالآية هم اليهود خاصة من حيث إنه قد نسب إليهم قتل زكريا ويحيى .

ويقول إن المراد بالذين يأمرون بالقسط من الناس : الحكماء .

وهذه نص عبارته : « أى الحكماء الذين يرشدون الناس إلى العدالة العامة فى كل شىء ويجعلونها روح الفضائل وقوامها .

ومرتبة هؤلاء فى الهداية والإرشاد تلى مرتبة الأنبياء ، وأثرهم فى ذلك يلى أثرهم .

إن جميع طبقات الناس تنتفع بهدى الأنبياء ، كل صنف بقدر استعداده . وأما الحكماء فلا ينتفع بهم إلا بعض الخواص المستعدين لتلقى الفلسفة . . .

إن دعوة النبى على ما تختص به من التأييد الإلهى وتأثير روح الوحى ، لها ثلاثة مظاهر بينها الله تعالى فى قوله : « ادع إلى سبيل ربك : —

بالحكمة .

والموعظة الحسنة .

وجادلهم بالتي هي أحسن . »

فالحكمة ، مايدعى به العقلاء وأهل النظر من : البراهين والحجج .

والموعظة ، مايدعى به العوام والسذج .

والجدل بالتي هي أحسن للمتوسطين الذين لم يرتقوا إلى الاستعداد لطلب الحكمة ، ولاينقادون إلى الموعظة بسهولة : بل يبحثون بحثا ناقصا ، فلا بد من الحسنى في مجادلتهم : ومخاطبتهم على قدر عقولهم . . .

وأما الحكماء فإن لهم طريقة واحدة في الدعوة إلى الحق والفضيلة مبنية على طلب العدل في الأفكار والأخلاق .

وقد يكون الحكيم الذي يدعو إلى ذلك متدينا ، ويجرى في الإقناع بالدين على الطريقة المذكورة آنفا .

وقد يكون غير متدين ، وهو مع ذلك يدعو إلى القسط والعدل من طريق العقل بحسب ماوصل إليه علمه — مع الصدق والإخلاص . . .

والإقدام على قتل هؤلاء دليل على غمط العقل ، ومقت العدل . .

وأقبح بذلك جرما .

وكفى به إثما »

٣

الهجرة أو اللجوء السياسى : —

كانت الهجرة هى الوسيلة الوحيدة التي اعتمد عليها محمد عليه السلام فى مواجهة الذين تآمروا على قتله من بنى قومه من المشركين . وكانت هذه الهجرة بتدبير من المولى سبحانه وتعالى لينتهى مكر قريش قبل أن يحقق غايته . وهذا هو الذى ترشد إليه الفقرة التالية من الآية التى أشرنا إليها من قبل : —

« ويمكرون ، ويمكر الله ، والله خير الماكرين »

ولم تكن هجرة محمد عليه السلام إلى المدينة هى الأولى من نوعها ، كما لم تكن هى الأخيرة ، فقد سبقتها هجرات وتلتها هجرات . سبقتها هجرات المسلمين الأولين إلى الحبشة . وتلتها هجرات المسلمين الذين لحقوا بالنبى عليه السلام بالمدينة بعد أن اتخذها مستقراً ومقاما .

وأسباب هذه الهجرات أو البواعث عليها لم تكن واحدة وإن تكن متتالية ومتتابعة، بحكم المراحل التاريخية التى تمر بها الدعوة.

كانت هجرات المسلمين الأولين فراراً من الأذى والعنت الذى يلحق بهم من المشركين ، فقد كان المشركون يذيقونهم من العذاب ضروبا وألوانا ، ومن الاضطهاد صنوفا وأنواعا .

وكانت هجرة النبى عليه السلام إلى المدينة بوحى من الله سبحانه وتعالى ، فلم تكن فرارا من القتل فحسب وإنما كانت لاتخاذ المدينة المنورة مركزا للدعوة الإسلامية، ومنطلقا للثوار الذى يبشرون وينذرون ويحدثون تغييرات جذرية فى المجتمعات العربية .

وكانت الهجرات التى تلت هجرة النبى عليه السلام إلى المدينة بسبب إمداد

القوى البشرية المتركزة فى المدينة بفيض من الثائرين القادرين على إعزاز الدين ، وتقوية المسلمين ، واسترداد حقوق المهاجرين الأولين من القرشيين الذين اضطهدوهم وأخرجوهم .

وهذا السبب الأخيرهو الذى جعل الهجرة واجباً دينيا عند من لا يستطيع ممارسة الحياة اليومية على أساس من عقيدته الدينية .

وقبل أن نعرض عليك موقف القرآن من الهجرة والمهاجرين نشير إلى أن هذا الموقف يشبه فى جملته وتفصيله المواقف التى تضطر الناس إلى اللجوء السياسى ، والتى بسبب منها تقررت حقوق دولية تعرف بحقوق اللاجئين السياسيين .

إن المهاجرين قوم فرّوا من وجه السلطة بسبب ماتنزله السلطة بهم من أذى واضطهاد . أذى ينالهم بسبب عقيدتهم وآرائهم التى يخالفون فيها معتقدات السلطة وآرائها وأفكارها .

واللاجئون السياسيون ليسوا إلا فئة من الناس تضطهد بسبب أفكارها وآرائها التى تعارض بها السلطة ، أو تطالب فيها بغايات وطنية أو قومية معينة .

إن الموقف فى حالات المهاجرين واللاجئين لايحتمل أكثر من واحد أو أكثر من الأمور التالية : —

١ — الانصراف عن التفكير فى القضايا العامة طلبا للعافية والسلامة .

٢ — الصمت الظاهرى ، والعمل فى الخفاء ، وإنشاء الشعب السرية التى تنشر الأفكار والآراء بدون إذن السلطة .

٣ — الهجرة أو اللجوء السياسى حين يعرف الثائرون أو المخالفون للسلطة ، وتعمل السلطة على اضطهادهم ووقوع الأذى الذى لايحتمل بهم .

٤ — تحمُّل السلطة للآراء المخالفة ، وتقديرها للحرية الفكرية ، وإذنها للنقد البناء ، وتجاوبها إلى حد ما مع الثائرين .

* * *

وموقف القرآن من الهجرة ، أو من قضية اللجوء السياسى باستعمال العصر الحديث يمكن تلخيصها على الوجه التالى : —

فأولا : لهم منزلة خاصة بهم عند الله تعالى . منزلة يفضلون بها غيرهم فى الدنيا، وفى الآخره .

يقول الله تعالى : « فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم ، وأوذوا فى سبيلى ، وقاتلوا وقتلوا ، لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار — ثوابا من عند الله ، والله عنده حسن الثواب » .

ويقول : « والذين هاجروا فى الله من بعد ماظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة . ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون »

وهذه المنزلة على هذا الأساس تعتبر من الحوافز التى تحبب للناس الهجرة فى سبيل المبدأ والعقيدة .

وثانيا : إن الهجرة ضرورة من ضرورات الحياة الفكرية والاعتقادية حين تكون فى مقابلة الذل والاستضعاف .

يقول الله تعالى : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم

قالوا : فيم كنتم ؟

قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض .

قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟

فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً ، إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفوا غفورا .

ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة .

ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله — وكان الله غفوراً رحيما »

ويعلق الأستاذ الإمام على هذه الآيات تعليقات نختار من بينها مايكفى فى توضيحها .

قال : هذه الآيات فى الهجرة نزلت فى سياق أحكام القتال ، لأن بلاد العرب كانت فى ذلك العهد قسمين : —

دار هجرة المسلمين ومأمنهم .

ودار الشرك والحرب .

وكان غير المسلم فى دار الإسلام حرا فى دينه لايفتن عنه ، وحرا فى نفسه لايمنع أن يسافر حيث شاء . . .

وأما المسلم فى دار الشرك فكان مضطهدا فى دينه يفتن ويعذب لأجله ، ويمنع من الهجرة إن كان مستضعفا — لا قوة ، ولا أولياء يحمونه .

وكانت الهجرة لأجل هذا واجبة على كل من أسلم ليكون حرا فى دينه ، آمنا فى نفسه . وليكون وليا ونصيرا للنبى عليه السلام والمؤمنين الذين كان الكفار يهاجمونهم المرة بعد المرة . وليتلقى أحكام الدين عند نزولها .

وكان كثير منهم يكتم إيمانه ويخفى إسلامه ليتمكن من الهجرة . وفى مثل هذه الحال ينقسم الناس بالطبع إلى أقسام :

منهم من ذكرنا .

ومنهم القوى الشجاع الذى يظهر إيمانه وهجرته ، وإن عرض نفسه للمقاومة .

ومنهم من يؤثر البقاء فى وطنه بين أهله لأنه لضعف إيمانه يؤثر مصلحة الدنيا التى هو فيها على الدين .

ومنهم الضعيف المستضعف الذى لايقدر على التفلت من مراقبة المشركين وظلمهم ، ولايدرى أية حيلة يعمل ولا أى طريق يسلك .

وقد بين الله فى هذه الآيات حكم من يترك الهجرة لضعف دينه وظلمه لنفسه

— مع قــدرته عليها لو أرادها . ومن يتركها لعجزه وقلة حيلته وظلم المشركين له . . .

والمعنى إن الذين تتوفاهم الملائكة بقبض أرواحهم بعد انتهاء آجالهم حالة كونهم ظالمى أنفسهم بعدم إقامة دينهم وعدم نصره وتأييده ، وبرضاهم بالإقامة فى الذل والظلم حيث لاحرية لهم فى أعمالهم الدينية ، تقول لهم الملائكة بعد توفيها لهم : فيم كنتم ؟

قالوا كنا مستضعفين فى الأرض — هو اعتذار عن تقصيرهم الذى وُبِّخوا عليه — أى أننا لم نستطع أن تكون فى شىء يعتد به من أمر ديننا لاستضعاف الكفار لنا .

رد الملائكة عليهم هذا العذر بقولهم: « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » وتحرروا أنفسكم من رق الذل الذى لايليق بالمؤمنين ، ولاهو من شأنهم ؟

أى إن استضعاف القوم لكم لم يكن هو المانع لكم من الإقامة معهم فى دارهم، بل كنتم قادرين على الخروج منها مهاجرين إلى حيث تكونون فى حرية من أمر دينكم ، ولم تفعلوا . . »

انتهى كلام الأستاذ الإمام .

وثالثا : — أن العلاقة بين المهاجرين والمواطنين فى البلاد التى يهاجر إليها علاقة قوية متينة — أو هكذا يجب أن تكون .

يقول الله تعالى : « إن الذين آمنوا ، وهاجروا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، والذين آووا ونصروا — أولئك بعضهم أولياء بعض .

والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم فى شىء حتى يهاجروا — وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق . .

والذين كفروا بعضهم أولياء بعض . . .

والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله ، والذين آووا ونصروا ، أولئك هم المومنون حقا . . .

والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم ، فأولئك منكم . . . »

فالذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم هم الصنف الأول ، وهو الأفضل والأكمل .

والذين آووا ونصروا ، هم الصنف الثانى .

وصفهم القرآن الكريم بأنهم الذين آووا الرسول ومن هاجر إليهم — ولولا ذلك لم تحصل فائدة الهجرة ، ولم تكن الهجرة مبدأ القوة والسيادة .

والإيواء يتضمن معنى التأمين من المخافة .

وقد كانت يثرب مأوى وملجأ للمهاجرين شاركهم أهلها فى أموالهم وآثروهم على أنفسهم ، وكانوا أنصار رسول الله يقاتلون من قاتله ويعادون من عاداه .

وجعل القرآن الكريم حكم الأنصار حكم المهاجرين فى قوله : « أولئك بعضهم أولياء بعض » — أى يتولى بعضهم من أمر الآخر أفرادا أو جماعات مايتولونه من أمر أنفسهم عند الحاجة من تعاون وتناصر فى القتال ، ومايتعلق به من الغنائم ، وغير ذلك ، لأن حقوقهم ومرافقهم ومصالحهم مشتركة . . .

والذين آمنوا ولم يهاجروا . . .

هذا هو الصنف الثالث من أصناف المؤمنين وهم المقيمون فى أرض الشرك تحت سلطان المشركين وحكمهم .

وحكم هؤلاء أنه لايثبت لهم شىء من ولاية المؤمنين الذين فى دار الإسلام — إذ لاسبيل إلى نصر أولئك لهم ، ولا إلى تنفيذ هؤلاء أحكام الإسلام فيهم .

والآية حق مشترك على سبيل التبادل .

ولكن المولى سبحانه وتعالى خص من عموم الولاية المنقبة ، الشاملة لما ذكرنا من الأحكام ، شيئا واحدا . . .

« وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر »

فأثبت لهم من ولاية أهل دار الإسلام حق نصرهم على الكفار إذ قاتلوهم أو اضطهدوهم لأجل دينهم — وإن كانوا هم لا ينصرون أهل دار الإسلام بعجزهم

ثم استثنى من هذا الحكم حالة واحدة فقال تعالى : « إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق » — يعنى إنما يجب عليكم أن تنصروهم إذا استنصروكم فى الدين على الكفار الحربيين دون المعاهدين ، فهؤلاء يجب الوفاء بعهدهم لأن الإسلام لا يبيح الغدر والخيانة بنقض العهود والمواثيق .

والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم . . .

هذا هو الصنف الرابع ، وهو من تأخر إيمانهم وهجرتهم عن الهجرة الأولى .

وحكمهم أنهم يلتحقون بالمهاجرين الأولين ، والأنصار ، فيما تقدم بيانه من الأحكام .

ورابعا : — أن لهم حقا فى مال الدولة يستعينون به على الجهاد ، وفى المعيشة اليومية للحياة .

وهذا الحق له أثره المباشر فى العدالة الاجتماعية من حيث إنه الوسيلة التى تحد من الغنى الفاحش والثراء العظيم . إنه يمنع تراكم الأموال عند الأغنياء .

يقول الله تعالى : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى : فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم .

وما آتاكم الرسول فخذوه .

وما نهاكم عنه فانتهوا .

واتقوا الله إن الله شديد العقاب ،

للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون .

والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون . . . »

وصدق الله العظيم

* * *

وتبقى بعد ذلك كلمة عن الأسباب التى من أجلها شرعت الهجرة ، كما ذكرها صاحب تفسير المنار .

قال رحمه الله : إن الهجرة شرعت لثلاثة أسباب أو حكم . اثنان منها يتعلقان بالأفراد والثالث يتعلق بالجماعة .

أما الأول فهو : أنه لا يجوز لمسلم أن يقيم فى بلد يكون فيها مضطهدا فى حريته الدينية والشخصية .

فكل مسلم يكون فى مكان يفتن فيه عن دينه أو يكون ممنوعا من إقامته فيه كما يعتقد ، يجب عليه أن يهاجر منه إلى حيث يكون حرا فى تصرفه واقامة دينه — وإلا جاز له الإقامة .

وأما الثانى فهو : تلقى الدين والتفقه فيه .

وكان ذلك فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم خاصا بالزمن الذى كان فيه إرسال الدعاة والمرشدين من قبله صلى الله عليه وسلم متعذرا لقوة المشركين على المسلمين وصدهم إياهم عن ذلك .

ولا يجوز لمن أسلم فى مكان ليس فيه علماء يعرفون أحكام الدين أن يقيم فيه، بل يجب أن يهاجر إلى حيث يتلقى الدين والعلم .

وأما الثالث المتعلق بجماعة المسلمين فهو : أنه يجب على مجموع المسلمين أن تكون لهم جماعة أو دولة قوية تنشر دعوة الإسلام ، وتقيم أحكامه وحدوده ، وتحفظ بيضته ، وتحمى دعاته وأهله من بغى الباغين ، وعدوان العادين ، وظلم الظالمين . . .

فإذا كانت هذه الجماعة أو الدولة أو الحكومة ضعيفة يخشى عليها من إغارة الأعداء ، وجب على المسلمين أينما كانوا وحيثما حلوا أن يشدوا أزرها حتى تقوى وتقوم بما يجب عليها .

فإذا توقف ذلك على هجرة البعيد عنها إليها ، وجب عليه ذلك وجوبا قطعيا لاهوادة فيه — وإلا كان راضيا بضعفها، ومعينا لأعداء الإسلام على إبطال دعوته وخفض كلمته .

كانت هذه الأسباب الثلاثة متحققة قبل فتح مكة فلما فتحت قوى الإسلام على الشرك فى جزيرة العرب كلها وصار الناس يدخلون فى دين الله أفواجا والنبى صلى الله عليه وسلم يرسل إلى كل جهة من يعلم أهلها شرائع الإسلام ، فزال سبب وجوب الهجرة لأجل الأمن من الفتنة والقدرة على إقامة الدين .

وسبب وجوبها لأجل التفقه فى الدين — إلا نادرا .

وسبب وجوبها لتأييد جماعة المسلمين وتقويتهم ونصرهم على من كان يحاربهم لأجل دينهم . ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : لاهجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا .

رواه أحمد والشيخان وأكثر أصحاب السنن .

ومما لامجال للخلاف فيه أن الهجرة تجب دائما بأحد الأسباب الثلاثة ، كما يجب السفر لأجل الجهاد إذا تحقق سببه .

وأقوى موجبات الجهاد اعتداء الكفار على بلاد المسلمين واستيلاؤهم عليها .

القسم الثانى

وسائل أهل الكتاب والمشركين

كان بنو إسرائيل ، ولا يزالون ، ممن يجيدون الدعاية عن أنفسهم — يفعلون ذلك بالحق وبالباطل ، ويعلنون فى الناس من المناقب والخصائص ما يميزهم عن غيرهم ، وما يجعل لهم مكانة ممتازة عند الآخرين .

وهذا الصنيع الذى يقوم به بنو إسرائيل هو الذى من أجله أسماهم القرآن الكريم بالذين يزكون أنفسهم .

يقول الله تعالى : « ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكى من يشاء ولا يظلمون فتيلا .

أنظر كيف يفترون على الله الكذب ، وكفى به إثما مبينا »

وكان بنو إسرائيل يزكون أنفسهم لدى العرب الجاهليين من قبل اختيار محمد بن عبدالله عليه السلام نبياً رسولا .

كانوا يقولون للعرب : نحن أبناء الله وأحباؤه .

وكانوا يقولون لهم : لن تمسنا النار إلا أياما معدودات .

وفعلت هذه الأقوال ومثيلاتها فى أنفس العرب فعلها ، وتركت فى النفوس آثارها .

ويحكى القرآن الكريم أن العرب الجاهليين قد تمنوا على الله تعالى أن يبعث فيهم رسولا ، وأن ينزل عليهم كتابا ، وأنه حين يفعل يجدهم أكثر من هؤلاء الذين يزكون أنفسهم هداية من الله وطاعة لله .

يقول الله تعالى : « وأقسموا بالله جهد إيمانهم لئن جاءهم نذير ليكون أهدى من إحدى الأمم »

ويقول : « وهذا كتاب أنزلناه مباركاً فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون .

أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراسته لغافلين .

أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الـكتاب لـكنا أهدى منهم ...

فقد جاء كم بينة من ربـكم ، وهدى ورحمة » .

استقر فى أنفس العرب الجاهليين أن بنى إسرائيل هم أهل الـكتاب الأول ، وأنهم يدركون من قضايا الدين وقضايا الأنبياء مالا يدرك غيرهم ، وأنهم الذين يستطيعون التعرف على الصادق وعلى الـكاذب من النبيين أو المتنبئين ..

وحين نزل القرآن الـكريم ، وحين مضى محمـد بن عبدالله عليه السلام فى دعوته ، وحين قامت المعارضة المـكية فى وجهه ، نزلت الآيات القرآنية تؤيد موقفه اعتماداً على هذه الظاهرة الثقافية .

يقول الله تعالى : « وأنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتـكون من المنذرين بلسان عربى مبين .

وأنه لفى زبر الأولين .

أو لهم يـكن آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل »

ويقول الله تعالى : « قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به ، وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله ، فآمن واستـكبرتم .. »

ويقول : « فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الـكتاب من قبلك .

لقد جاءك الحق من ربك ، فلا تـكونن من الممترين »

* * *

لم يحدث خلاف بين محمد بن عبدالله عليه السلام وأهل الـكتاب طوال العهد المـكى ، ويرجع ذلك فيما نرى إلى سببين هامين : —

الأول منهما : — أن معارضة المـكيين لمحمد عليه السلام كانت قوية ، وكان بنو

إسرائيل يتوقعون من قوتها القضاء على الدعوة الجديدة ، وعلى محمد بن عبد الله نفسه .

الثانى : — أن وجود محمد عليه السلام فى مكة يجعل خطره ، مع موقفه الضعيف ، على أهل الكتاب خطراً ضئيلا يكتفى فيه ، بالتعرف على الأخبار ، وعلى مسيرة هذه الدعوة الجديدة ، وهذا الداعى الجديد ، والعقبات الموضوعة فى الطريق :.

كان ذلك أثناء مقامه عليه السلام فى مكه .

أما حين هاجر إلى المدينة واتخذ منها مستقراً ومقاما ، فقد بدأ عمله بتحديد العلاقات مع الذين يساكنونه فى المدينة أو يعيشون على مقربة منها . وكان ذلك منه رأياً صائباً ، فلم يكن يحق له أن يباشر عمله الثورى الذى يستهدف تغييرات جذريه فى معتقدات الناس ، وفى قيمهم السلوكية ، قبل أن يتعرف على التركيب الثقافى والاجتماعى لكل منهم ، وقبل أن يحدد علاقته مع كل فئة من الناس أو مجموعة منهم .

تحددت علاقاته بالذين يساكنونه المدينة ، والذين يعيشون من حولها ، على على الوجه التالى :

أولا : — جماعة هى معه قلباً وقالباً . وأولئك هم الذين آمنوا به وصدقوه ، والذين عاهدوه على أن يكونوا معه فى كل حال ، وأن يمنعوه مما يمنعوا منه أنفسهم وأهليهم . فهم يصادقون من يصادقه ويعادون من يعاديه :

وهذه الجماعة هى التى عرفت فى التاريخ الإسلامى بإسم « الأنصار » لأنهم آووا النبي على السلام ونصروه .

ثانياً : — جماعة صالحوه ووادعوه على : ألا يحاربوه ، وألا يظاهروا عليه ، وألا يعينوا عليه عدوه أو يوالوه ...

وكان الشرط : أن يبقوا على دينهم ، وهم فى الوقت ذاته آمنون على دماءهم وأموالهم .

وهؤلاء هم أهل الكتاب ، وكانت الكثرة الكاثرة منهم من اليهود .

ثالثاً : — جماعة وقفوا منه موقف العدو منذ اللحظات الأولى ، وقد كانوا استمراراً للقوى المضادة فى مكة .

وهؤلاء هم جماعة المشركين الذين يعبدون الأوثان ، وينكرون البعث ، ويقولون بتعدد الآلهة .

رابعاً : — جماعة تاركوه فلم يصالحوه ، ولم يحاربوه ، وانتظروا ما يئول إليه أمره وأمر أعداءه .

ومن هذه الجماعة من :

(ا) كان يحب فى الباطن انتصار محمد بن عبدالله عليه السلام على أعداءه.

(ب) ومن كان يحب انتصار أعداءه عليه والقضاء عليه وعلى دينه .

(حـ) ومن دخل معه فى الظاهر وهو مع عدوه فى الباطن ، يبتغى من وراء ذلك أن يأمن شر الفريقين : محمد عليه السلام ، والقوى المضادة الواضحة العدواة .

وهؤلاء هم الذين يعرفون فى القرآن الكريم باسم « المنافقين » .

ويقول الله تعالى فيهم « بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليماً الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين .

يبتغون عندهم العزة ؟

فإن العزة لله جميعاً »

وكان على محمد عليه السلام أن يعامل كل جماعة من هذه الجماعات حسب التبدلات التى تقع فى مواقفها منه ، وحسبما يأمره به المولى سبحانه وتعالى .

ولعلنا نعرف جميعاً أن هذه التبدلات التى وقعت قد انتهت جميعاً إلى أن تكون فى صالحه : وكان ذلك بفضل الله الذى وعد فى كتابه العزيز بالنصر .

« إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الإشهاد »

* * *

أحس اليهود بخطر محمد عليه السلام عندما أخذ المسلمون يهاجرون إليه من مكة فيقوى بهم ويعتز ، وعندما أخذ المدنيون يدخلون فى الدين الجديد ، ويعاهدونه على مؤاخاة المهاجرين إليه ، والوقوف إلى جانبه وجانبهم .

وأخذ اليهود فى الكيد له متحللين من تلك العهود التى صالحوه عليها ، ولم يكن ذلك منهم إلا إستجابة لخلقية لهم تقوم دائما على عدم الوفاء بالعهود .

يقول الله تعالى : « وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل : لا تعبدون إلا الله ، وبالوالدين إحساناً وذى القربى واليتامى والمساكين ، وقولوا للناس حسناً ، وأقيموا والصلاة آتوا الزكاة .

ثم توليتم إلا قليلا منكم ، وأنتم معرضون .

وإذ أخذنا .يثاقكم : لا تسفكون دماءكم ، ولا تخرجون أنفسكم من دياركم . . .

ثم أقررتم وأنتم تشهدون .

ثم أنتم هؤلاء : تقتلون أنفسكم ، وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان ، وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم أخراجهم .

أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟

فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب .

وما الله بغافل عما تعملون » .

ويقول : « أو كلما عاهدوا عهـــداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون » .

وتبدو مظاهر هذا التحلل من العهود فى استثمار أهل الكتاب للوسائل التالية :

١

التشكيك فى أمر محمد عليه السلام .

من المناقب التى كان بنو إسرائيل يعدونها لأنبيائهم ، أنهم يبشرون بالأنبياء الذين يجيئون من بعدهم . فالنبى منهم يبشر بالنبى الذى يجيىء من بعده ليتمم الناموس .

وتدور هذه البشارات حول بعض الصفات التى تعرف بالنبى ، وبعض الخصائص التى تميزه عن غيره .

والقرآن الكريم يشير إلى هذه البشارات فى أكثر من آية ، ويؤكد بهذه البشارات نبوة الأنبياء بصفة عامة ونبوة محمد بن عبد الله عليه السلام بصفة خاصة.

يقول الله تعالى : « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمه ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم ، لتؤمنن به ، ولتنصرنه .

قال : أأقررتم ، وأخذتم على ذلكم إصرى ؟

قالوا : أقررنا .

قال : فاشهدوا ، وأنا معكم من الشاهدين .

فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون . أفغير دين الله يبغون ؟

ويقول : « وإذ قال عيسى بن مريم : يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم ، مصدقا لما بين يدى من التوراة ، ومبشراً برسول يأتى من بعدى إسمه أحمد . فلما جاءهم بالبينات قالوا : هذا سحر مبين » .

ويقول : « واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة ، إنا هدنا إليك .

قال : عذابى أصيب به من أشاء ، ورحمتى وسعت كل شىء ، فسأكتبها

للذين يتقون ويؤتون الزكاة ، والذين هم بآياتنا يؤمنون .

الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم . . .

فالذين آمنوا به ، وعزروه ، ونصروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ... » .

والبشارة التى يبشر بها النبى بمن يجىء بعده ، وتصديق النبى للأنبياء الذين جاءوا من قبله ، يؤكدان معنى الاستمرار ومعنى التغير فى الأديان المتلاحقة أو المتتابعة .

والاستمرار يتركز فى عناصر أصيله ثلاثة :

الأول منها : — الايمان بالله — الله الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

الثانى : — الإيمان بالبعث وما يتبع البعث من حساب ، وما يتبع الحساب من ثواب أو عقاب .

يوم لاتجزى نفس عن نفس شيئاً ، والأمر يومئذ لله .

الثالث : — العمل الصالح .

فمن عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد .

وما حدث لهذه العناصر الثلاثة وأخرجها من صيغها التى ذكرنا،اعتبر إنحرافاً عن المسيرة السليمة للدين القويم .

وهذا الاستمرار هو الذى تشير إليه الآية القرآنية الكريمة : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى

وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » .

والتغير الذى نشير إليه هو ذلك الذى يلحق ببعض المحرمات الدينية وبعض العبادات التى يتوجه بها إلى الخالق جل وعلا .

هذا إلى جانب التشريعات المرتبطة بحياة المجتمعات وهى بطبيعتها متغيرة .

وهذا التغير هو الذى تشير إليه القرآنية الكريمة : « لكل جعلنا منكم شرعه ومنها جاء » .

وسبق لنا أن عرضنا لهاتين المسألتين ، وذكرنا موقف المفسرين ، وموقف إخوان الصفا منهما .

* * *

واستمرار العناصر الأصيلة الثلاثة فى كل دين من الأديان السابقة على الاسلام، وفى دعوة كل نبى من الأنبياء الذين جاءوا قبل محمد عليه السلام،هو الذى من أجله كان هذا التوجيه لمحمد عليه السلام .

لقد طلب القرآن الكريم منه أن يعلن فى الناس هذا الإعلان :

« قل : آمنا بالله ، وما أنزل علينا ، وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم ...

لا نفرق بين أحد منهم .

ونحن له مسلمون .. » .

ونرى نحن ، من هذه التوجيهات ، أن محمد بن عبد الله عليه السلام كان يؤمن بما جاء به موسى ، وبما جاء به عيسى ، وأنه لم يقف من دعوتهما موقف العداء . إنه أنما جاء مصدقاً لما معهما .

يقول الله تعالى : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم . نزل عليك الكتاب بالحق

مصدقاً لما بين يديه ، وأنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس . وأنزل الفرقان ... » .

وإن الذين وقفوا موقف العداء إنما هم بنو إسرائيل . ولم يكن عداؤهم بسبب المسائل الدينية بقدر ما كان بسبب الرياسات الدينية والنفوذ الشخصي والمكانة الاجتماعية ...

لقد كان محمد بن عبد الله عليه السلام ، والذين معه ، يطمعون فى وقوف أهل الكتاب إلى جانبهم — ولكن ذلك لم يحدث .

والقرآن الكريم يكشف للنبي عليه السلام وللمؤمنين البواعث الحقيقة فى عدم تحقيق هذا الذى يطمعون فيه .

يقول الله تعالى : «أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون .

وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم ، أفلا تعقلون ؟

أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون » .

فهم أولا : يحرفون الكلام بعد أن يعرفوا مضمونه ، ويقفوا على حقيقة المراد منه .

وهم ثانياً : يتصارحون فى أنه لا يحق لفريق منهم أن يتحدث إلى المسلمين فى الأمور التى يتخذ منها المسلمون الحجة والدليل على أن محمداً مرسل من ربه حقاً .

أى أنهم يتواصون بكتمان الحقيقة التى تثبت نبوة محمد بن عبد الله عليه السلام .

والتحريف الذى يلجأون إليه فى أمر محمد عليه السلام أمر قديم فيهم

يقومون به منــذ زمن موسى عليه السلام . فمن شأنهم أنهم يحرفون الـكلم عن مواضعه .

وتحريف الـكلم يطلق على معنيين .

الأول منهما : — تأويـل القول بحمله على غـير معناه الذى وضـع له — وهو المتبادر — لإنههو الذى حملهم على مجاحدة النبى عليه السلام وإنـكار نبوته .

وهم يعلمون ، من حيث أنهم أولوا ، ولايزالون يؤولون البشاوات به حتى اليوم .

وقد كانوا يؤولون ماورد فى المسيح عليه السلام ، ، ويحملونه على شخص آخر لايزالون ينتظرونه .

والثانى منهما : — أخذ كلمة أو طائفة من الـكلم من موضع من الـكتاب ووضعها فى موضع آخر .

وقد حصل مثل هذا التشويش فى كتبهم : خلطوا فيما يؤثر عن موسى عليه السلام بما كتب بعده بزمن طويل .

وكذلك وقع فى كلام غيره من الأنبياء .

وقد أعـترف بهـذا الذين درسوا التوراة من علماء الغرب ولا سيما الألمـان .

وقد كان ذلك منهم بقصد الإصلاح .

وهذا النوع من التحريف لايضر المسلمين ، ولم يـكن هو الحامل على إنـكار نبوة محمد عليه السلام

* * *

والـكتمان الذى يلجأون إليه فى أمر محمد عليه السلام للتشكيك فى نبوته يقوم على واحدة من إثنتين : —

الأولى : — حذف أوصافه ، والبشارات به ، من كتبهم .

والثانية : — حمل الأوصاف التي وردت فيه ، والدلائل التي تثبت نبوته ، على غيره — حتى إذا سئلوا هل لهذا النبي ذكر في كتبكم ، قالوا : لا

وقد عاتبهم القرآن الكريم على ذلك في أكثر من آية .

يقول الله تعالى : « ياأهل الكتاب : لم تلبسون الحق بالباطل ، وتكتمون الحق ، وأنتم تعلمون »

ويقول : « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب ، أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون »

ويقول صاحب المنار عند تفسيره لهذه الآية : « كان علماء أهل الكتاب يكتمون بعض ما في كتبهم : بعدم ذكر نصوصه للناس عند الحاجة إليه أو السؤال عنه .

كالبشارات بالنبي صلى الله عليه وسلم وصفاته ...

والكتمان هنا عبارة عن : إنكارهم أخبار أنبيائهم عنه وبشاراتهم به صلى الله عليه وسلم ، وجعلهم ذلك حجة سلبية على إنكار نبوته .

كانوا يقولون : إن الأنبياء يبشر بعضهم ببعض ولم يبشروا بأن سيبعث نبي من العرب أبناء إسماعيل ، ولم يجيء بيان في كتبهم عن دينه وكتابه ...

فالله سبحانه وتعالى يقول : إنهم يكتمون ما أنزل الله في شأن محمد عليه السلام من بعد ما بينه لهم في الكتاب ... »

* * *

وكان من وسائلهم في التشكيك — إلى جانب كتمان بعض النصوص ،

وتحريف بعضها الآخر ــ ذكر بعض الأسباب التى تدفعهم إلى عدم الإيمان به نبياً مرسلا . يفعلون ذلك هم والمشركون على حد سواء .

ويحكى القرآن عنهم ذلك فى سبيل الرد عليهم .

يقول الله تعالى : « الذين قالوا : إن الله عهد إلينا ألا نؤمن برسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار .

قل : قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم ، فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين ؟ »

ويقول : « فلما جاءهم الحق من عندنا .

قالوا : لولا أوتى مثل ماأوتى موسى .

أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل ؟

قالوا : سحران تظاهراً ، وقالوا : إنا بكل كافرون .

قل : فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه بأن كنتم صادقين .

فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ..

ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ، إن الله لا يهدى القوم الظالمين .. »

ويقول : « وإذا قيل لهم : آمنوا بما أنزل الله .

قالوا : نؤمن بما أنزل علينا .

ويكفرون بما وراءه ، وهو الحق مصدقاً لما معهم »

وواضح أنهم يقصدون من وراء ذلك كله إلى القول بأنه لم يثبت عندهم أن محمداً مرسل من ربه حقاً .

إنه لو كان رسولا من الله لأوتى مثل ما أوتى موسى ، ولجاءهم بقربان تأكله النار .

ولقد يسر لهم هذا الموقف أن يطالبوا إلى العرب الدخول فى إحدى الديانتين اليهودية والنصرانية .

ويحكى القرآن ذلك عنهم فى قوله تعالى : « وقالوا : كونوا هودا أو نصارى تهتدوا .

قل : بل ملة إبراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين »

٢

الكيد للدعوة من الداخل

كان من وسائل أهل الكتاب إعلان الدخول فى الإسلام ثم إعلان الخروج منه بعد فترة زمنية لإيهام العرب عامه والمسلمين منهم بصفة خاصة، بأن هذا الدين الذى يدينون به ليس بشىء، وأن محمد بن عبد الله ليس بنبى .

وكان يقابل ذلك من النبى عليه السلام، ومن المسلمين، حرص شديد على إيمان أهل الكتاب، وكانوا يرون أن حدوث هذا الأمر ليس ببعيد المنال .

ويحكى القرآن الكريم صوراً من عمل الأولين وأطماع الآخرين، ونرى من الأفضل إيراد هذا الذى يحكيه القرآن .

ونبدأ من ذلك بما حكاه القرآن عن حرص النبى وحرص المسلمين .

يقول الله تعالى مخاطباً النبى والمسلمين : « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم، وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه . وهم يعلمون .

وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذ خلا بعضهم إلى بعض قالوا: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون ؟

أو لا يعلمون أن الله يعلم مايسرون وما يعلنون ؟ »

ويقول الأستاذ الإمام عند تفسيره للآيات ما يلى :—

كان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم يرون أن أولى

الناس بالإيمان ، وأقربهم منه ، اليهود . لأنهم موحدون ، ومصدقون بالوحى وبالبعث فى الجملة ...

وكان هذا الطمع فى إيمانهم مبنياً على وجه نظرى معقول لولا أنهم إكتفوا بجعل الدين رابطة جنسية ولم يجعلوه هداية روحية . ولذلك كانوا يتصرفون فيه باختلاف المذاهب والآراء ، ويحرفون كلمه عن مواضعها بحسب الأهواء .

وما أعذر الله المسلمين فى طمعهم هذا إلا بعد ماقص عليهم من نبأ بنى إسرائيل — الذين كانوا على عهد التشريع وشاهدوا الآيات — ماعلم به أنهم فى المجاحدة والمعاندة على عرق واسع ، ونحيزة موروثة لايكفى فى زلزالتها كون القرآن مبيناً فى نفسه لايتطرق إليه ريب ، ولا يتسرب إليه شك ...

وكان من الظاهر أن يكون الخطاب للنبى صلى الله علية وسلم خاصة ، ولكن خاطب المؤمنين معه لأنهم كانوا يشاركونه فى الألم من إيذاءهم والطمع بهدايتهم ...

ولأن طمع بعض المؤمنين كان يحملهم على الإنبساط معهم فى المعاشرة إلى حد الإفضاء إليهم ببعض الشئون الملية المحضه ، وإتخاذهم بطانة . وكان يعقب ذلك من الضرر مايعقب ،حتى نهاهم الله تعالى عن إتخاذ البطانة من دون المؤمنين ...

أما الحجة التى وصلها بإنكار الطمع بإيمانهم للدلالة على أنه طمع فى غير مطمع فهى ، التحريف — تحريف كلام الله ممن سمعه منهم ...

فدل هذا ، وما سبقه ،على أن القسوة المانعة من التأثروالتدبر ، ومكابرةالحق، كان شنشنة قديمة فيهم ، ثم تأصل فصار غريزة مطبوعة .

فإعراضهم عن القرآن لا يستلزم الطعن عليه ، ولا القول بجواز تطرق شىء من الريب إليه ، فإنهم قد حرفوا ، وبدلوا ، وعاندوا ، وجاحدوا ، وهم يشاهدون الآيات الحسية ويؤخذون بالعقوبات المعاشية ، فكيف يستنكر بعد هذا أن يعرضوا عن دين دلائله عقلية ، وآيته الكبرى معنوية ... »

ونشى بما يستهدفه أهل الكتاب ، والمشركون ، من المؤمنين .

يقول الله تعالى : « ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم ، وما يضلون إلا أنفسهم ، ومايشعرون . . .

ياأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون .

ياأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل ، وتكتمون الحق وأنتم تعلمون .

وقالت طائفة من أهل الكتاب : آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار ، وكفروا آخره ، لعلهم يرجعون .

ولاتؤمنوا إلا لمن تبع دينكم . .

قل : إن هدى الله هو الهدى .

أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، أو يحاجوكم عندربكم

قل : إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم . يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم . . »

ويقول الاستاذ الامام معلقا على هذه الآيات مايلى :

هذا النوع الذى تحكيه الآية من صد اليهود عن الإسلام ، مبنى على قاعدة طبيعية فى البشر وهى ، أن من علامة الحق ألا يرجع عنه من يعرفه . . .

وقد أرادت هذه الطائفه أن تغش الناس من هذه الناحيه ليقولوا : لولا أن ظهر لهؤلاء بطلان الاسلام لما رجعوا عنه بعد أن دخلوا فيه ، واطلعوا على باطنه وخوافيه ، إذ لايعقل أن يترك الانسان الحق بعد معرفته ، ويرغب عنه بعد الرغبة فيه ، بغير سبب .

فإن قيل : إن بعض الناس قد ارتدوا عن الاسلام بعد الدخول فيه رغبة ، لاحيلة ومكيده كما كاد هؤلاء . فماذا تقول فى هولاء ؟

والجواب على هذا يرجع إلى قاعدة أخرى وهى ، أن بعض الناس قد يدخل

فى الشىء رغبة فيه لاعتقاده أن فيه منفعة له ، لا لاعتقاده أنه حق فى نفسه . وذا بدا له فى ذلك ما لم يكن يحتسب ، وخاب ظنـــه فى المنفعه ، فإنه يترك ذلك الشىء :

ويظهر أن النبى صلى الله عليه وسلم ماأمر بقتل المرتد إلا لتخويف أولئك الذين كانوا يدبرون المكائد لإرجاع الناس عن الاسلام بالتشكيك فيه ، لأن مثل هذه المكايد إذا لم يكن لها أثر فى نفوس الأقوياء من الصحابة الذين عرفوا الحق ووصلوا فيه إلى عين اليقين ، فإنها قد تخدع الضعفاء الذين يدخلون فى الاسلام لتفضيله على الوثنية فى الجملة — أى قبل أن تطمئن قلوبهم بالإيمان .

كالذين كانوا يعرفون بالمؤلفة قلوبهم . . »

ولا تصدقوا غير من يتبع دينكم بأن أحدا يؤتى مثل ماأوتيتم أو يقيموا عليكم الحجة عند ربكم ـ أى لاتقولوا أمام العرب مثلا بأنكم تعتقدون أنه يجوز أن يبعث نبى من غير إسرائيل . .

وهذا مبنى على أنهم كانوا ينكرون جواز بعثة نبى من العرب بألسنتهم —مكابرة وعنادا للنبى صلى الله عليه وسلم، لااعتقادا .

وأنهم كانوا لايصرحون باعتقادهم المستكن فى أنفسهم إلا لمن امنوا له من قومهم لما هم عليه من المكر والمخادعة »

والآيات الواردة فى هذا الأمر كثيرة جدا ، ونشير من بينهما إلى الآيات التاليه :

يقول الله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لايألونكم خبالا ، ودوا ماعنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم وماتخفى صدورهم أكبر . قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون .

ها أنتم أولاء تحبونهم ولايحبونكم ، وتؤمنون بالكتاب كله ، وإذا لقوكم قالوا آمنا ، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ . قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور .

إن تمسسكم حسنة تسؤهم .

وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها .

وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا .

إن الله بما يعملون محيط »

ويقول : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً

— حسدا من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق .

فاعفوا ، واصفحوا، حتى يأتى الله بأمره .

إن الله على كل شيء قدير . . . »

ويقول : « ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء

فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله . . . »

ويقول : « الذين يتربصون بكم :

فإن كان لكم فتح من الله قالوا : ألم نكن معكم ؟

وإن كان للكافرين نصيب قالوا : ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين .

فالله يحكم بينكم يوم القيامة ، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا .

إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى

يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا .

مذبذبين بين ذلك ، لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء »

ويقول : « مايود الذين كفروا من أهل الكتاب ، ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم .

والله يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم »

ويقول : « ياأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين.

وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ؟ » .

* * *

لقد حاول بنو إسرائيل ، ومعهم المشركون ، أن يفسدوا على المسلمين حياتهم الدينية بالكيد ، والوسوسه ، والذبذبه ، وكل مامن شأنه أن يرد المسلمين إلى حياتهم الأولى : حياة الشرك والوثنية — ولكن الله العلى القدير أفسد عليهم كل شيء تقريباً .

أفسد عليهم مكرهم ، وتدبيرهم .

لقد خاطب القرآن الكريم النبي عليه السلام وجماعة المسلمين بما يعينهم على بنى إسرائيل والمشركين .

لقد كان لتوجيهات القرآن الكريم من الأثر الفعال ما مكن النبي من النصر، وما ساعد على استقرار الدعوة الجديدة والتمكين لها حتى أتت ثمارها بنشر دين الله فى أرض الجزيرة وفى خارجها .

٣

المال

أدرك الفرقاء جميعا قيمة المال كقوة فى الصراع : الصراع الفكرى ، والصراع الدموى ، على حد سواء .

أدرك كل فريق قوة المال فى تحريك الصراع أولا ، وفى توجيه الصراع ثانيا ، نحو الغايات المستهدفة .

وكان كل فريق بين الفرقاء يستهدف من وراء إنفاق المال ، أو من وراء حجز المال عن الفريق الآخر ، أن ينتهى الصراع لصالحه ، فيكون الغالب وغيره المغلوب ، أو يكون المنتصر وغيره المهزوم .

استثمر المشركون المال طوال العهد المكى مستهدفين من وراء ذلك صد الناس عن سبيل الله ، وصرفهم عن هذا الدين الجديد الذى يدعو إليه محمد بن عبد الله .

واستثمره المشركون وأهل الكتاب طوال العهد المدنى مستهدفين نفس الأغراض ، وزادوا عليها غرضا جديدا استثمره اليهود عامة والمنافقون منهم بصفة خاصة، هو تعجيز الذين آمنو بمحمد عن الحصون على الأموال التى تساعدهم على الإنفاق فى سبيل الله ، ونصرة الدين الجديد .

لقد قبضوا أيديهم عن إقراض المؤمنين إلا بربا فاحش ، وأخذوا يبذرون فى نفوسهم بذور الشك من حيث أن الله لو أراد للمسلمين النصر لأغناهم ، ووسع عليهم فى الرزق .

واستثمر المال أيضاً محمد بن عبد الله عليه السلام .

استثمره طوال العهد المدنى من حيث أنه فى مكة كان اليتيم الفقير الذى أشتغل أجيرا وراعيا للغنم . ولم يكن الذين آمنوا به أول الأمر من الأغنياء وإنما كانوا من الفقراء . كانوا من الذين لايملكون أكثر من قوت يومهم .

واستثمره محمد بن عبدالله عليه السلام لأكثر من غاية . فلم يقف عند حدود الصراع الفكرى ، أوالصراع الدموى، وإنما تجاوزه إلى غيره من تنمية للمجتمع، وإحداث تغييرات جذرية فيه . تغييرات فى شتى مجالات الحياة ـــ وبخاصة المجال الدينى والمجال الاجتماعى .

ولقد كانت العدالة الاجتماعية غاية عظيمة يحققها محمد عليه السلام عن طريق المال .

ولكثرة الغايات التى يستهدفها محمد عايه السلام كان هو أكثر الفرقاء إحتياجا إلى المال .

اقد كان المشركون من أهل مكة من الأغنيـاء . من الطبقة الرأسمالية التى حققت ثراء فاحشا عن طريق التجارة ، ولم تكن هذه الطبقة تشعر بحاجه إلى الجد ، والكد ، من أجل حصولها على المال الذى تنفقه فى صد الناس عن سبيل الله .

وكان المشركون فى مكة من العقبات الكبرى فى سبيل الإسلام . سبيل هذه الدعوة الجديده التى تعيد تنظيم العلاقات فى المجتمع المكى من جديد على أساس جديد . وحافظ هؤلاء الأغنياء على أوضـاعهم التى تحقق لهم مكانة ممتازة فى مجتمعهم هذا .

ولقد صور لنا القرآن الكريم موقفهم هذا فى صور عديدة وصيغ مختلفة ، يسلك فيها أحياناً مسلك التهديد والوعيد .

يقول الله تعالى : « وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون »

ويقول : « وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها، وما يمكرون إلا بأنفسهم ، ومايشعرون . . . »

وتوجه القرآن الكريم إلى محمد عليه السلام بالحديث مبينا له أن النهاية التى ينتهى إليها هؤلاء الذين ينفقون أموالهم فى سبيل صد الناس عن هذه الدعوة الجديدة، لن تكون إلا الحسرة والندامة .

يقول الله تعالى « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله .

فسينفقونها ، ثم تكون عليهم حسرة ، ثم يغلبون .

والذين كفروا إلى جهنم يحشرون .

* * *

ولقد كان أهل الكتاب من سكان المدينة من الطبقة الرأسمالية أيضاً .

كانوا يحذقون الصناعة والتجارة ، وكانوا يقرضون العرب بربا فاحش ، وكانوا يعتقدون أن الله يمنحهم الخير والبركه لأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنه من أجل هذا أتاهم ما لم يؤت أحدا من العالمين .

ولقد وصل بهم الصلف وإنكار نبوة محمد عليه السلام إلى الحد الذى ذهبوا فيه إلى أن الله ، الذى هو إله محمد، فقير وهم أغنياء .

ووصل بهم الخبث ، وسوء الطويه ، إلى حد أنهم يأكلون أموال العرب بالباطل ذاهبين إلى أنه ليس عليهم فى الأميين سبيل .

ولقد وقف القرآن معهم طويلا، كاشفا أوضاعهم وأخلاقهم ونفسياتهم ، ومبينا كثيراً من أساليبهم الدنيئة فى ممارسة الحياة .

ونستطيع أن نستعرض سويا هذه الآيات البينات :

يقول الله تعالى : « وترى كثيراً منهم يسارعون فى الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون .

لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت — لبئس ما كانوا يصنعون .

وقالت اليهود : يد الله مغلوله — غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا — بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء .

وليزيدن كثيراً منهم ماأنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا »

ويقول : « ولاتحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم . سيطوقون مابخلوا به يوم القيامة ، ولله ميراث السموات والأرض، والله خبير بما تعملون .

لقد سمع الله قول الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء .

سنكتب ماقالوا .

وقتلهم الأنبياء بغير حق .

ونقول : ذوقوا عذاب الحريق . ذلك بما قدمت أيديكم ، وأن الله ليس بظلام للعبيد .

ويقول : « ياأيها الذين آمنوا ، ، إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدون عن سبيل الله .

والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليهما فى نار جهنم فتكوى بها جباههم ، وجنوبهم، وظهورهم. هذا ما كنزتم لأنفسكم . فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

ومن الصور التى اهتم بها القرآن الكريم ، وعرضها علينا ، موقفهم الخاص بتعجيز النبى عليه السلام ومن معه عن الإنفاق فى سبيل الله .

يقول الله تعالى : « وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله ، قال الذين كفروا للذين آمنوا : أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ؟

إن أنتم إلا فى ضلال مبين »

ويقول : « هم الذين يقولون : لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا .

ولله خزائن السموات والأرض ، ولكن المنافقين لايفقهون »

ويقول : « إن الله لايحب من كان مختالا فخورا.

الذين يبخلون ، ويأمرون الناس بالبخل ، ويكتمون ماآتاهم الله من فضله ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا . . . »

* * *

ولقد كان محمد بن عبد الله عليه السلام فقيرا ، فلم يكن من أصحاب رؤوس الأموال فى مكة حتى يمكن القول بأنه يملك من الأموال ما يكفيه ، ومايمكنه من الإنفاق فى سبيل الله ، وفى سبيل هذه الدعوة الجديدة .

ولعل فقره هذا هو الذى دفع الخصوم إلى أن يطالبوه بأن يصبح عن طريق الذى بعثه نبيا رسولا ، من الأغنياء الأثرياء الذين يملكون الكنوز ، والحدائق وما أشبه .

لقد كانوا يقولون : لولا أنزل عليه كنز .

وكانوا يقولون : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب . . .

أو يكون لك بيت من زخرف »

ولقد كان محمد عليه السلام أول عهده بالمدينه فقيراً أيضا . إنه من المهاجرين الذين يعيشون على حساب الأنصار . يعيشون على أنهم من اللاجئين العقائديين . ومن هنا لم يكن يملك من الأموال مايمكنه من الإنفاق فى سبيل الدعوة الجديدة .

وكان الأنصار يملكون ، ولكنهم ينفقون مايملكون على المهاجرين ليمكنوهم من الحياة فى المدينة ، حياة حرة كريمة .

ويبدو أن الأنصار حاولوا أن يسدوا العجز فى موازنتهم المالية عن طريق القروض ، ويبدو أن يهود المدينة لم يقبلوا أن يقرضوهم إلا بربا فاحش . ولكن القرآن الكريم حذرهم من هذا .

يقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا : لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة ، واتقوا الله لعلكم تفلحون ، واتقوا النار التى أعدت للكافرين » .

كانت حاجة النبى عليه السلام والذين معه إلى المال قوية شديدة ، وكان عجزهم عن تحصيل المال بالقدر الكافى واضحاً ، ووقف القرآن الكريم إلى جانبهم يبصرهم بالأوجه التى ينفقون فيها المال ، وبالمصادر التى يحصلون منها على المال .

أما أوجه الإنفاق فالذى يعنينا منها فى هذا المقام، الانفاق فى سبيل انتصار الإسلام والتمكين له من أنفس الناس — أى الانفاق فى سبيل القضاء على القوى المضادة أو إسكاتها وإخراس لسانها .

ومن أبرز أوجه الإنفاق فى هذا المقام الإنفاق من أجل تأليف قلوب الذين لم يدخلوا فى الإسلام بعد — المؤلفة قلوبهم — والإنفاق فى الحروب التى تسمى دينياً بالجهاد .

هذا إلى جانب الإنفاق فى سبيل تحقيق ما يسمى فى العصر الحديث بالعدالة الاجتماعية — أى الإنفاق على اليتامى والمساكين وابن السبيل ، وما أشبه .

أما المصادر فكانت من المصادر المعروفة لذلك العهد . ذلك لأن التنظيمات المالية التى نعرفها اليوم بإسم المصادر والموارد لم تكن قد عرفت جميعها بعد .

ولعل الأساس الثقافى الذى وضعه القرآن لدفع الناس إلى الإنفاق فى سبيل الله أن يكون الدافع القوى لهم فى أن يبذلوا أموالهم ابتغاء مرضاة الله .

هذا الأساس هو : جعل القرآن الكريم الإنفاق فى سبيل الله مقوما من مقومات المؤمنين المتقين .

يقول الله تعالى فى وصف القرآن الكريم بأنه : « هدى للمتقين، الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون » .

كما يقول تعالى فى توضيح معنى البر: « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر :

من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين .

وآتى المال على حبه : ذوى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ، والسائلين ، وفى الرقاب .

وأقام الصلاة وآتى الزكاة .

والموفون بعهدهم إذا عاهدوا .

والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس .

أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون » .

وللأستاذ الإمام شرح لمعنى « ومما رزقناهم ينفقون » يقول فيه : هذا الوصف من أقوى إمارات الإيمان بالغيب ، لأن كثيراً من الناس يأتون بضروب العبادات البدنية كالصلاة والصوم ، ومتى عرض لهم ما يقتضى بذل شىء من المال لله تعالى يمسكون ولا تسمح أنفسهم بالبذل .

وليس المراد بالإنفاق هنا ما يكون على الأهل والولد، ولا مايسمونه بالجود والكرم — لأن هذا ليس من آثار الإيمان بالغيب .

وإنما هو الإنفاق الناشىء عن شعور بأن الله تعالى هو الذى رزقه وأنعم عليه به ، وأن الفقير المحروم عبد لله مثله ، وأنه حرم من سعة العيش لضعف أو حرمان من الأسباب التى توصل إلى الرزق .

أو عن إحساس بأن مصلحة من مصالح المسلمين ومنفعة من منافعهم العامة لا تقوم ، أو لا تصل إليهم ، إلا ببذل المال .

وقد أوجب الله على من أوتى المال أن ينفق منه فى ذلك السبيل وهو أفضل سبل لله .

فمن يجد فى نفسه داعية لبذل أحب الأشياء إليه — وهو ماله — ابتغاء

مرضاة الله تعالى وقياماً بشكره ، ورحمة لأهل العوز والبائسين من خلقه ، فهو لا شك مستعد لقبول هداية القرآن أتم الأستعداد ... »

ولأن الإنفاق علامة من علامات الإيمان دعا القرآن الكريم إليه ورغب فيه ووعد بمضاعفة الأجر عليه ، وبخاصة عند ما يكون الإنفاق للاستعداد للقتال الذى يرجى أن يكون سبباً للسلم ومنع القتال ، أو سبباً لمنع العدوان ، أو للسلامة من الهلاك .

والآيات القرآنية فى ذلك كثيرة ، ونكتفى منها بالآيات التالية :

يقول الله تعالى : « قل لعبادى الذين آمنوا : يقيموا الصلاة، وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ، من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال .

ويقول : « ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ، والله الغنى وأنتم الفقراء ... »

ويقول : « آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه . فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير » .

وفى سورة البقرة مجموعة من الآيات المتلاحقة تعالج قضية الإنفاق هذه بما يكشف عن دور القرآن فيها وترغيبه الناس فى الإنفاق فى سبيل الله .

يقول الله تعالى : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم .

الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون » .

« ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ، فإن لم يصبها وابل فطل ، والله بما تعملون بصير .

« يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ، ومما أخرجنا لكم من

الأرض ، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ، ولستم بآخـذيه إلا أن تغضوا فيه ، واعلموا أن الله غنى حميد .

الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا، والله واسع عليم »

وتبقى بعد ذلك إشارة إلى القرض الحسن ، ذلك لأن القرآن الـكريم قدأشار علينا بالقرض الحسن لتغطية العجز فى الإنفاق حين تـكون مطالب الصالح العام أكبر من أن تغطيها الموارد المالية التى يمـكن تحصيلها .

يقول الله تعالى : « من ذا الذى يقرض الله قرضـاً حسنـاً فيضاعفه له ، وله أجر كريم » .

ويقول الأستاذ الأمام : أما كون القرض حسناً فالمراد به ما حل محـله ووافق المصلحة، لا ما وضع موضع الفخفخة وقصد به الرياء .

نعم ، إن ما أنفق فى المصالح العامة حسن وإن أريد به الشـهرة ـ ولـكن لا يـكون دالا على إيمان المنفق وثقته بربه وابتغاء مرضاته ، ولا يـكون دالا على حبه الخير لذاته لإرتقاء نفسه وعلوهمته بما استفاد من فضائل الدين وتهذيبه »

ونختتم هذه الفقرة الخاصةبالأموال بالأشارة إلى أنغنائمالحروب كانت مصدراً من مصادر التمويل ، وكانت تقسم على الناس حسب ما نزلت به الآيات القرآنية الـكريمة ، وحسب التقاليد التى ظلت قائمة ومتناسقة مع هذه الآيات .

لقد كانالمسلمون الأولون الذين يجاهدون معالنبى عليهالسلام يخوضونالمعارك اعتماداً على أنفسهم .

كان كل منهم ينفق على نفسه ، وكان من عنده فضل من المال يبذل منه الشىء القليل أو الـكثير فى تجهيز غيره . فعل ذلك عثمان بن عفان ، وفعل غيره من أغنياء الصحابة .

وحين فتح الله على المسلمين ، وكثرت الغنائم ، وصار بيت المالغنياً ، أصبح

تجهيز الجيوش من مسئوليات بيت المال .

والدولة الإسلامية الحديثة تنظم نفسها على أساس تخصيص مبلغ معين من المال فى ميزانية الدولة لنفقات الحروب وتجهيز الجيوش : من برية وبحرية ، وجوية . .

وإذا وقعت الحرب يزاد هذا المبلغ بما يكفى للنفقات عن طريق زيادة الضرائب أو القروض .

وقد توضع أموال الدولة جميعها تحت تصرف قواد الجيوش حين تكون الضرورات ملحة . وعند ذلك يجب أن يكون التصرف منظما وعادلا لا مستبداً وأهوج .

وكان للمهاجرين بصفة خاصة نوع من الامتياز عند تقسيم الغنائم على الذين يقومون بتجهيز أنفسهم .

يقول الله تعالى : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى : فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل .

كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم .

وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب .

للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم : يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون .

والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون» .

وليس يخفى أن الآيات تشير إلى حوار كان قد وقع بسبب امتياز المهاجرين ببعض غنائم الحرب .

لقد حسم القرآن الـكريم الموقف . وطابت نفس كل بما قسم الله له .

* * *

وهنا إشارة عابرة إلى المؤلفة قلوبهم .

لقد كان من الـكفار من يرجى إيمانه بتأليفه واستمالته كصفوان بن أمية ، وعيينه بن حصن ، والأقرع بن حابس ، وسفيان بن حرب .

أعطاهم النبي عليه السلام من غنائم هوازن . كل واحد مائة من الأبل

قال ابن عباس : إن قوماً كانوا يأتون النبي صلى الله عليه وسلم فإن أعطاهم مدحوا الإسلام وقالوا : هذا حسن . وإن منعهم ذموا وعابوا ..

وأمثال هؤلاء هم الذين تألف النبي قلوبهم حتى لا يكونوا مع الأعداء. وحتى يرجى دخولهم فى الإسلام .

٤

الحرب

كانت الحرب الوسيلة القوية الفعالة فى إنهاء الصراع وحسم الموقف، فهى التى أسكتت بعض الفرقاء، وكشفت لنا عن الغالب والمغلوب ، أو المنتصر والمهزوم ، من الفرقاء .

وكانت الحرب الوسيلة الحتمية التى لم يكن هناك مفر من استثمارها عند الفرقاء أجمعين ؛ بما فيهم محمد بن عبد الله عليه السلام .

فلم يكن من المعقول عند أهل مكة أن ينجو محمد بن عبد الله من مؤامرة القتل التى دبروها له ثم يترك وشأنه، يترك ليدعو إلى الدين الجديد ويمكن له، ويحدث من التغييرات الجذرية فى المجتمع العربى ماهو كفيل بزلزلة عاداتهم وتقاليدهم ، والقضاء على آلهتهم ومعتقداتهم .

كان لابد من ملاحقته للقضاء عليه أو على ما يدعو إليه ،أو عودته إلى ديانتهم: ديانة الآباء والأجداد .

يقول الله تعالى : « يسألونك عن الشهر الحرام . قتال فيه ؟

قل : قتال فيه كبير .

وصد عن سبيل الله ، وكفر به .

والمسجد الحرام وإخراج أهله منه .

أكبر عند الله .

والفتنة أكبر من القتل .

ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا

ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر ، فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

إن الذين آمنوا ، والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله ؛ أولئك يرجون رحمة الله . والله غفور رحيم . . »

* * *

ولم يكن من المعقول أيضاً أن يلتزم اليهود بالعهود والمواثيق التى أبرمها محمد ابن عبد الله عليه السلام معهم أول مقامه بالمدينة بعد أن هاجر إليها .

ولقد أخذ نفوذه يقوى، وأخذ سلطانه يمتد إلى خارج المدينة ، وأخذ النـاس يدخلون فى دين الله ويستجيبون إلى محمد فى كل ما يطلبه منهم . وفى ذلك كله احراج لليهود وهم أهل الكتاب الأول ، وقضاء عليهم وعلى نفوذهم بالمدينة .

كان لابد لهم من تأليب العرب عليه ، وكان لا بد لهم من العمل على قتله غيلة؛ حتى يخلو لهم الجو ، ويظلو كما هم موضع الاحترام من العرب الأميين .

يقول الله تعالى : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد أيمانكم كفاراً .

حسداً من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق »

ويقول الله تعالى : « ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ، وما أنت بتابع قبلتهم ، وما بعضهم بتابع قبلة بعض . . . . »

ويقول : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى يتبع ملتهم . . . . »

ولم يكن من المعقول أبداً أن يلتزم محمد بن عبد الله عليه السلام الصمت وهؤلاء يفعلون ما يفعلون .

لم يكن من المعقول أن يسكت والمشركون يخرجون الناس من مكة، ويصدون عن سبيل الله فى مكة والمدينة ، ويحرضون الناس عليه، وينفقون الأموال فى سبيل القضاء عليه .

ولم يكن من المعقول أن يرى اليهود وهم يسلكون كل سبل الغدر والخيانة للقضاء عليه والخلاص منه ثم يلتزم الصمت

كان لا بد من القتال فى سبيل الله ؛ لإعلاء كلمته والتمكين لدينه .

لقد أذن القرآن الكريم لمحمد بن عبد الله عليه السلام بالقتال — ولكن بشروط تحددها الآيات ، ولأسباب مختلفة تنص عليها الآيات .

يقول الله تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ؛ ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين .

واقتلوهم حيث ثقفتموهم ؛ وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ؛ والفتنه أشد من القتل .

ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ؛ فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين .

فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم .

وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله

فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » .

ويقول صاحب تفسير المنار عند شرحه لقوله تعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنه ؛ ويكون الدين لله » ما يلى :

« أى وقاتلهم حينئذ أيها الرسول أنت ومن معك من المؤمنين حتى تزول الفتنة فى الدين بالتعذيب ، وضروب الإيذاء ، لأجل تركه .

كما فعلوا فيكم عندما كانت لهم القوة والسلطان فى مكة حتى أخرجوكم منها لأجل دينكم .

ثم ساروا يأتون لقتالكم فى دار الهجرة .

وحتى يكون الدين كله لله لا يستطيع أحد أن يفتن أحداً عن دينه ليكرهه على تركه لدين المكره فيقلده تقية ونفاقا . »

والمعنى بتعبير هذا العصر : ويكون الدين حراً — أى يكون الناس أحراراً فى الدين ، لا يكره أحد على تركه إكراها ، ولا يؤذى ويعذب لأجله تعذيباً .

ويدل على العموم قوله تعالى: « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى.»

* * *

والآيات القرآنية الكريمة التى توضح عمق الخلاف وأبعاده كثيرة جداً .

والحوار الذى تصوره هذه الآيات لا يستهدف الاقناع العقلى وحده حتى يمكن القول بأن الأدلة الساطعة والحجج القوية تلزم الخصم وتدفعه إلى تغيير أحكامه العقلية .

لقد كان الحوار يستهدف تغييرات جذرية فى العادات والتقاليد وفى المعتقدات وفى القيم الروحية والإجتماعية . كان يستهدف تغيير الانسان من الداخل ، وهذا ليس بالأمر اليسير الذى يحدث بمجرد إيراد الأدلة والبراهين أو إصدار القوانين .

إن الهدف هنا هو تغيير الكيانات النفسية والأنماط الفكرية والسلوكية ، وتحقيق ذلك لابد له من زمن ،ولا بدله من وسائل كفيلة بتحقيقه.

وسنعرض لهذه الوسائل عند حديثنا عن وسائل محمد عليه السلام .

إننا هنا بصدد الحديث عن الحرب كوسيلة استخدمها جميع الفرقاء ، بما فيهم محمد عليه السلام .

* * *

كان لا بد من الحرب للقضاء على هذه الصراعات القائمة فى أرض الجزيرة .

إن من الثابت فى كتب السيرة أن النبى صلى الله عليه وسلم رغب فى مصالحة اليهود وموادعتهم عند ما آوى إلى المدينة ،وأنه عقد معهم العهود على: ألا يحاربوه ولا يظاهروا من يحاربه ، ولا يوالوا عليه عدوا له .

وأن يكونوا آمنين على أموالهم وأنفسهم وحريتهم فى دينهم .

وكان حول المدينة منهم ثلاث طوائف : بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظه .

وكان بنو قينقاع أول من غدر وتصدى لحرب النبي عليه السلام .

ونقض بنو النضير العهد ، وهموا بقتل النبي غدراً .

ونقض بنو قريظة أيضا

ويلفت القرآن الكريم ذهن النبي عليه السلام إلى ألوان من الخيانات التى سيلاقيها من اليهود حين يقول له : « ولا تزال تطلع على خائنة منهم »

وجاء فى تفسير المنار ما يلى :

« إنك أيها الرسول لا تزال تطلع من هؤلاء اليهود المجاورين لك على خيانة بعد خيانة ، ماداموا مجاورين أو معاملين لك فى الحجاز .

ولا تحسبن أنك قد أمنت مكرهم وكيدهم بتأمينك إياهم على أنفسهم ، فإنهم قوم لا وفاء لهم ، ولا أمان .

وقد نقضوا عهد الله وميثاقه من قبل، فكيف يرجى منهم الوفاء لك بعد ذلك النقض وما ترتب عليه من : قساوة قلوبهم وقتلهم الأنبياء »

وكان موقف العرب المشركين من نقض العهود مثل موقف اليهود سواء بسواء.

ولقد نزل القرآن الكريم فى موقف هؤلاء كما نزل فى موقف أولئك .

يقول الله تعالى : « إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون

الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة ، وهم لا يتقون .

فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون .

وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ، ان الله لا يحب الخائنين .

ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا أنهم لا يعجزون .

وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله ، وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم .

وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم ، وأنتم لاتظلمون .

وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ، وتوكل على الله إنه هو السميع العليم .

وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين.
وألف بين قلوبهم لوأنفقت ماقى الأرض جميعا ماألفت بين قلوبهم - ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم .

ياأيها النبي : حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين .

ياأيها النبي : حرض المؤمنين على القتال . إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائه يغلبوا ألفا من الذين كفروا أنهم قوم لايفقهون »

وصدق الله العظيم .

لقد كانت الحرب هى الوسيلة الحتمية لحسم الموقف كما ذكرنا ، ولم يكن هدفها عند محمد عليه السلام إدخال الناس فى الإسلام بالقوة ، كما هو الهدف عند المشركين وأهل الكتاب من إرجاع الناس عن الإسلام وصد عن سبيل الله بالقوة.

لقد كان قتال النبي عليه السلام ومن معه دفاعا عن الحق : حق الإنسان فى أن يؤمن بالدين الذى يراه صالحا للحياة . كما كان دفاعا عن حق الإنسان فى دعوة غيره إلى الإيمان بما يؤمن هو به من رأى أو عقيدة .

إن الدعوة إنما تكون بالحجة والبرهان ، فقد أمرنا أن ندعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنه ، وأن نجادل المخالفين لنا بالتى هى أحسن — معتمدين فى ذلك كله على أن نبين الرشد من الغي بالبرهان والدليل .

ذلك هو الصراط المستقيم إلى الإيمان ـ مع حرية الدعوة وأمن الفتنة .

فإذا منعنا من الدعوة بالقوة — بأن هدد الداعى أو قتل الدعاه ، فإن علينا أن نقاتل لحماية الدعاه ونشر الدعوة

« لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى »

« أفانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين »

أما إذا لم يوجد من يمنع الدعوة ، ويؤذى الدعاة أو يقتلهم ، أو يهدد الأمن ويعتدى على المؤمنين ، فالله تعالى لا يفرض علينا القتال .

إن المسلمين لا يقاتلون أبداً من أجل السيادة والسلطان وسلب الناس حرياتهم، وتعذيبهم وسفك دماءهم ، وتسخيرهم واستغلال ثرواتهم ، و ما أشبه .

ويقول الأستاذ الإمام عند تفسيره لقوله تعالى : لا إكراه فى الدين .. الخ.

« هذه قاعدة كبرى من قواعد دين الإسلام ، وركن عظيم من أركان سياسته فهو :

لا يجيز إكراه أحد على الدخول فيه .

ولا يسمح لأحد أن يكره أحداً على الخروج منه .

وإنما نكون متمكنين من إقامة هذا الركن وحفظ هذه القاعدة إذا كنا أصحاب قوة ومنعة نحمى بها ديننا وأنفسنا ممن يحاول فتنتنا فى ديننا اعتداء علينا بما هو آمن أن نعتدى بمثله عليه ، إذ أمرنا الله أن ندعو إلى ديننا بالحكمة والموعظة الحسنة .

فالجهاد من الدين بهذا الأعتبار .

أى أنه ليس من جوهره ومقاصده ، وإنما هو سياج له ، وجنه .

إنه أمر سياسى لازم له للضرورة » .

* * *

إن الإكراه ممنوع .

وإن العمدة فى الدعوة لدين من الأديان بيانه حتى يتبين الرشد من الغى .

وإن الناس مخيرون بعد ذلك فى قبوله أو رفضه .

وإن القتال إنما شرع لتأمين الدعوة ، ولكف شر الكافرين عن المؤمنين

لكيلا يزعزعوا ضعيفهم قبل أن تتمكن الهداية والإيمان من قلبه . ولكيلا يقهروا قويهم بفتنته عن دينه كما كانوا يفعلون فى مكة جهراً .

« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله » .

حتى يكون الإيمان فى قلب المؤمن آمناً من زلزلة المعاندين له بإيذاء صاحبه ، فيكون دينه خالصاً لله غير مزعزع ولا مضطرب .

فالدين لا يكون خالصاً لله إلا إذا كفت الفتن عنه ، وقوى سلطانه حتى لا يجرؤ على أهله أحد .

قال الأستاذ الإمام : وإنما تكف الفتن بأحد أمرين :

الأول : — إظهار المعاندين الإسلام ولو باللسان ، لأن من فعل ذلك لا يكون من خصومنا ولا يبادرنا بالعداء — وبذلك تكون كلمتنا بالنسبة إليه هى العليا ، ويكون الدين لله ، ولا يفتن صاحبه فيه ولا يمنع من الدعوة إليه .

والثانى : — وهو أدل على عدم الإكراه — قبول الجزية . وهى شىء من المال يعطوننا إياه جزاء حمايتنا لهم بعد خضوعهم لنا .

وبهذا الخضوع نكتفى شرهم ، وتكون كلمة الله هى العليا .

القسم الثالث

وسائل محمد عليه السلام

كانت الوسائل التى اعتمد عليها محمد عليه السلام فى ذلك الصراع الفكرى والدموى ، الذى دار بينه ومن معه من جانب والمشركون وأهل الكتاب من الجانب الآخر ، هى الوسائل الناجحة التى حققت أهدافها وبلغت غاياتها . إذ بفضلها انتصر محمد عليه السلام وأصبح القائد الروحى للأمة العربية فى عهده ، وللأمم الإسلامية فيما بعد .

ويفضلها أيضاً تمكن الإسلام من أرض الجزيرة ، وتمكن من كل أرض أخرى دخلها فيما بعد . ويستوى فى ذلك أن تكون هذه الأرض قد تعربت فغيرت لغتها وعاداتها وتقاليدها أو لم تتعرب وغيرت دينها فقط .

واستثمار هذه الوسائل فى الصيغة التى حققت هذه النجاحات يعتبر تجربة تاريخية رائدة للأمة العربية فى عصر تكوينها كأمة، وهى من هذه الناحية تعتبر تراثاً مجيداً نعتز به ونستلهمه كلما أظلمت سبل الحياة وضاقت بنا مسالكها ، ولاسيما فى هذا العصر الذى نعيشه : عصر التنمية الشاملة .

وهذه الوسائل الناجحة لم تحقق هذا النجاح العظيم إلا بفضل التعليمات التى سجلها القرآن الكريم .

لقد كان الوحى ينزل على محمد عليه السلام يوجهه نحو الوسائل ، ويبصره بالكيفية التى يجب أن يستثمر بها هذه الوسائل . ومن هنا قدر لها النجاح .

وهى من هذه الناحية تعتبر من التعاليم القرآنية التى يجب علينا — باعتبارنا مسلمين — العمل بمقتضاها ، من حيث أننا مطالبون فى كل لحظة بممارسة الحياة على أساس من التعاليم القرآنية — ما دامت هذه التعاليم فى نصوص واضحة بينه لا تحتمل الاختلاف أو التأويل .

إن هذه الوسائل — باعتبارها تجربة دينية إلى جانب كونها تجربة تاريخية — كفيلة بأن تقودنا إلى بر الأمان فى هذا المعترك الصاخب الذى يأخذنا من كل جانب، ويحاول أن يضيق بنا، ويضيق علينا سبل الحياة .

لقد خاض هذه التجربة — بالاعتبارين السابقين — سيد المرسلين وخاتم النبيين . ولن نجد أنموذجاً بشرياً نقتدى به ونسلك سبيله أفضـــل من محمد عليه السلام .

* * *

لقد ذكرنا من قبل بعض هذه الوسائل . ذكرنا قوة المال ، وذكرنا الحرب أو الصراع الدموى . ونـكتفى بما ذكرنا من أمر هذه الوسائل ، ونأخذ فى الحديث عن الوسائل التى لم نتعرض لها من قبل .

وقبل أن نأخذ فى هذا الحديث نقف وقفة نرجو ألا تطول، نوضح فيها الهدف الذى كان يعمل على تحقيقه كل واحد من الخصوم .

إن الوقوف على هذا الهدف هو الذى يمـكننا من تقييم الوسيلة ، ويبصرنا بالـكيفية التى حققت بها النجاح .

والهدف من الصراع — أى صراع يـكون — أن يـكون هناك غالب ومغلوب، ومنتصر ومهزوم.

والوسائل تختار على هذا الأساس. أساس قدرتها على تحقيق النصر لمستثمرها والمعتمد عليها .

ولقد كان الهدف عند المشركين وأهل الـكتاب تحقيق النصر على محمد ، وهزيمته الهزيمة التى يتحقق معها القضاء على العقيدة التى يدعو إليها ، والقيم التى يطالب الناس بممارسة الحياة على أساس منها .

ولقد قدروا فى بعض المواقف أن هذا النصر لن يتم إذا وقف عند حدود الصراع الفـكرى . عند حدود الجدل والحوار .

لقد رأوا أن هذا النصر يمـكن أن يتحقق بالقضاء على محمد ذاته . ومن هنا كان تآمرهم على قتله فى مكة لولا أن أنجاه الله حين أمره بالهجرة إلى المدينه ،وكان تآمرهم على قتله فى المدينة حين وضعوا له السم فى الطعام مرة ، وحين القوا عليه حجرا قاتلا أخرى .

ولقد كانت الوسيلة عندهم قتل نفس وإزهاق روح وتدمير إنسان وتحطيم ثائر . كانت تلك هى الوسيلة ولكنها لم تحقق أهدافها . فقد أنجاه الله من كل مكر ، وكل كيد .

ويقول الله تعالى : « ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا وكان وعدا علينا نصر المؤمنين » .

كان هذا هدفهم. أما هدف محمدعليه السلام فقد ارتفع عن هذا المستوى – ولم يكن ذلك إلا بفضل التوجيهات التى نزل بها الوحى وسجلها القرآن الكريم .

لم يكن النصر عنده أن يكون هو الغالب وأن يكون الخصوم هم المغلوبين المهزومين .

لم يكن النصر عنده أن يحقق الهزيمة للآخرين ثم يقهرهم ويستذلهم أو يستعبدهم ، وإنما كان النصر عنده أن يحدث تغييرات جذرية فى أنفس الأعداء ، وتحولات فى مواقف الخصوم.

لقد بعث رحمة للعالمين ، وهاديا إلى الطريق المستقيم .

بعث ليخرج الناس من الظلمات إل النور ، ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين .

« هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمه » .

« كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم — إلى صراط العزيز الحميد » .

وهذا الذى تنص عليه هذه الآيات ، وتحدد به هدف محمد عليه السلام هو الذى نسميه فى العصر الحديث بالتنمية الثقافية .

وهذهالتنمية الثقافية ليست وقفا علىقوم دون قوم ، ولاعلى فريق دون فريق.

إن حقوق الأعداء فى ذلك تساوى حقوق الأصدقاء ، لافرق بين أولئك وهؤلاء .

« ولا يجر منكم شنآن قوم على ألا تعدلوا .

اعدلوا هو أقرب للتقوى »

فمن حق الخصوم والأعداء أن ينتفعوا بالخدمات التى تقدم إليهم من الرسل والأنبياء على أنها هداية إلى الدين القويم . أو على أنها تنمية ثقافية .

وهذا هو الذى تشير إليه الآية القرآنية الكريمة : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » .

والنصر الحقيقى إنما يكون عندما تحدث التنمية الثقافية فى هؤلاء .

إن جذب العدو إلى موقفك ، ودفعه إلى تغيير موقفه بالنسبة إليك ، هو النصر المبين .

إن الهزيمة قد تولد الحقد عندما يكون هناك غالب ومغلوب على أمره .

وإن التغيرات التى تحدث من داخل الإنسان وتدفعه إلى تحول فى موقفه هى النصر الذى لايسبب حقداً أو كراهية وإنما بسبب مودة ومحبة .

لقد تحقق ذلك بالنسبة لمحمد عليه السلام .

لقد أخذ الخصوم يتحولون إلى أصدقاء ويدخلون فى دين الله أفواجا .

ولقد كان هؤلاء أداة محمد عليه السلام ، وأداة الخلفاء الراشدين من بعده ، فى إنتشار الإسلام فى أرض الجزيرة وما جاورها من بلاد الله .

وإن الذين نفخر بهم اليوم ، ونعتز بالأمجاد التى حققوها ، كان الكثير منهم من هؤلاء الذى جادلهم محمد ، وحاورهم ، وكانوا بالنسبة إليه من أشد الأعداء .

* * *

والظاهرة التى نشير إليها باهتمام فى هذا الموقف هى أن القرآن الكريم قد وقف من التنميات عند حدود التنمية الثقافية ، وليس ذلك إلا لأن التنمية الثقافية هى الأساس الأول والأساس القوى المتين لكل تنمية أخرى : سياسية كانت أو إجتماعية أو إقتصادية .

إن التكوين الثقافى لأى إنسان هو الذى يمنحه القدرة القادرة على تمكينه من ممارسة الحياة فى أى مجال من المجالات .

إن التخلف الاقتصادى أو التخلف السياسى ليس فى حقيقته إلا تخلف ثقافى .

وإن التقدم الاقتصادى أو التقدم السياسى ليس فى واقع الأمر إلا تقدم ثقافى .

إن المثقفين هم الذين يستطيعون استثمار الموارد التى يملكها الوطن : الموارد الطبيعية والموارد البشرية .

وإن الاستعمار لم يتم إلا على أساس أن هناك أوطاناً تملك ثروات طائلة : مادية وبشرية . وتعجز عن استثمارها .

لقد أراد القرآن الكريم تكوين الإنسان الصالح للحياة فى مجتمع جديد يعمل القرآن نفسه على تكوينه .

وتلك هى القاعدة التى يجب أن تأخذ أنفسنا بها فى هذه المعترك من الحياة .

يجب أن نسعى فى سبيل تكوين الإنسان الصالح للحياة فى المجتمع الذى نتصوره مجتمعاً فاضلا أو سعيداً .

ويجب أن نحدد مواصفات أو خصائص هذا الإنسان الذى نسعى فى سبيل تكوينه .

ولقد سبق لنا ذكر شىء عن خصائص الإنسان المسلم ، ولن نعود إليها ، وإنما نطالب بأن تكون هناك مواصفات للإنسان الذى نسعى فى سبيل تكوينه .

ولقد يكون من المفيد التنبه إلى ما يمكن أن يكون هناك من فروق بين مواصفات المواطن الجديد ومواصفات الإنسان الذى نص على مواصفاته القرآن الكريم .

إن فى ذلك هداية لنا إلى الطريق المستقيم .

* * *

ونأخذ منذ الآن فى ذكر الوسائل التى لم يسبق لنا الحديث عنها ، ونقدم بين يدى هذه الوسائل كلمة عن الدستور الجدلى الذى فرضه القرآن الكريم على محمد عليه السلام وأسماه الجدل بالتى هى أحسن .

الجدل بالتى هى أحسن

الجدل ، أو الحوار ، وسيلة هامة من وسائل القرآن الكريم لإحراز النصر على الخصوم، بإحداث تغييرات جذرية فى أنفسهم تدفع بهم إلى الانتقال من صفوف المعارضة إلى صفوف الأصدقاء والأعوان .

وفى سبيل تحقيق هذا الهدف وضع القرآن الكريم لمحمد عليه السلام دستوراً للجدل والحوار .

يقول الله تعالى مخاطباً محمداً عليه السلام : « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن .

إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين » .

ويقول مخاطباً عامة المسلمين ، « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم .

وقولوا : آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون » .

والجدل بالتى هى أحسن المنصوص عليه فى هذه الآيات يشير من قريب أو بعيد إلى النقيض ، وهو الجدل بالتى هى أسوأ .

والجدل بالتى هى أسوأ هو الذى لا يستهدف الحق ويستهدف الباطل . أو هو الذى يتخذ من المقدمات الباطلة أساساً لتحقيق النصر .

والقرآن الكريم يطلب من محمد عليه السلام ألا يستهدف من الجدل: الباطل، بأى حال من الأحوال ، وينعى فى الوقت ذاته على المشركين وأهل الكتاب أنهم يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق .

يقول الله تعالى موجهاً الحديث إلى محمد عليه السلام : « ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم .

إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً »

ويقول فى حق الذين يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق : « ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم فى البلاد . كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم ، وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه .

وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق .

فأخذتهم . فكيف كان عقاب .. »

ويقول أيضاً : « ومنهم من يستمع إليك ، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه ، وفى آذانهم وقرا . وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها — حتى إذا جاءوك يجادلونك .

يقول الذين كفروا : إن هذا إلا أساطير الأولين .

وهم ينهون عنه وينأون عنه — وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون » .

ولقد كان من أساليبهم الجدلية الاعتماد على الشغب واللغو ، فقد كان بعضهم يقول للبعض الآخر فيما حكى القرآن الكريم عنهم : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون »

وقريب من هذا الموقف ما تحكيه الآية القرآنية التالية : —

« ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون . وقالوا : أآلهتنا خير أم هو ؟

ما ضربوه لك إلا جدلا — بل هم قوم خصمون »

* * *

ولأن القرآن الكريم يطالب محمدا عليه السلام بأن يجادل بالتى هى أحسن نهاه عن أى عمل انفعالى تكون نتيجته ضارة بالحقيقة التى ينشدها .

يقول الله تعالى موجها الحديث إلى جماعة المسلمين : « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم ، كذلك زينا لكل أمة عملهم .. » .

ولإن التعرف على الحقيقة واتخاذها أساساً لممارسة الحياة هو المطلوب ، جعل القرآن الكريم الحقيقة أداة لتقييم ما يدلى به الخصوم من أدلة وبراهين فى جد لهم أو حوارهم مع النبى عليه السلام .

والحقيقة المنشودة ، والصالحة لأن تتخذ أساسا فى عمليات التقييم قد تكون دينية وقد تكون علمية .. الأمر الذى سنتناوله بالحديث فى الفقرات التالية .

إنا هنا إنما نشير إلى مقدمات أو أساليب جدلية اعتمد عليها القرآن الكريم ولم ننظر إليها على أنها من الحقائق بقدر ما ننظر إليها على أنها من المسلمات .

والنقاد وعلماء الدين من المسلمين قد أشاروا إلى هذه الظاهرة ، وضربوا لها الأمثال .

جاء فى كتاب نقد النثر لقدامه بن جعفر ما يلى :

« فأما المجادل فلما كان قصده إنما هو إلزام الخصم الحجة كان أوكد الأشياء فى ذلك أن يلزمه إياها من قوله . وذلك من مثل قوله عز وجل لبنى إسرائيل : إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة .

قل : فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين .

فجادلهم بكتابهم الذى يقرون به ، وبفرض ما فيه ووجوبه عليهم .

وأعلمهم أنهم إذا حرموا على أنفسهم مالم يحرمه الله فى كتابهم الذى هذه سبيله فى وجوب التسليم له ، فقد ظلموا واعتدوا ، وهذا لازم لهم » .

وما يشير إليه قدامة من الظلم والاعتداء إنما هو ظلمهم لأنفسهم بتحريمهم عليها مالم يحرمه الله ، ثم هو إعتداء على حق الله من حيث أن التحليل والتحريم الدينى إنما هما حقان من حقوق الله ، وليس لغير الله أن يحرم شيئاً على الناس تحريماً دينياً .

وجاء فى كتاب القسطاس المستقيم للغزالى ص ٧٧ ما يلى :

« أما الذى يستعمل فى المحاجة والمجادلة فما يعترف به الخصم ويسلمه — وإن لم يكن معلوما فى نفسه . فإنه تصير حجته عليه .

وكذلك تجرى بعض أدلة القرآن .

فلا ينبغى أن تنكر أدلة القرآن إذا أمكنك التشكيك فى أصولها لأنها أوردت على طوائف كانوا معترفين بها ».

وهذا الأسلوب الجدلى الذى يشير إليه كل من قدامة والغزالى قد استخدم فى القرآن الكريم كثيرا — وبخاصة عندما كان القرآن يبرز ما فى حياتهم من تناقضات .

لقد كان العرب يضيقون ذرعاً بالبنات حتى قال القرآن الكريم فيهم « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ، ألا ساء ما يحكمون » .

وكان العرب فى الوقت ذاته يعتقدون أن الملائكة بنات الله . واعتمادا على هذه المسلّمة أبرز القرآن الكريم ما فى حياتهم من تناقضات قال : « اصطفى البنات على البنين ؟ .

مالكم كيف تحكمون ؟ »

وحين قال ردا على عقيدتهم فى أن لله أولادا ما يلى :

« بديع السموات والأرض .

أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ؟

وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم » .

ومن إبرز التناقضات بين أقوالهم فى الله ومسلماتهم قوله تعالى : « أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ؟ »

ونقف عند هذا الحد من الحديث عن المسلمات لننتقل إلى ما هو الأهم وهو

الحديث عن الحقائق التى اعتمد عليها القرآن فى جذب الخصوم إلى الإسلام وتعديل موقفهم من الإسلام ومن نبي الإسلام .

وهذه الحقائق كما سبق أن ذكرنا تكون دينية تنزل من السماء ، وتكون علمية يهتدى إليها العقل البشرى بعد أن يفكر طويلا فى ظواهر هذه الحياة .

الوسائل الدينية
والوسائل العلمية

١

الحقيقة الدينية

والحقيقة الدينية فى منطق القرآن الكريم هى الحقيقة التى تصدر عن الملأ الأعلى ، ويهبط بها الوحى من السماء إلى الأرض على رسول من الرسل أو نبى من الأنبياء ليبلغها الناس ويطلب إليهم ممارسة الحياة على أساس منها .

وهذه الحقيقة هى التى يتخذ منهـا القرآن الكريم الأداة إلى تقويم الآراء والمعتقدات الدينية ،فما اتفق وإياها كان هو الحق،وما اختلف وإياها كان هو الباطل.

وضمانا لسلامة هذه الأداه فى عمليات التقويم حرص القرآن الكريم على ذكر التغيرات التى حدثت فى الأديان السابقة لحكمة رآها المولى سبحانه وتعالى .

وهذا الضمان يجرنا إلى الحديث عن الحدود التى تلتقى عندها جميع الأديان والتى تعتبر المخالفة فيها دليلا على الباطل أو الانحراف عن الحق .

والحدود التى تلتقى عندها جميع الأديان تنبت عن حقيقة كبرى هى أن جميع الأديان السماوية صادرة عن ذات واحدة هى ذات المولى سبحانه وتعالى — المولى الواحد الأحد الفرد الصمد — وهى من هذه النـاحيه تقوم على مقومات أصيلة واحدة . وتلك هى :

١ — الإيمان بالله الواحد الأحد .

٢ — الإيمان باليوم الآخر الذى تتحقق فيه العدالة ، ويكون فيه الجزاء : ثوابا وعقابا .

٣ — العمل الصـالح الذى تتحقق به السعادة ، ويصلح به حال الفرد وحال الجماعة ، ويتخذ أساساً للثواب والعقاب .

أما غير هذه الثلاثه فيصح فيه الإختلاف ، ويقع فيه التغيير والتبديل ،

من حيث أنه مرتبط بحياة الجماعه ونحن نعلم جميعاً أن المجتمعات فى حالات تغير مستمره .

والمولى سبحانه وتعالى قد أحدث تغييرات فى الأديان المتعاقبة . ومنها تغييرات وقعت فى ميدان العبادات ، وفى ميدان الحلال والحرام .

* * *

والحقيقة الدينية التى تتخذ أداة لتقويم الحاضر تتخـذ فى الوقت ذاته أساسا للبناء المستقبل .

والمنطق القرآنى ، والفقه الإسلامى ، يمضيان على أســاس أن المعتقدات والعبادات الدينية ثابتة لاتتغير لأن الحـكم الشرعى فيها لله ، وقد صدر عن الله . أما المعاملات وشئون الحـكم والسياسة فترتبط الحقيقة الدينية فيها بالصالح العام — ومن هنا تصبح قابلة للتغيير والتبديل من حيث ارتباطها بالمجتمعات ، والمجتمعات عرضة دائما للتحول وللتغيير والتبديل لأنها فى حركة مستمرة .

وهذا المنطق القرآنى هو الذى أملى على علماء الأصول قاعدتهم المشهورة القائله بتغير الأحكام تبعاً لتغير العصور والأزمان .

* * *

والحقيقة الدينية حين تتخذ أداة لتقويم الحاضر تـكون موضع الجدل والحوار ذلك لأن الذين يستمسكون بالحاضر ينفرون فى الوقت نفسه من إحداث تغييرات جذرية فيه . ومن هنا يقفون فى وجهه ويعملون على التخلص من الداعين إليـه والقائمين عليه ، ويعملون فى الوقت ذاته على صد الناس عنه .

والذين يستمسكون بالحاضر من معاصرى محمد بن عبد الله عليه السلام فريقان:

فريق المشركين .

وفريق أهل الـكتاب .

والأولون يختلفون عن الآخرين من حيث التركيب الثقافى الدينى . فأهل الكتاب جاءتهم الأنبياء ، وبعثت فيهم الرسل ، ونزلت عليهم الكتب ، ومن هنا صح أن يلتقوا مع القرآن الكريم فى الكثير من الحقائق الدينيه .

أما المشركون فلم يكونوا يملكون من الحقائق الدينية النازلة من السماء الشيء الكثير . ومن هنا كان الخلاف فيما بينهم وبين محمد بن عبد الله عليه السلام كبيراً وقويا عنيفاً .

لقد كان لكل منهم حقائقه الدينية التي يتخذمنها الأداه لتقويم الحقائق التى يملكها الآخرون ، وكان كل منهم أيضاً يجرى على منطق معين هو أن ما يملكه هو الحقيقة الدينية الصادرة عن الآلهه ، وأن ما يملكه الآخرون ليس إلا الباطل.

وشعور كل منهم بأنه الذى يملك الحقيقة يدفعه حتما إلى أن يطلب من الآخرين الايمان بما هو عليه ، لأنه الحق .

وهذا المنطق هو الذى دعا اليهود إلى أن يقولوا :ليست النصارى على شيء ، ودعا النصارى إلى أن يقولوا : ليست اليهود على شيء .

وهم يتلون الكتاب :

وهذا المنطق هو الذى جعل القرآن الكريم يسجل عليهم موقفهم من محمد عليه السلام حين قال فى أهل الكتاب : ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم .

وحين قال فى صيغة العموم : كذلك زينا لكل أمة عملهم .

ولعله أن يكون من الخير لنا ولهذه الدراسة أن نستعرض عمليات التقويم هذه وكيف اعتمد القرآن الكريم عليها كوسيلة من وسائل الإنتصار على القوى المضادة

ونبدأ من ذلك بالموقف مع المشركين لأنهم الأقدم فى الخصومة ، ولأن الخصومة معهم كانت قوية وعنيفة .

* * *

كان المشركون يملكون من الحقائق الدينية الشيء الكثير — ولكنها الحقائق التي لا تستند إلى علم أو كتاب من السماء .

لقد كانت هذه الحقائق مجموعة من المواريث التاريخية التي توارثتها الأجيال . وكانت مجموعة من الأفكار المتولدة عن الرغبات أو المصالح الشخصية .

وكانت بعض الأفكار التي تسربت إليهم من وجود أهل الكتاب إلى جانبهم — الأمر الذي نلمسه في وضوح عند المشركين من أهل المدينة .

وهذه الحقائق هي التي اتخذوا منها الأداة لتقويم ماجاءهم به محمد عليه السلام . ومن هنا كان إنكارهم لنبوته ورفضهم الشديد لدعواه .

كان رفضهم لنبوته عليه السلام قائما على أسس ثلاثه .

الأول : — أن المولى سبحانه وتعالى لو أراد أن يرسل للناس رسولا لجعله من الملائكة ، ولم يجعله من البشر .

وقد سبق أن تناولنا هذا الذي يقولون به بالحديث عند تعرضنا للمشكلة الأولى من مشكلات محمد بن عبد الله عليه السلام .

ولقد اتخذ القرآن الكريم من التاريخ الديني للأنبياء والمرسلين الوسيله إلى التغلب على المعارضة في هذا الموقف .

إن القرآن الكريم يسجل اعتماداً على الظواهر الإجتماعية التاريخية أن جميع الأنبياء والمرسلين كانوا من البشر . وكانوا رجالا بعثوا إلى أقوامهم ، وتحدثوا بلسانهم . . . الخ .

ونكتفي في هذا الموقف بذكر الآيات التاليه :

يقول الله تعالى : « وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا : ما أنزل الله على بشر من شيء .

قل : من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى ، تجعلونه قراطيس تبدونها ، وتخفون كثيراً ، وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم . ؟

قل : الله . ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون .

وهذا كتاب أنزلناه ، مبارك ، مصدق الذى بين يديه ، ولتنذر أم القرى ومن حولها .

والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به . . . »

ويقول الله تعالى : « قل : هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين .

وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى ، أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم . . . »

ويقول الله تعالى : « وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون . »

ولعل الآيات الواردة فى سورة إبراهيم عليه السلام ، وهى الآيات التى تخرج بالمسألة من الموقف الخاص بمحمد عليه السلام إلى الموقف العام ، والخاص بجميع الرسل أن تكون أوضح الآيات القرآنية فى ذلك .

يقول الله تعالى : « ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم ! قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم — لا يعلمهم إلا الله — جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم

وقالوا : إنا كفرنا بما أرسلتم به ، وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب .

قالت رسلهم : أفى الله شك ؟ فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى .

قالوا : إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ، فأتونا بسلطان مبين .

قالت لهم رسلهم : إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من

عباده — وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون . ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هـدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون »

ويقول الله تعالى : « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا: أبعث الله بشراً رسولا ؟

قل : لو كان فى الأرض ملائـكة يمشون مطمئنين لنزلنـا عليهم من السماء ملـكا رسولا .

قل : كفى بالله شهيداً بينى وبينكم إنه كان بعباده خبيراً بصيراً . . »

* * *

الأساس الثانى : — أن الذى ينزل عليه من السماء بهذه الآراء والمعتقدات التى يدعوهم إليها ليس ملـكا من الملائـكة وإنما هو شيطان من الشياطين .

وقد عرض القرآن الـكريم لهذا الذى يقولون وحاورهم فيه إلى أن انتصر عليهم.

لقد كانوا يعتقدون أن الشياطين تستطيع الصعود إلى السماء، وتستطيع التسمع إلى الملأ الأعلى ، وأنها تنزل بعد ذلك لتبلغ الناس ما استمعت إليه من السماء .

وأنـكر القرآن الـكريم عليهم هذا كله ، وبين لهم أن هذا الذى يستندون إليه باطل ولا أساس له من الصحة ، وأن الشياطين لا تقره ولا تعترف به .

والآيات فى ذلك هى التاليه :

يقول الله تعالى ، « وما تنزلت به الشياطين ، وما ينبغى لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون ...

قل : هل أنبئـكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفاك أثيم . يلقون السمع وأكثرهم كاذبون » ،

ويقول الله تعالى : « إنا زينا السماء الدنيا بزينة الـكواكب .وحفظاً من كل

شيطان مارد . لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحوراً ، ولهم عذاب واصب . إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ... »

ويقول الله تعالى على لسان الجن : « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصداً ... »

* * *

الأساس الثالث : — أن الذى يجيئهم به محمد عليه السلام ليس الحقيقة الدينية النازلة من السماء وإنما هى الأقوال التى تعلمها عن بعض النـاس ، أو تدارسها فى الـكتب .

إنه يفترى على الله الـكذب حين يدعى أن هذا الذى يجيئهم به هو وحى السماء إنه عندهم ليس إلا أساطير الأولين .

وقد سجل القرآن الـكريم عليهم ذلك ورده عليهم ، وانتهى به الأمر إلى التحدى بالإتيان بمثل هذا الذى يرونه افتراء على الله .

لقد سجل القرآن الـكريم عليهم هذا القول : —

يقول الله تعالى : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا : قد سمعنـا ، لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إن هذا إلا أساطير الأولين .

وإذ قالوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم .. »

ويقول الله أيضاً : « وإذا بدلنا آية مكان آية — والله أعلم بما ينزل — قالوا : إنما أنت مفتر . بل أكثرهم لا يعلمون .

قل : نزله روح القدس من ربك ، ليثبت به الذين آمنوا ، وهدى وبشرى للمسلمين .

ولقد نعلم أنهم يقولون: إنما يعلمه بشر .

لسان الذى يلحدون إليه أعجمى ، وهذا لسان عربى مبين ... »

ويقول : « وقال الذين كفروا : إن هـــذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ...

فقد جاءوا ظلماً وزوراً .

وقالوا : أساطير الأولين أكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا .

قل : أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيما ... »

ولقد رد القرآن الكريم عليهم أقوالهم حين عرض لها — كما ترى فى النصوص السابقة . وكما هو الواضح من النصوص التالية :

يقول الله تعالى فى صدد توجيهه لمحمد عليه السلام : —

قل : هل من شركائكم من يهدى إلى الحق ؟

قل : الله يهدى إلى الحق .

أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدى إلا أن يهدى ، فما لكم كيف تحكمون ؟

وما يتبع أكثرهم إلا ظناً . إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً . إن الله عليم بما يفعلون .

وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ؟ — ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين :

أم يقولون : افتراه .

قل : فأتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين .

بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، ولما يأتهم تأويله .

كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين »

ومن أوضح الآيات التى وردت فى ذلك ، والتى عالجت موقف النبى عليه السلام وموقفهم من هذه القضية ، الآيات التالية :

يقول الله تعالى : « قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها — وما أنا عليكم بحفيظ .

وكذلك نصرف الآيات ، وليقولوا : درست ، ولنبينه لقوم يعلمون .

اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين . ولوشاء الله ما أشركوا ، وماجعلناك عليهم حفيظاً ، وما أنت عليهم بوكيل .

ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم — كذلك زينا لكل أمة عملهم ، ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون .

وأقسموا بالله جهد أيمانهم : لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها .

قل : إنما الآيات عند الله ، ومايشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون . ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم فى طغيانهم يعمهون .

ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة ، وكلمهم الموتى ، وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ، ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون .

وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً ، شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول .

ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم ومايفترون .

ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وليرضوه ، وليقترفوا ما هم مقترفون .

أفغير الله أبتغى حكما وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا ،والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك حقاً — فلا تكونن من الممترين . وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ، لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم .

وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله — إن يتبعون إلا الظن ، وإن هم إلا يخرصون ..

إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين » .

ويقول الله تعالى : « ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ، وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا — كذلك نجزى القوم المجرمين .

ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ؟

وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا : ائت بقرآن غير هذا أو بدله ؟

قل : ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى . إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم .

قل : لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمراً من قبله ، أفلا تعقلون ؟

فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته . إنه لا يفلح المجرمون .. »

* * *

أما الأسس التى كان القرآن الكريم ، وكان محمد عليه السلام ، يرفض على أساسها ما يملك المشركون من حقائق دينية فهى التالية : —

الأساس الأول : — أن هذا الذى يدعون أنه من الحقائق الدينية ليس منها فى قليل أو كثير لأنه لا أصل له من كتاب ، ولم يهبط به وحى من السماء على رسول من الرسل أو نبى من الأنبياء .

والآيات القرآنية المسجلة لذلك كثيرة ، وقد وردت جميعها فى معرض بيان بطلان هذه الحقائق ، وإظهار ما فيها من فساد .

فهم حين يدعون أن الآلهة أكثر من إله ، وأن الوحدانية ليست الحقيقة الدينية يطالبهم القرآن الكريم بالدليل .

يقول الله تعالى : « أم اتخذوا من دونه آلهة ؟

قل : هاتوا برهانكم . هذا ذكر من معى وذكر من قبلى .

بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون »

وحين يذهبون أن الله ليس بالفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ، وإنما له ولدهو المسيح أو بنات هم الملائكة ، ينكر القرآن الكريم عليهم ذلك كله ويبين لهم أنه القول الذى لا يستند إلى منطق عقلى أو منطق دينى على الأطلاق .

يقول الله تعالى : « ألا إنهم من إفكهم ليقولون : ولد الله .

وإنهم لكاذبون .

اصطفى البنات على البنين ؟ ما لكم كيف تحكمون ؟ أفلا تذكرون .

أم لكم سلطان مبين ؟ فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين »

وهم حين يذهبون إلى أن محمداً عليه السلام ليس بنبى وأنه إنما يفترى على الله الكذب ، ينكر القرآن عليهم هذا الذى يقولون ، ويبين لهم أن لا أصل له من كتاب سماوى أو من وحى دينى .

يقول الله تعالى : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا : ماهذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم .

وقالوا : ماهذا إلا إفك مفترى .

وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم : إن هذا إلا سحر مبين .

وما آتيناهم من كتب يدرسونها ، وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ...»

والآيات القرآنية الواردة فى هذه القضية كثيرة ، ونكتفى هنا بما سبق ، وبهذه الآيات .

يقول الله تعالى : « ويعبدون من دون الله مالم ينزل به سلطاناً ، وماليس لهم به علم »

ويقول : « قل : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟

إن تتبعون إلا الظن ، وإن أنتم إلا تخرصون »

ويقول : « قل : أرأيتم ماتدعون من دون الله ؟

أرونى ماذا خلقوا من الأرض .

أم لهم شرك فى السموات .

ائتونى بكتاب من قبل هذا ، أو أثرة من علم إن كنتم صادقين »

ويقول : « إن يتبعون إلا الظن ، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً »..

فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا.

ذلك مبلغهم من العلم ...

* * *

الأساس الثانى : — أن هذا الذى يملكون ويعتقدون أنه الحقيقة الدينية ليس إلا المواريث التاريخية التى يتوارثها الأبناء عن الآباء ، والآباء عن الأجداد .

يقول الله تعالى : « وإذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول .

قالوا : حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا .

أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ، ولا يهتدون .. »

ويقول الله تعالى : « وإذا قيل لهم : اتبعوا ما أنزل الله .

قالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا » .

ويجعل القرآن الكريم اتباع المواريث التاريخية قاعدة عامة لكل الأغنياء والمترفين من جميع الأمم وفى جميع العصور ، ولم يكن ذلك إلا لأن هؤلاء المترفين يكرهون التغيير ـ وبخاصة عندما تكون هذه التغييرات جذرية فى المجتمعات التى يعيش فيها أمثال هؤلاء المترفين ولهم فيها السيادة ، ولهم فيها العزة والسلطان

يقول الله تعالى : « وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا وجدنا آباءنا على امة ، وإنا على آثارهم مقتدون ».

* * *

ويقول الله أيضاً موجهاً إليهم الكلام : « وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم — وقد أخذ ميثاقكم — إن كنتم مؤمنين.

هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور ، وإن الله بكم لرءوف رحيم ».

* * *

وجرى القرآن الكريم أيضاً فى جدله معهم على أن محمد بن عبدالله عليه السلام هو النبى الذى ينتظرونه ، وهو الذى يجدون اسمه أو صفته مكتوبة عندهم فى التوراة والإنجيل .

وأخذ القرآن يطالبهم بالإيمان به اعتماداً على هذا ، ويبين لهم فى الوقت ذاته أن الإيمان به هو الذى يحقق لهم الهداية ويباعد بينهم وبين الكثير من الشرور والآلام .

يقول الله تعالى مسجلا عليهم قيلهم وموجهاً إياهم إلى ما فيه خيرهم : « واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة ، وفى الآخرة إنا هدنا إليك .

قال : عذابى أصيب به من أشاء ، ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ، والذين هم بآياتنا يؤمنون .

الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل : يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم .

فالذين آمنوا به ، وانبعوا النور الذى أنزل معه ، أولئك هم المفلحون .

قل : يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً ، الذى له ملك السموات والأرض ، لا إله إلا هو يحيى ويميت. فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى ، الذى يؤمن بالله وكلماته ، واتبعوه لعلكم تهتدون »

* * *

ولم يقف أمر القرآن الكريم فى أسلوبه الجدلى مع أهل الكتاب عند حد مطالبتهم بتصديق محمد عليه السلام والإيمان به ، وإنما مضى إلى ما هو أبعد من ذلك فأخذ فى رد كثير من آراء أهل الكتاب — واليهود منهم بصفة خاصة — إذا كانت لا تتفق والحقيقة الدينية التى يدعو إليها القرآن ، أو يؤرخ لها على أساس أنها مما ورد فى التوراة .

لقد كان من عقيدتهم الدينية أن الحقيقة الدينية قد نزلت من الملأ الأعلى على موسى عليه السلام ، وأنها مسجلة فى التوراة .

وجادلهم القرآن الكريم على أساس أن بعض هذا الذى يقولون ويعتقدون لا يوجد فى التوراة ، وأنه لا دليل عليه .

لقد قالوا : إنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى .

وأجرى القرآن معهم الحوار على أساس أن لا دليل يؤيدهم فى ذلك ، وأن الإيمان والعمل الصالح هو الأساس فى دخول الجنة .

جاء فى القرآن الكريم : « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى .

تلك أمانيهم .

قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين .

بلى من أسلم لله وجهه وهو محسن فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون »

ولقد قالوا أيضاً بأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودات ، فأجرى معهم الحوار على أساس أن هذا الذى يقولون ليس إلا من قبيل الوهم الذى يهرف فيه الإنسان بما لا يعرف.

جاء فى القرآن الكريم: « وقالوا : لن تمسنا النار إلا أياما معدودات .

قل . اتخذتم عند الله عهداً ، فلن يخلف الله عهده ؟

الأساس الثالث : ـ التخلف الثقافى . ذلك لأن التقدم الثقافى إنما يتم عن طريق كثرة القادة والمثمين الثقافيين فى الأمة ، وأن التخلف الثقافى يكون حيث يندر القادة ويقل عددهم .

وقد صور القرآن الكريم الذين يدعوهم محمد عليه السلام من العرب المشركين الأميين بأنهم متخلفون ثقافيا ، وأنه من هذه الناحية يتعذر عليه أن يخرجهم من حالة التخلف الثقافى بسرعة . كما يتعذر عليهم هم أيضاً الاستجابة له فى سرعة .

والآيات فى ذلك واضحة مبينة .

يقول الله تعالى موجها الحديث إلى محمد عليه السلام : « وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ، ولكن رحمة من ربك

لتنذر قوما ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون »

ويقول الله تعالى واصفا قولهم فى القرآن الكريم ومبينا لمحمد عليه السلام وجه الحق ، وموجها إياه إلى الدور الحقيقى الذى يجب أن يضطلع به ،« أم يقولون افتراه .

بل هو الحق من ربك ،لتنذر قوما ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون

ويقول الله تعالى : « يس والقرآن » الحكيم ، إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم .

تنزيل العزيز الرحيم . لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون .

لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون .

إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون ، وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون .

وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون .

إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب ، فبشره بمغفرة وأجر كريم.»

وواضح من هذه الآيات أن هناك حالات للتخلف الثقافى تنتج عنها الغفلة ويصعب معها الإيمان بالتغيير ، والقدرة على الاستجابة للتغيير .

وإن هناك حالات للتنمية الثقافية هى التى يستجيب الناس فيها لدعاة التغيير لقدرتهم على الاستجابة للدعاة ، ولإدراكهم لما فى التغيير من تنمية فى شتى مجالات الحياة

* * *

كان هذا هو الموقف مع المشركين من حيث ملكيتهم أو عدم ملكيهم للحقيقة الدينية . أما الموقف مع أهل الكتاب بالنسبة للحقيقة الدينية وكيف تتخذ وسيلة لكسب المعارضة أو الانتصار عليها فيمكن تلخيصها فيما يلى :

جرى القرآن الكريم فى جدله مع أهل الكتاب على أساس تذكيرهم بالكثير من المواثيق والعهود ، ويعيب عليهم فى الوقت نفسه أن يكونوا أول كافر بمحمد عليه السلام مع أنه جاء مصدقا لما معهم ، وجاء ليبين لهم الكثير مما كانوا يختلفون فيه .

يقول الله تعالى : « يابنى إسرائيل : اذكروا نعمتى التى انعمت عليكم ، وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم ، وإياى فارهبون .

وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ، ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا وإياى فاتقون .

ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون » .

ويقول الله تعالى : « يا أهل الكتاب : قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ، ويعفو عن كثير .

قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم »

ويقول : « بل جاء بالحق وصدق المرسلين »

وصدق الله العظيم .

* * *

ونترك هذه الحقيقة إلى حقيقة أخرى هى الحقيقة العلمية التى اتخـذت هى الأخرى وسيلة من وسائل التغلب على القوى المضادة .

٢

الحقيقة العلمية

والحقيقة العلمية هى الحقيقة التى تأتى نتيجة لإعمال العقل البشرى فى الـكون بمن فيه ، ، ومافيه .

ويرى العلماء المعنيون بالـكون وبإعمال العقل فيه أن العقل قد يضل طريقه ، وقد يخطىء فى نتائجه ، ولـكنه فى كل الحالات قادر على أن يصحح الخطأ ، وأن ينجو من الإنحراف .

وما ينتهى إليه العقل البشرى من نتائج يسمى فى عرف العلماء بالقواعد أو القوانين أو النظريات العلمية .

والقرآن الـكريم هو الذى يدفع العقل البشرى إلى التفـكير فى الـكون بمن فيه وما فيه . يدفعه إلى ذلك على أساس أن هذا هو السبيل الوحيد للوصول إلى الحقائق الدينية الـكبرى التى تتصل بالخالق سبحانه وتعالى .

هذا الوصول هو الذى يؤكد الصفات الذاتية للمولى سبحانه وتعالى من علم وحكمة ، ومن قدرة وخبرة ، ومن .. ومن .. إلخ .

ويؤكد هذا الوصول أيضاً معانى هذه النعم العديدة التي خلقها الله للإنسان ، وكيف سخر الله للانسان الليل والنهار ، والشمس والقمر ، والسماء والأرض ، والهواء والماء ، وما أشبه .

إن كل هذه النعم إنما هى الوسيلة التى يجذب بها القرآن الإنسان إلى التعرف على الخالق ، وإلى شكره على نعمائه .

وهذه الحقائق العلمية أداة أخرى من أدوات تقويم تلك الحصيلة من الأفـكار والآراء التي يملـكها المشركون وأهل الـكتاب .

أم تقولون على الله ما لا تعلمون »

وذهبوا إلى أن إبراهيم عليه السلام كان يهوديا أو نصرانيـــاً ، وأجرى القرآن الـكريم معهم الحوار على أساس أنهم يحتجون بما ليس لهم به علم ، وأن إبراهيم عليه السلام قد كان ولم تـكن التوراة والإنجيل .

يقول الله تعالى موجها إليهم الحديث : « يا أهل الـكتاب ، لم تحاجون فى إبراهيم ؟ وما أنزلت التوراة والانجيل إلا من بعده ، أفلا تعقلون ؟

ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لـكم به علم ، فلم تحاجون فيما ليس لـكم به علم ؟

والله يعلم وأنتم لا تعلمون »

والقرآن الـكريم يستهدف من ذلك أمرين :

الأول منهما : أن يفقدهم ثقتهم بتلك الآراء والمعتقدات الباطلة .

الثــانى : بيان أن العاقل والمتدين لا يصح له أن يجادل فى شىء لم تؤيده فيه الـكتب الدينية ، ولا يستطيع أن يقدم فيه الدليل والبرهان .

* * *

وأمر آخر جرى فيه القرآن على أسلوب جدلى يـكشف لهم أن محمداً عليه السلام يعرف من أمر كتبهم ما لا يعرفون ، وأن هذه المعرفة إنما تتم بوحى الله إليه — ذلك الوحى الذى يـكشف من أمرهم وأمر محمد عليه السلام — أنه صادق وأنهم كاذبون .

لقد اختلف معهم عليه السلام فى أمر أطعمتهم وما يأ كلون ، وفى أمر الحـكم الشرعى الذى يقع عليها من حيث الحل والحرمة .

ولقد احتـكم محمد عليه السلام إلى التوراة ليـكشف عن صدقه وعن كذبهم فيما يذهبون إليه .

يقول الله تعالى : « كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه .

قل : فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين »

* * *

واعتماد القرآن الكريم على مافى الكتب الدينية السابقة من حقائق دينية ، وإنكار أهل الأديان السابقة لهذا الذى يعتمد عليه القرآن من هذه الكتب ، هو الذى أظهر للعيان وأبرز فى الوجود تلك المشكلة التى تسمى بمشكلة التحريف .

لقد كانوا يستهدفون من التحريف أن يتغلبوا على محمد عليه السلام ولكن خاب ظنهم ، وانتصر محمد عليه السلام وانتصر الإسلام .

وقد سبق لنا تناول هذه المسألة بالكلام .

* * *

وتبقى بعد ذلك كلمة عن هذه الوحدة الدينية التى أشرنا إليها من قبل وكيف كان لها أثرها فى هذا الصراع الفكرى .

لقد جعل القرآن الكريم من دلالات صدق النبى عليه السلام أن مايدعو إليه قد دعت إليه الرسل من قبل ، وأن كتابه قد جاء مصدقا لما فى كتبهم من آراء ومعتقدات .

يقول الله تعالى : « وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله — ولكن تصديق الذى بين يديه ؛ وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين » .

ويقول : « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب .

ما كان حديثاً يفترى ، ولكن تصديق الذى بين يديه ، وتفصيل كل شىء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون »

ويقول : « والذى أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يديه . وإن الله بعباده لخبير بصير »

فحاربهم الدين ورجاله حربا عوانا انتهت يظفر العلم ورجاله بالدين ورجاله .

وبعد غسل الدماء المسفوكة قام منذ مائتى سنة إلى اليوم رجال منهم يسمون هذه المدنية القائمة على العلم : المدنية المسيحية .

ويقولون بوجوب محق سائر الأديان ومحوها لأنها لاتتفق مع العلم .

وفى مقدمتها الدين الإسلامى .

وحجتهم على ذلك حال المسلمين .

نعم إن المسلمين أمسوا وراء الأمم كلها فى العلم. فجهلوا الأرض التى هم عليها، وضعفوا عن استخراج منافعها .

فجاء الأجنبى يتخطفها من بين أيديهم وهم ينظرون ، وكتابهم قائم على صراطه يصيح بهم .

« وهو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا »

« وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعاً منه »

« قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟

قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا »

ولكنهم صم بكم عمى فهم لا يعقلون،ولو عقلوا لعادوا ،ولو عادوا لاستفادوا وبلغوا ما أرادوا .

وها نحن أولاء نذكرهم بكلام الله لعلهم يرجعون »

* * *

ويرى بعض المفكرين المسلمين أن هذه الحقيقة العلمية إنما تمارس بها الحياة فى نطاق الدين ، وأنها وحدها لا تكفى بل قد تكون سبب البلاء . ذلك لأن العلم وحده قد ينزع بالإنسان نحن الشر · وأن الدين هو الذى يحقق للعلم نوعا من الإلتزام الخلقى الذى يدفع بالعلم دائما نحو العمل الصالح الذى يحقق الخير العام .

جاء فى الجزء الحادى عشر من تفسير المنار وفى صفحة ٢٤٣ من هذا الجزء تحت عنوان : الخطر على البشر من ارتقاء العلم بدون الدين . ما يلى :

« إن حرمان هؤلاء العلماء من الإيمان بآية الله تعالى من هذا النوع قد جعل حظ البشر من هذا الارتقاء العجيب فى العلم ، أنهم ازدادوا به شقاء حتى صارت حضارتهم مهددة بالتدمير العلمى الصناعى فى كل يوم .

وجميع علماءهم المصلحين ، وساستهم الدهاقين ،فى حيرة من تلافى هذا الخطر .

ولن يتلافى إلا بالجمع بين العلم والدين .

وهذا ماجاءهم به محمد خاتم النبيين ،ولأجله أثبتت الآيات بكتابه . وفى كتابه المبين — إذ لا يمكن أن يخضع البشر إلا لما هو فوق استطاعتهم بقيام الدليل على أنه من السلطان الغيبي الإلهى الذى فوق استعدادهم »

كما جاء فى نفس المقام من الكتاب المذكور ما يلى :

أكثر ماذكر فعل العقل فى القرآن الكريم قد جاء فى الكلام على آيات الله وكون المخاطبين بها ، والذين يفهمونها ويهتدون بها ، هم العقلاء .

ويراد بهذه الآيات فى الغالب آيات الكون الدالة على علم الله ، ومشيئته ، وحكمته ، ورحمته .

وجعل إهمال استعمال العقل سبب عذاب الآخرة .

كذلك آيات النظر العقلى والتفكر والتفكير كثيرة فى الكتاب العزيز . فمن تأملها علم أن أهل هذا الدين هم أهل النظر والتفكر والعقل والتدبر ، وأن الغافلين الذين يعيشون كالأنعام لاحظ لهم منه إلا الظواهر التقليدية التى لاتزكى الأنفس ، ولا تصعد بها فى معارج الكمال .

إن التفكر هو مبدأ ارتقاء البشر ، وبقدر جودتهم يكون تفاضلهم فيه .

وقد كانت التقاليد الدينية حجرت حرية التفكر واستقلال العقل — على البشر حتى جاء الإسلام فأبطل بكتابه هذا الحجر . وأعتقهم من هذا الرق .

واعتماد القرآن الكريم على الحقائق العلمية فى كيفية التعرف على الذات الإلهية هو الذى من أجله اعتبر القرآن الكريم الكفر آفة عقلية ، والإيمان صحة عقلية .

إن القرآن الكريم يجعل الكفرة كالأنعام أو أضل ، من حيث أنهم لا يستخدمون حواسهم وعقولهم فى الوقوف على الحقيقة .

وشر الدواب عند الله هم الكفرة الذين لا يسمعون ولا يعقلون .

يقول الله تعالى : « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون. ولو وعلم الله فيهم خيراً لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون » .

ويقول فى وصفهم أيضاً : « إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » .

ولأن الإيمان صحة عقلية خاطب القرآن العقل فى أكثر من موطن ، وطلب إلى الإنسان ألا يتبع ما ليس له به علم .

إن المؤمن لا يتبع الظنون والأوهام، وإنما يتبع الحقائق الدينية، والحقائق العلمية .

يقول الله تعالى : « ولا تقف ماليس لك به علم . إن السمع والبصر ، والفؤاد، كل أولئك كان عنه مسئولا » .

ويقول الله تعالى : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها .

ومن الجبال جدد وبيض وحمر مختلف ألوانها ، وغرابيب سود .
ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك .
إنما يخشى الله من عباده العلماء .
إن الله غفور رحيم . . . »

ولأن تلك دعوة القرآن إلى استخدام العقل وقف الاستاذ الإمام ممن ينكرون على العقل هذا الحق ، وممن ينفرون المسلمين من العلم وما يمكن أن ينتهى إليه العلم من حقائق ، موقف المستنكر منهم ذلك .

يقول رحمه الله : « هذه الإباحة للنظر والبحث فى الـكون . بل هذا الإرشاد إليها بالصيغ التى تبعث الهمم وتشوق النفوس : كـكون كل مافى الأرض مخلوقا لنا ، محبوسا على منافعنا ، هو مما امتاز به الإسلام فى ترقية الإنسان . . .

لقد خاطبنا القرآن بهذا ، على حين أن أهل الـكتاب كانوا متفقين فى تقاليدهم وسيرتهم العملية على : أن العقل والدين ضدان لا يجتمعـان ، والعلم و لدين خصمان لا يتفقان ، وأن جميع ما يستنتجه العقل خارجاً عن نص الـكتاب فهو باطل . .

ولذلك جاء القرآن الـكريم يلح أشد الإلحاح بالنظر العقلى ، والتفـكر ،والتدبر والتذكر ، فلا تقرأ منه إلا وتراه يعرض عليك الأكوان ، ويأمرك بالنظر فيها واستخراج أسرارها ، واستجلاء حكم اتفاقها واختلافها .

« قل انظروا ماذا فى السموات والأرض »

« قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق »

« أفلم يسيروا فى الأرض فتـكون لهم قلوب يعقلون بها »

« أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت »

إلى غير ذلك من الآيات الـكثيرة جدا .

وإكثار القرآن من شىء دليل على تعظيم شأنه ، ووجوب الاهتمام به .

ومن فوائد الحث على النظر فى الخليقة — للوقوف على أسرارها بقدر الطاقة، واستخراج علومها لترقية النوع الإنسانى الذى خلقت هى لأجله — مقاومة تلك التقاليد الفاسدة التى كان عليها أهل الـكتاب فأودت بهم ،وحرمتهم من الانتفاع بما أمر الله الناس أن ينتفعوا به .

كانت أوروبة المسيحية فى غمرة من الجهل ، وظلمات من الفتن ، تسيل الدماء فيها أنهاراً لأجل الدين ، وباسم الدين ، وللإكراه على الدين .

ثم فاض طوفان تعصبهـا على المشرق ، ورجعت بعد الحروب الصليبية تحمل قبسا من دين الإسلام وعلوم أهله ، فظهر فيهم بعد ذلك قوم قالوا : —

إن لنا الحق فى : أن نتفكر ، وأن نعلم ، وأن نستدل . .

حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس — إن ربكم لرءوف رحيم .

والخيل والبغال والحمير لتركبوها ، وزينة ، ويخلق مالا تعلمون .

وعلى الله قصد السبيل . ومنها جائر — ولو شاء لهداكم أجمعين .

هو الذى أنزل من السماء ماء ، لكم منه شراب ، ومنه شجر فيه تسيمون.

ينبت لكم به الزرع ، والزيتون ، والنخيل ، والأعناب ، ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون .

وسخر لكم الليل والنهار ؛ والشمس والقمر ؛ والنجوم مسخرات بأمره — إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون .

وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه — إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون .

وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها، وترى الفلك مواخر فيه ؛ ولتبتغوا من فضله — ولعلكم تشكرون .

وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ؛ وأنهاراً وسبلا — لعلكم تهتدون .

وعلامات ؛ وبالنجم هم يهتدون .

أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكرون

وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها — إن الله لغفور رحيم ؛ والله يعلم ما تسرون وما تعلنون .

والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً ، وهم يخلقون .

أموات غير أحياء ، وما يشعرون أيان يبعثون .

إلهكم إله واحد ، فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون .

لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون

انه لا يحب المستكبرين

وصدق الله العظيم .

* * *

إن هذه الآيات وأمثالها تؤكد الحقيقة التى انتهى إليها بعض المفكرين المسلمين من قبل ، وهى « أن لله كتابين : كتابا مخلوقا هو الكون ، وكتابا منزلا وهو القرآن »

والكتاب الأول يساعد فى فهم الكتاب الثانى .

والكتابان معاً يهديان إلى الحق وإلى طريق مستقيم

إنهما يهديان الناس الى الخالق بكل ماله من صفات العلم والحكمة ، والقدرة والخبرة ، وما أشبه

كما يدلان دلالة قاطعه على أن هذا الخالق يستحق الشكر والعبادة ، ويستحق الطاعة ، ويستحق الإعظام والتقديس .

وكل هذا هو الذى يستهدفه القرآن الكريم ، ويستهدفه محمد بن عبد الله عليه السلام بتوجيه من القرآن الكريم .

إن سنن الله فى إبداع خلقه ، ونظام الحركة والسكون، والتحليل والتركيب، لايحيط بها علما غيره عز وجل .

وكلما ازداد البشر فيها نظراً وتفكراً ، واختباراً وتدبراً ! وتجربة وتصرفا ، ظهر لهم من أسرارها وعجائبها مالم يكونوا يعلمون ويظنون . ومن منافعها مالم يكونوا يتخيلون ولا يتوهمون . . »

* * *

اتخذ القرآن الكريم من هذه الحقيقة العلميـة الوسيلة إلى التغلب على القوى المضادّة — التغلب عليها من الداخل . ذلك لأن دفعها إلى التفكير فى كيفية الخلق، وفى ظواهر المخلوقات ، هو الذى يدفعها إلى التسليم بكل ما يدعو إليه محمد عليه السلام وذلك الذى يدعو إليه محمد عليه السلام ليس إلا فطرة الله التى فطر عليها الخلق .

ذلك هو الدين القيم .

وإذا أردنا أن نضرب لذلك أمثلة من القرآن الكريم اكتفينا فى هذا المقام بما يلى :

يقول الله تعالى : « إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، ذلكم الله فأنى تؤفكون .

فالق الإصباح ، وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا — ذلك تقدير العزيز العليم .

وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر — قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون .

وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع — قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون .

وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكبا .

ومن النخل من طلعها قنوان دانية .

وجنات من أعناب ، والزيتون ، والرمان ، مشتبها وغير متشابه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه — إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » .

ويقول الله تعالى : «أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ،

وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال : من يحيي العظام وهى رميم ؟

قل : يحييها الذى أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم .

الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون .

أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟

بلى ، وهو الخلاق العليم .

إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون »

ويقول : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين .

ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحماً .

ثم أنشأناه خلقاً آخر — فتبارك الله أحسن الخالقين .

ثم إنكم بعد ذلك لميتون .

ثم إنكم يوم القيامة تبعثون . . »

ولعل من أوضح الآيات فى ذلك هذه الآيات الواردة فى سورة النحل ، والتى تدعو إلى استخدام العقل فى التذكر والتفكير إذ لعله أن يصل إلى الهداية وشكر الخالق على النعم التى تفضل بها على الإنسان وهى كثيرة .

يقول الله تعالى : « خلق السموات والأرض بالحق — تعالى عما يشركون .

خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين .

والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ، ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال

٣

الظواهر الاجتماعية
أو التجربة التاريخية

وتسمى فى القرآن الكريم بسنة الله فى خلقه .

وهذه السنن قد اتخذت وسائل لتحقيق الأهداف التالية :—

الأول : — بيان أن هذا الكون يجرى على سنن مضطردة لا ينالها التغيير والتبديل .

وهذا البيان يوضح أن مشيئة الله تعالى مرتبطة بعلمه وحكمته وكل صفاته الإلهية .

الثانى : — تنبيه وتحذير للذين يقفون من محمد عليه السلام ودعوته موقف المعارضة ، وبيان لهم أن عاقبتهم ستكون مثل عاقبة أولئك الذين وقفوا فى وجه الإصلاح من السابقين عليهم ، وهى عاقبة سيئة على كل حال .

الثالث : — التأكيد للنبي عليه السلام ومن معه بأنهم المنتصرون حتما لأن سنة الله فى خلقه أن الذين يرثون الأرض ومن عليها هم أصحاب الجديد الذين يستهدفون المصلحة العام والخير العام ، والذين يحققون هذا الهدف عن طريق العمل الصالح .

والآيات القرآنية التي تشير إلى التجارب التاريخية التى مرت بها الإنسانية كثيرة جداً فى القرآن الكريم .

والظواهر الاجتماعية التى تشير إليها ، أو التى يمكن الوقوف عليها من هذه التجارب، كثيرة جداً هى الأخرى .

إن الموقف الذى نقفه من هذه الظواهر ، وهذه التجارب ، هو الذى جعلنا عديمى الاستفادة منها .

إننا لم نقف من هذه الآيات موقف الدارس لها ، المستنبط منها لكثير من الظواهر الاجتماعية ، وهذا هو الذى جعلنا نجهل كل ما فيها من علم وخبرة .

لقد درس الفقهاء آيات الفقه ، والحكماء آيات الفلسفة ، والنحويون والبلاغيون قواعد النحو والبلاغة ، وهكذا . . . وهكذا . . ولكن علماء المسلمين لم ينتبه منهم إلا القليل النادر لما فى هذه الآيات من مواعظ وعبر يمكن الاستفادة منها فى فهم الحياة ، وفى الأساليب التى تمارس بها الحياة ، وفى المواقف التى تكون بالنسبة للتجديد وللأساليب الثورية فى عمليات التجديد .

ولقد نعى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده على المفكرين من علماء الدين الإسلامى هذا الموقف ،

ولقد يكون من المفيد أن نضع بين يدى القارىء نصاً من النصوص الواردة فى تفسير المنار عن هذه القضية .

جاء فى المنار عند تفسيره للآية القرآنية الكريمة :

« قد خلت من قبلكم سنن ، فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين .

هذا بيان للناس ، وهدى وموعظة للمتقين . . . » ما يلى : —

إن إرشاد الله إيانا إلى أن له فى خلقه سنناً ، يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علماً من العلوم المدونة لتستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه . . .

ويجب على الأمة فى مجموعها أن يكون فيها قوم يبينون لها سنن الله فى خلقه ، كما فعلوا فى غير هذا العلم من العلوم الشرعية التى وضعت لها الأصول والقواعد ، وفرّعت منها الفروع والمسائل . . .

وإننى لا أشك أبداً فى كون الصحابة رضى الله عنهم كانوا مهتدين بهذه السنن ، وعالمين بمراد الله من ذكرها .

أى أنهم بما لهم من معرفة بأحوال القبائل والشعوب العربية ، ومن التجارب والأخبار فى الحرب وغيرها ، وبما منحوا من الذكاء والحذق وقوة الاستنباط ، كانوا يفهمون المراد من سنن الله تعالى ويهتدون بها فى : حروبهم وفتوحاتهم ، وسياستهم للأمم التى استولوا عليها .

وما كانوا عليه من العلم والتجربة والعمل أنفع من العلم النظرى المحض . وكذلك كانت علومهم كلها .

ولما اختلفت حال العصر اختلافاً احتاجت الأمة معه إلى تدوين علم الأحكام ، وعلم العقائد ، وغيرها ، كانت محتاجة أيضاً إلى تدوين هذا العلم .

ولك أن تسميه علم السنن الإلهية ، أو علم السياسة الدينية ، أو علم الاجتماع . سم ما شئت فلا حرج فى التسمية .

ومعنى الآيات القرآنية : انظروا إلى من تقدمكم من الصالحين والمكذبين ، فإذاً أنتم سلكتم سبيل الصالحين فعاقبتكم كعاقبتهم ، وإن سلكتم سبيل المكذبين فعاقبتكم كعاقبتهم .

ثم يقول رحمه الله :

جاء ذكر السنن الإلهية فى مواضع من الكتاب العزيز .

يقول الله تعالى : « وأقسموا بالله جهد إيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا .

استكباراً فى الأرض ، ومكر السيء ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله .

فهل ينظرون إلا سنة الأولين .

فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا .

أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، وكانوا أشد منهم قوة .

وما كان الله ليعجزه من شيء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليما قديرا .

ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى .

« فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا . . . »

وصرح القرآن الكريم فى سور أخرى ، كما صرح هنا ، بأن سنته لا تتبدل ولا تتحول . كسورة بنى إسرائيل ، وسورة الأحزاب ، وسورة الفتح ، وغيرها .

هذا الإرشاد الإلهى لم يعهد فى كتاب سماوى — ولعله أرجىء إلى أن يبلغ الإنسان كمال استعداده الاجتماعى ، فلم يرد إلا فى القرآن الكريم الذى ختم الله به الأديان .

كان المليون من جميع الأجيال يعتقدون أن أفعال الله تعالى فى خلقه تشبه أفعال الحاكم المستبد فى حكومته ، المطلق فى سلطته ، فهو يحابى بعض الناس فيتجاوز لهم عما يعاقب لأجله غيرهم ، ويثيبهم على العمل الذى لا يقبله من سواهم لمجرد دخولهم فى عنوان معين ، وانتمائهم إلى نبى مرسل ، وينتقم من بعض الناس لأنهم لم يطلق عليهم ذلك العنوان ، أو لم يتفق لهم الانتماء إلى ذلك الإنسان .

هذا ما كانوا يظنون فى دينهم ، ويسندونه إلى مشيئة الله تعالى المطلقة من غير تفكير فى حكمته البالغة وتطبيقها على سننه العادلة .

فإن نبههم منبه إلى ما يصيبهم ، بل ما أصاب أنبياءهم ، من البلاء قالوا : إنه تعالى يفعل ما يشاء .

وذلك رفع درجات ، أو تكفير سيئات ، وأشباه هذا الكلام الذى يشتبه عليهم حقه بباطله ، ويلتبس عليهم طاليه بعاطله — وقد كان وما زال علة غرور أصحابه بدينهم ، واحتقارهم لكل ما عليه غيرهم .

فجاء القرآن الكريم يبين للناس أن مشيئة الله تعالى فى خلقه إنما تنفذ على سنن حكيمة ، وطرائق قويمة .

فمن سار على سنته فى الحرب مثلا ظفر بمشيئة الله — وإن كان ملحداً أو وثنياً .

ومن تنكبها خسر — وإن كان صديقاً نبياً . . .

وعلى هذا يتخرج انهزام المسلمين فى وقعة أحد حتى وصل المشركون إلى النبي صلى الله عليه وسلم فشجوا رأسه ، وكسروا سنه ، وردوه فى تلك الحفرة .

ولكن المؤمنين الصادقين أجدر الناس بمعرفة سنن الله تعالى فى الأمم ، وأحق الناس بالسير على طريقها . . .

لذلك لم يلبث أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن ثابوا إلى رشدهم . . .

وكأن بعض المسلمين لم يكونوا قد حفظوا ما ورد فى السور المكية من إثبات سنن الله فى خلقه ، وكونها لا تتبدل ولا تتحول ، كسور : الحجر ، وبنى إسرائيل ، والكهف ، والملائكة أو فاطر ـ وهى التى ذكرنا بعضها آنفاً ، وأشرنا إلى بعض .

أو حفظوه ولم يفقهوه ولم يظهر لهم انطباقه على ما وقع لهم فى أحد ، كما يعلم من قوله تعالى : —

« أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم : أنى هذا ؟

قل : هو من عند أنفسكم . . . »

لذلك صرح لهم فى بدء الآيات التى تبين لهم سنته أن لهم سننا عامة جرى عليها نظام الأمم من قبل ، وأن ما وقع لهم مما يقص عليهم حكمته ، هو مطابق لتلك السنن التى لا تتحول ولا تتبدل . . .

ولما كان التعليم بالقول وحده من غير تطبيق على الواقع مما ينسى أو يقل الاعتبار به ، نبههم على هذا التطبيق فى أنفسهم وأرشدهم إلى تطبيقه على أحوال الأمم الأخرى فقال تعالى : —

« فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » .

فسيروا فى الأرض ، واستقروا ما حل بالأمم ، ليحصل لكم العلم الصحيح التفصيلى بذلك — وهو الذى يحصل به اليقين ، ويترتب عليه العمل .

والسير فى الأرض والبحث عن أحوال الماضين ، وتعرف ما حل بهم ، هو الذى يوصل إلى معرفة تلك السنن والاعتبار بها كما ينبغى .

نعم ، إن النظر فى التاريخ الذى يشرح ما عرفه الذين ساروا فى الأرض ، ورأوا آثار الذين خلوا ، يعطى الإنسان من المعرفة ما يهديه إلى تلك السنن ، ويفيده عظة واعتبارا — ولكن دون اعتبار الذى يسير فى الأرض بنفسه ، ويرى الآثار بعينه .

ولذلك أمر سبحانه ثم اتبع ذلك بقوله تعالى : —

« هذا بيان للناس ، وهدى وموعظة للمتقين . . . »

كأنه يقول : إن كل إنسان له عقل يعتبر به ، فهو يفهم أن السير فى الأرض يدله على تلك السنن — ولكن المؤمن المتقى أجدر بفهمها لأن كتابه أرشده ا . وأجدر كذلك بالاهتداء والاتعاظ بها .

وقد بينا فى تفسير سورة الفاتحة أن لسير الناس فى الحياة سنناً يؤدى بعضها إلى الخير والسعادة ، وبعضها إلى الهلاك والشقاء .

وأن من يتبع تلك السنن فلابد أن ينتهى إلى غايتها -- سواء كان مؤمناً أو كافراً .

ومن هذه السنن أن اجتماع الناس وتواصلهم وتعاونهم على طلب مصلحة من مصالحهم يكون مع الثبات من أسباب نجاحهم ، ووصولهم إلى مقصدهم — سواء كان ما اجتمعوا عليه حقاً أو باطلا .

فالقرآن يهدينا فى مسائل الحرب والتنازع مع غيرنا إلى أن نعرف أنفسنا وكنه استعدادنا لنكون على بصيرة من حقنا ، ومن السير على سنن الله فى طلبه وفى حفظه .

وأن نعرف كذلك حال خصمنا ، ونضع الميزان بيننا وبينه — وإلا كنا غير مهتدين ، ولا متعظين » .

* * *

وقد عنى الأستاذ الإمام بهذه السنن الإلهية أو هـذه الظواهر الاجتماعية ، وأشار إلى بعضها عند تفسيره للآيات القرآنية الوارد فيها ذكر لهذه السنن .

ومن السنن التى أشار إليها ما يلى :—

١ ـ ما يثبت بالمشاهدة والاختبار من تفاوت البشر فى الاستعداد للإيمان والكفر وفيهما ، وفى الاستعداد للخير والشر وفهما .

وجزاء الله تعالى على الأعمال فى الدنيا والآخرة يجرى على أساس من هذا التفاوت . فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

٢ ـ ما ثبت بالاستقراء من كون الظلم فى الأمم يقتضى عقابها :

فى الدنيا بالضعف والانحلال الذى قد يفضى إلى فقد الاستقلال ، وكون هذا العقاب على الأمة بأسرها لا على مقترفى الظلم وحدهم .

قال تعالى : « واتقوا فتنه لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » .

وذلك أن الفتن فى الأمم ، والظلم الذى ينتشر فيها ولا يقوم من أفرادها وجماعاتها من يقاومه ، يعم فساده .

٣ ـ كون التقوى والحذر فى الأعمال من فعل وترك فى الشئون العامة والخاصة من : اجتماعية ، وشخصية ـ دينية أو دنيوية ، تكسب صاحبها ملكة يفرق فيها بين الحق والباطل ، والخير والشر ، والمصلحة والمفسدة ، فيجرى فى أعماله على مراعاة ذلك فى ترجيح : الحق والخير والمصلحة على ما يقابلهن . إلا فيما عساه يعرض له من جهالة أو سهو أو نسيان لا يلبث أن يرجع عنه إذا ذكر أو تذكر .

٤ ـ كون تغير أحوال الأمم وتنقلها فى الأطوار من نعم ونقم أثراً طبيعياً

قطرياً لتغييرها ما بأنفسها من العقائد ، والأخلاق ، والملكات التى تطبقها فى الأنفس والعادات وتترتب عليها الأعمال •

٥ ـ كون ولاية الأعداء من دون الأولياء من أعظم مثارات الفتنة والفساد فى الأمة ، والاختلاف والانحلال فى الدولة •

كولاية المؤمنين فى النصرة والقتال للكافرين الذين يوالى بعضهم بعضاً على المؤمنين فى الحروب •

* * *

هذه السنن وأمثالها هى التى أصبحت وسائل يستثمرها محمد بن عبد الله عليه السلام فى الصراعات الدائرة بينه والذين معه من جانب ، والمشركون وأهل الكتاب من الجانب الآخر .

ودور هذه السنن فى الصراع أنها تبصر الفرقاء جميعاً بالنهاية التى سينتهى إليها هذا الصراع .

وقد يكون من المفيد أن نقف عند توجيهات القرآن الكريم لمحمد عليه السلام فى كيفية الانتفاع بهذه السنن . الانتفاع بها بالنسبة لنفسه وما يلم بها من خواطر ، والانتفاع بها بالنسبة لموقفه من الخصوم .

وتبدأ العملية ببدء الدعوة الإسلامية . تبدأ بتحديد الغاية التى من أجلها قامت الدعوة .

والدعوة الإسلامية بدأت كما تبدأ كل دعوة صادقة . بدأت بالعمل فى سبيل القضاء على ما فى الحياة من انحرافات ، وبالعمل على بناء مجتمع جديد تتحقق فيه العدالة ، وينتفى فيه الظلم .

ولقد كان الأقدمون من علماء الدين الإسلامى صادقين فى نظرتهم حينما أطلقوا على البلاد الإسلامية اسم « دار العدل » — أى البلاد التى يجب أن يتحقق فيها العدل .

والدعوة إلى القضاء على الفساد ، وإلى قيام مجتمع جديد ، لا تقابل أبداً بالتسليم فإنما لابد من معارضة ، ولا بد من قوى مضادة .

ولقد سبق لنا أن ذكرنا العوامل التى تؤثر فى قيام المعارضة ، وفى تمسك القوى المضادة بالقيم التى يجرى عليها العمل . كما سبق لنا أن ذكرنا الوسائل التى اعتمد عليها الخصوم فى سبيل القضاء على محمد عليه السلام والذين معه من حيث أن فى ذلك قضاء على الدعوة نفسها .

إننا هنا إنما نشير فقط إلى تلك السنن التى اعتمد عليها القرآن الكريم فى تبصرة محمد عليه السلام بكل أبعاد الموقف .

لقد ذكر القرآن الكريم أن لكل نبي ، أو لكل داع إلى إحداث تغييرات جذرية فى الأساليب التى تمارس بها الحياة وفى القيم التى تستند إليها تلك الأساليب ، أعداء يقفون فى وجهه ، ويعارضونه ، ويستخدمون الأساليب المختلفة فى سبيل القضاء عليه .

يقول الله تعالى : « وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيراً »

ويقول : « وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً : شياطين الإنس والجن ، يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول ، غروراً .

ولو شاء ربك ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون .

ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وليرضوه ، وليقترفوا ما هم مقترفون .

أفغير الله أبتغى حكما ؟ وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا .

والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، فلا تكونن من الممترين . وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ، لا مبدل لكلماته ، وهو السميع العليم .

وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن ، وإن هم إلا يخرصون .

إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين .. »

وهؤلاء الأعداء الذين يشير إليهم القرآن الكريم ويجعل من وجودهم ظاهرة اجتماعية لاتتخلف كلما كانت هناك عملية تجديد وعمليات تغيير ، يتمثلون فى زمن محمد عليه السلام ، وفى مواجهته ، فى نوعين من المؤسسات :

المؤسسات الدينية

والمؤسسات الرأسمالية .

وعدة النوع الأول كما سبق أن ذكرنا هم العلماء بالدين من الأحبار والرهبان ، والقساوسة والكهان ، وما أشبه .

وعدة النوع الثانى كما سبق أن ذكرنا أيضاً ، هم الأغنياء الأقوياء من التجار ومن إليهم .

ومن هذه المؤسسات كانت القوة والخشية بحيث بدأت الدعوة الإسلامية سرية لاعلنية . فقدكان محمد بن عبدالله عليه السلام يقدر أن اصطدامه بهذه المؤسسات قبل أن يكثر من حوله الأنصار والأعوان يعرضه لأخطار قد تقضى عليه وعلى دعوته :

على أن الأمر لم يلبث أن عرف ، وأخذت هذه المؤسسات فى مقاومة الدعوة الجديدة .

كان من أسلحتها تكذيب الدعاه ، والاستهزاء والسخرية بهم وبأفكارهم ، كما سبق أن أشرنا أيضاً .

وأشار القرآن الكريم إلى هذا الموقف ، وقرره على أنه الظاهرة الإجتماعية التى لاتتخلف . الظاهرة التى وجدت مع كل نبى ، وكل رسول ، جاء قبل محمد عليه السلام .

يقول الله تعالى : « ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون »

ويقول : « ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الأولين ، وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون .

كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين . لايؤمنون به ، وقد خلت سنة الأولين »

ويقول : « ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى جاءهم نصرنا ... » الخ

أخذت القوى المضادة تستخدم الأسلحة التى سبق أن أشرنا إليها على أنها من وسائل المشركين وأهل الكتاب .

كان لهذه الأسلحة أو لهذه الوسائل ردود فعل مختلفة عند محمد عليه السلام . وهذه الردود هى التى تعنينا فى هذا المقام .

إن ردود الفعل هذه كانت كافية — لولا توجيهات من القرآن الكريم — على أن تفسد على محمد عليه السلام وسائله التى يعتمد عليها فى التمكين للدعوة الجديدة من الأرض العربية ثم الأرض الإسلامية .

لقد أخذت المخاوف تتسرب إلى ذهنه . المخاوف من ألا يكون على الحق ، والمخاوف من أن يقضى على الدعوة قبل التمكين لها .

وكانت هذه المخاوف تخلق فى نفسه خواطر معينة . من مثل أن ينصرف عن الدعوة ، أو يجيب الله طلبات المشركين من الآيات المعجزة وما أشبه .

وجاء القرآن الكريم يبين له أن ما يلقاه من الأذى هو الأمر الذى يحدث دائماً لكل المجددين من الأنبياء والمرسلين .

وأن الإيمان بالجديد لابد له من فترة زمنية ، وليس للمعجزات أى شأن فى خلقه ، وإنما الشأن كل الشأن لسنن الله فى خلقه ، أو لفطرة الله التى فطر الناس عليها .

وأن النصر قادم لامحالة ، ولـكن بعد صبر ومعاناه .

لا بد من التمكين للجديد الذى يحقق الخير العام، ويستهدف الحياة الأفضل .

وكل ذلك يتحقق بعد أن يكثر عدد المؤمنين بالمبادىء الجديدة .

والذين يلتفون حول الدعوة هم الذين يرون فيها مصلحة لهم ، وهؤلاء يكونون فى أول الأمر من الطبقة الدنيا ثم المتوسطة .

على هذا كله وردت الآيات التى تؤكد أن كل ماحدث لم يكن إلا من الظواهر الإجتماعية التى يسميها القرآن الكريم بسنة الله فى خلقه .

وقد إلتفت المحدثون من المفسرين إلى ذلك كله .

* * *

فمن سنة الله فى خلقه المبينة فى آيات كثيرة من كتابه ، أن أول أتباع خاتم الرسل كأتباع من تقدمه من الرسل كانوا من الضعفاء الفقراء .

وأن أعداءه عليه السلام كأعداء من سبقه من الرسل ، كانوا من المترفين — أى من الأكابر والرؤساء .

وأن هؤلاء الأعداء المستكبرين عن الإيمان كانوا يحتقرون السابقين إلى الإيمان ، ويذمونهم ، ويعدون أنفسهم معذورين أو محقين بعدم الرضا لأنفسهم بمساواتهم .

وكانوا يقترحون على الرسل فى بعض الأوقات طردهم وإبعادهم .

قال الله تعالى فى سورة سبأ : « وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها: إنا بما أرسلتم به كافرون .

وقالوا : نحن أكثر أموالا وأولاداً وما نحن بمعذبين . »

وقال تعالى فى سورة هود حاكياً قول الملاء من قوم نوح: « وما نراك أتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى .

وقول نوح لهم : « وما أنا بطارد الذين آمنوا .. »

وقد حكى الله عن كفار قريش أنهم قالوا فى الضعفاء : « لو كان خيراً ما سبقونا إليه »

وقال فى شأنهم فى سورة مريم : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا : أى الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً، وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورئيا »

* * *

ومن سنة الله فى خلقه أن الدعاة قبل أن يكثر من حولهم الأنصار والأعوان — أى المؤمنين بالعقيدة الجديدة — يكونون فى حالة من القلق ، وحالات من الإشفاق والحذر ، تجعلهم دائمى التفكير فى موقفهم وموقف الخصوم ، وتجعلهم دائماً فى الموقف الأضعف الذى تنشأ فيه الخواطر والأفكار القلقة غير الثابتة .

وهذا هو الذى وقع لمحمد عليه السلام .

كان يخشى أن يكون هذا الذى ينزل عليه ليس الحق ، فأبعد القرآن الكريم عن ذهنه هذا الخاطر .

يقول الله تعالى : « فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فأسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك . لقد جاءك الحق من ربك ، فلا تكونن من الممترين ... »

وكان يحزن ويضيق صدره بالأذى يقع عليه وعلى أعوانه ، وبما يقولون فى شأنه من أقوال سيئة ، فجرى فى خاطره أن ينصرف عن هذه الدعوة التى تسبب له كل هذه المتاعب .

ووقف القرآن الكريم إلى جانبه يوجهه إلى ما فيه مصلحته ، ومصلحة قومه ، ومصلحة الأمة الإسلامية .

يقول الله تعالى : « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا : لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك .

إنما أنت نذير

ويقول تعالى : « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون — »

ويعلق الأستاذ الإمام على الآية الأولى « فلعلك تارك » بقوله : —

أى أفتارك أنت أيها الرسول بعض مايوحى إليك مما يشق سماعه على المشركين من الأمر بالتوحيد، والنهى عن الشرك ، والإنذار والوعيد الشديد لهم، والنعى عليهم ...

وضائق به صدرك أن تبلغهم إياه كله كما أنزل — كراهة أن يقولوا : لولا أنزل عليه كنز ... الخ

أى أن ضيق الصدر وكتمان بعض الوحى مما يخطر بالبال ، وشأنه أن تقتضيه الحال بحسب المعهود من طباع الناس ...

فهل أنت مجترح لهذا الترك ، أو مستسلم لما يعرض لك بمقتضى البشرية من ضيق الصدر ؟

كلا ، لاتفعله ...

أى لعلك قاتلها غما وإنتحاراً ؟ لا تفعل .

وحاصله ، أن عنادهم ، وجحودهم ، وإعراضهم عن الإيمان ، وشدة إهتمامك بأمرهم فيما ليس أمره بيدك ، مما من شأنه أن يفضى إلى ذلك لولا عصمتنا إياك وتثبيتنا لك .

فهل تصر عليه حتى تبخع نفسك ؟

لا ، لا ،

ويوضح هذا المعنى فى كون الإرشاد مبنياً على بيان الواقع فى تلك الوقائع ، قوله تعالى : « : « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا . . الخ »

إنما أنت نذير فعليك أن تبلغ جميع ما أمرت أن تبلغه وإن ساءهم وأطلق ألسنتهم ...

والله على كل شيء وكيل ، فهو الموكل بأمور العباد ، والرقيب عليهم فيها ، وليس عليك منها شيء . لأنها من أمور الخلق والتدبير — لا من موضوع التعليم والتبليغ ، الذى هو وظيفة الرسل ، كما قال فى آيات أخرى .

« ليس عليك هداهم ، ولكن الله يهدى من يشاء . »

« فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر ... »

« نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار »

* * *

وموقف القرآن الكريم من محمد عليه السلام موقف الكاشف له عن سنن الله فى خلقه ، كما سبق أن ذكرنا .

ولذا نرى القرآن يمضى معه إلى أبعد مما تقدم فيقول له : —

« يأيها الرسول : بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته . والله يعصمك من الناس »

« فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين .

إنا كفيناك المستهزءين الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر ... »

« قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون . فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون .

ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا .

ولا مبدل لكلمات الله .

ولقد جاءك من نبأ المرسلين .

وإن كان كبر عليك إعراضهم ، فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلماً

فى السماء فتأتيهم بآية ـ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ، فلا تكونن من الجاهلين » .

« إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيرا .

ولا تسأل عن أصحاب الجحيم . . .

ويعلق الأستاذ الإمام على هذه الآية فيقول :

أى فلا يضرك تكذيب المكذبين الذين يساقون بجحودهم إلى الجحيم ـ لأنك لم تبعث ملزما لهم ولا جباراً عليهم فيعد عدم إيمانهم تقصيرا منك تسأل عنه ، بل بعثت معلماً وهاديا بالبيان ، والدعوة ، وحسن الأسوة .

لا هاديا بالفعل ، ولا ملزما بالقوة . . .

وفى الآية تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم لئلا يضيق صدره ، كما تدل على ذلك آيات أخرى . . .

وفى الآية من العبرة، أن الأنبياء بعثوا معلمين لا مصيطرين، ولا متصرفين فى الأنفس ، ولا مكرهين. فإذا جاهدوا فإنما يجاهدون دفاعا عن الحق لا إكراها عليه.

وفيها ، أن الله تعالى لا يطالب الناس بأن يأخذوا عنهم إلا العلم الذى يهديهم إلى :

معرفة حقوق الله .

ومعرفة حقوق العباد .

* * *

كان معنى التوجيهات السابقة أن يستمر محمد بن الله عليه السلام فى تأدية وظيفة النبوة من غير أن يستعجل النتائج ، لأن النتائج وهى تصديق الناس له ، وإيمانهم بالعقيدة الجديدة ، وممارستهم للحياة على أساس من العقيدة ، يجرى على أساس من سنن الله فى خلقه .

وسنن الله فى خلقه تستغرق من الأزمان ما تطول مدته عن تلك المدة التى يقدرها الرسل والأنبياء فى العادة .

إن الرسل والأنبياء ، وإن الدعاة للمبادىء الجديدة ، يرغبون دائما فى النجاح السريع الذى يحقق كل الأهداف التى يرغبون فى تحقيقها .

وإن سنن الله فى خلقه تقتضى عمليات داخلية فى عقل الإنسان وعواطفه ، ومعتقداته القديمة ، تنتهى بها إلى طرح القديم والتمسك بالجديد ، أو التفاعل بينهما تفاعلا يتم لصالح الجديد . وكل ذلك يقتضى زمنا تستمر فيه الدعوة ويستمر فيه التفاعل .

وفى هذه الفترة الزمنية التى قد تطول يتحقق أمران :

الأول منهما أشرنا إليه مراراً ، وهو الأذى ينال الدعاة ومن آمن بهم .

وفى ذلك يقول القرآن الكريم للمسلمين الأولين ، وللنبى عليه السلام .

« لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً » .

ويقول : « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم .

إن الذين كفرو ، وصدوا عن سبيل الله ، وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى ، لن يضروا الله شيئاً .

وسيحبط أعمالهم . . . » .

وصدق الله فقد أحبط أعمالهم وانتصر محمد عليه السلام عليهم ، وحقق أهدافه .

والثانى منهما : انتصار الجديد . . .

وانتصار الجديد على القديم . الجديد الذى يحقق الصالح العام على القديم الذى أصبح غير صالح للحياة ، سنة أخرى من سنن الله فى خلقه . ولا يكون إلا بعد جهد ومشقة ، وبأس ومعاناة .

يقول الله تعالى : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا

من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء ، وزلزلوا ، حتى يقول الرسول والذين آمنوا : متى نصر الله ؟

إلا إن نصر الله قريب . . . » .

ويقول : « حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا ، جاءهم نصرنا .

فنجى من نشاء .

ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين . . »

ويقول : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا »

ويقول : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين . . . » .

ويقول : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر :

أن الأرض يرثها عبادى الصالحون . . » .

وإنما الصالحون فى عرف المفسرين هم الذين يصلحون لإقامة الحق والعدل وسائر شرائع الله وسننه فى العمران .

ويقول الأستاذ الإمام : ومدار هذه السنة على أن العاقبة فى التنازع بين الأمم على الأرض التى تعيش فيها أو تستعمرها : للمتقين .

أى الذين يتقون أسباب الضعف والخذلان والهلاك ...

والذين يتلبسون بسائر ما تقوى به الأمم من الأخلاق والأعمال . . .

وهذان الأمران هما أعظم ما تتفاضل به الأمم من القوى المعنوية ...» .

وصدق الله العظيم حين يقول :

« ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات — وما كانوا ليؤمنوا .

كذلك نجزى القوم المجرمين .

ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ؟ ... »

* * *

ونقف عند هذا الحد من الحديث عن السنن ، ومن أراد المزيد منها فيما يتعلق بمحمد عليه السلام فليرجع إلى كتابنا « الفن القصصى فى القرآن الكريم » ففيه كل ما يتصل بمحمد عليه السلام من حيث الظواهر الاجتماعية .

وكتاب الفن القصصى كتب بعد هذا ، وإن يكن قد تم طبعه قبل هذا — طبع عدة مرات .

والطبعة المعروضة فى دور النشر الآن هى الطبعة الرابعة .

الوسائل الفنيـة أو الأدبيـة

إذا كان القرآن الكريم قد اعتمد فى دفاعه أو هجومه على كثير من الآراء الشائعة فى البيئة إذ ذاك فإنه أيضاً قد استثمر ما فى الإنسان من قوى نفسية ، فكان يستثير كثيراً من الإنفعالات والعواطف والغرائز الإنسانية حين يجادل خصومه أو حين يحاول التأثير فيهم .

وصلة العواطف والإنفعالات بالأفكار والآراء صلة قوية لا يستطيع أحد أن ينكرها .

فالأفكار ذات تأثير لا يسعنا إنكاره فى حياتنا الفردية والإجتماعية ، وهذا التأثير لا يتم إلا إذا إستندت هذه الأفكار إلى دعائم عاطفية . بل نجد كثيراً من الأفكار مصدرها المشاعر والعواطف .

ونحن لا نستطيع أن نمضى فى شرح تلك المسألة والتدليل عليها ، فموضوعنا فى هذا الفصل إنما هو ملاحظة ما اعتمد عليه القرآن منها. ويكفى أن نقول إن القرآن بكثرة استثارته لهذه العواطف يلفت الذهن إلى أنه قد اهتم بها ، ولاحظ قدرتها على التأثير فى أفكار الناس وآرائهم .

وأظننا لسنا بحاجة إلى أن ندل على أن من مثيرات العواطف والإنفعالات الفنون،والفنون بجميع ألوانها تقريباً من موسيقى ونحت وتصوير وأدب . والصور الأدبية تستثير فينا كثيراً من الانفعالات ، ولعلها تستثيرها بما تحييه فى أنفسنا من مواقف أو مثيرات طبيعية شبيهة بتلك ، أو على أقل تقدير تذكرنا بها .

وأول الأشياء التى نصورها فى هذا الفصل غريزة التدين وهى غريزة مكونة من جملة غرائز ، فهى غريزة معقدة : يقول ماكدوجل (والغرائز الثلاث التى تقوم عليها الديانات هى الإعجاب والرعب والاحترام .
فالإعجاب تعجب مع إستسلام وخضوع ، والرعب إعجاب مع خوف، والاحترام أو التقديس رعب مع شىء من الحنان » .

وتبدو مظاهر هذه الغريزة فى كثير من الانفعالات ، أو إنفعال واحد معقد

أيضاً هو التقديس لذات يعتقد أنها فوق الذوات ، لما من القوة والقدرة ماتستطيع أن تحول به الأمور كيفما تشاء وأنى تشاء.

والقرآن يتحدث عن التدين على أنه فطرة الله ، هذه الفطرة التي يصرح بها فى قوله :

«فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم، ولكن أكثرالناس لا يعلمون .منيبين إليه وأتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين » .

والقرآن يلحظ أن التدين لا يكون موجهاً إلى إله واحد . بل قد يسلم الإنسان نفسه إلى وثن أو إنسان أو مبدأ فيقول :

« إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون أفكا »

ويقول :

«ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله.»

ويقول :

«إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ».

وهذا الانفعال المعقد كما ذكرنا يشتمل على كثير من الانفعالات الأولية ، فهو يتضمن الإعجاب ، وهذا بدوره يتضمن العجب والشعور بالخضوع أو الاستسلام ، ثم قد ينضم إليه الخوف فتكون الروعة والإجلال .

والإجلال ينتابنا حين نشعر أن القوى التى تثير إعجابنا وخوفنا هى قوى تعنى بنا وتسهل لنا السبل ، ولذلك لايشعر الإنسان فى هذا العصر بالإجلال الصحيح إلا بالنسبة للخالق سبحانه وتعالى . فإن أجل إنسان آخر فإنما يجله لشعوره بأن هذا الإنسان يمثل له القوة الآلهية .

وقد فطن إخوان الصفاء إلى هذه الغريزة . كما فطن إليها ابن رشد . وصرح ابن رشد بأن القرآن قد اعتمد فى التدليل على وجود الخلق بدليلين هما . دليل العناية ، ودليل الاختراع.

* * *

إذا كان هذا الانفعال من الانفعالات المعقدة كان من المستحسن أن نتناول هذه الانفعالات واحداً واحداً . فنتحدث عن الخوف ، ونتحدث عن الاستسلام ، ونتحدث عن غيرهما من الانفعالات، كل فى حديث خاص ، ولذلك سأذكر هنا إعتماد القرآن على إثارة التقديس والإجلال فى جدله.

اعتمد القرآن على إثارة هذا الانفعال فى كثير من المواطن فنراه يقول فى الدفاع عن نفسه أمام من يقولون بالبنوة :

— «وإنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا » .

ويقول :

«وقالوا اتخذ الرحمن ولدا، لقد جئتم شيئاً إدا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا ، وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا. ان كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا. لقد أحصاهم وعدهم عدا. وكلهم آتية يوم القيامه فرداً »

ويقول : «وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون . بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم . ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل . لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » .

ويقول فى سبيل الدفاع عن الوحدانية :

« وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون »

ويقول: « تبارك الذى نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً . الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شئ فقدره تقديراً . واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون، ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعاً ولا يملكون موتا ولا حياة لا نشورا » .

فهو فى آية الجن يعتمد على ذلك التقديس الذى يحوط به البشر الله فينزهه سبحانه وتعالى عن أن تكون له صاحبه أو أن يكون له ولد . وهو فى آية مريم يخبرهم بأنهم قد أتوا شيئاً خطراً حتى لتكاد السموات يتفطرن وحتى لتكاد الأرض أن تنشق والجبال أن تخر. هذا الشئ هو إدعاؤهم أن للرحمن ولدا. ثم هو يعتمد على ما بالنفس من تقديس وإجلال للإله ، وما بها من خضوع وإستسلام ، فيقول ما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا . ويخبرهم بأن كل ما فى السموات والأرض آتى الرحمن عبدا .

وهكذا نجد القرآن يذكرهم بما للإله من قدرة وما له من ذات يجب أن تنزه عن كل نقص ، وأن يبعد عنها كل ما من شأنه أن يشين .

* * *

الخوف

من الأشياء التى لاحظناها فى أساليب القرآن الجدلية استثارته لعاطفة الخوف، وهذه العاطفة تستثار بأشياء كثيرة ، فهناك استثارتها بالتهديد والوعيد ، وهناك استثارتها بعرض الصور الأدبية التى تقص أحوال المارقين وتصور ما نزل بهم من المصائب، وهناك استثارتها بوصف جهنم وما فيها من طعام أو شراب . ثم هناك استثارتها بالعدوى النفسية وهى تمثل الإنسان للخوف ،وإشعاره الغير بأنه خائف وجل ، فإنها إذ ذاك تستثار فى الغير غالباً .

والقرآن يصور من الظواهر النفسية لهذه العاطفة الشئ الكثير .
فهناك صلتها بالتدين أو الإيمان. والقرآن يقصر عمل الداعى أو الرسول فى بعض الأحيان

على الذين استعدت نفوسهم وتهيأت قلوبهم للاستجابة ، أولئك الذين يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب فتراه يقول :

«وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون »

ويقول : « وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً » .

والمثيرات التى تستعمل فى التهديد والوعيد لا تثير الخوف إلا إذا اعتقد الإنسان أنها مصدر حقيقى للخوف ، فإذا لم يفهم لها هذه القوة لم يخف ، ونلحظ هذا من استعمال القرآن وتسجيله لهذه الظاهرة النفسية :

يقول الله تعالى : « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً . وإذا قلنا لك أن ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة فى القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيراً » .

ونلحظ أيضاً أن قوم إبراهيم خوفوه آلهتهم فلم يخف قال تعالى :

« وحاجه قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدان ، ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئاً ، وسع ربى كل شيء علما أفلا تتذكرون ؟ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون » .

وقوم محمد صلى الله عليه وسلم يهددونه فيذهب الله عن نفسه أو يبعد عن ذهنه أن يكون لتهديدهم هذا أى أثر فيقول :

« أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه . ومن يضلل الله فما له من هاد » .

وكما صور القرآن ذلك من حال الأنبياء مع أممهم صوره أيضاً من حال الكفرة

أو المشركين مع الأنبياء ، فهؤلاء يخوفونهم فلا يخافون ، ويذهبون إلى درجة التحدى ، قال الله تعالى :

« وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » .

والرازى قد فطن لتلك الظاهرة ، ولذا نراه يقول عند تفسيره لقوله تعالى :

« ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعاً » .

« واعلم أن الإنسان إنما يحزن من وعيد الغير وتهديده ومكره وكيده لو جوز كونه مؤثراً فى حاله ، فإذا علم من جهة علام الغيوب أن ذلك لا يؤثر ، خرج من أن يكون سبباً لحزنه » .

ومن هنا كان الكفرة والمشركون يخافون أحياناً من المؤمنين أكثر من خوفهم من الله .

قال تعالى : « لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله » .

أما سلطان الخوف على تبدل الآراء وتغيرها فشىء واضح كل الوضوح من كثير من الآيات .

قال تعالى : « ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون » .

وقال تعالى :

« قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون » .

والتعبير فى آخر الآية السابقة بتنسون ما تشركون يدل على أنه إلى أى حد لاحظ القرآن سلطان الخوف حتى فى التعبير .

فالواقع أن الإنسان حين يخاف إنما يلجأ إلى من يعتقد منه الحماية وإن كان عدوا وينسى كل ما عداه .

يقول الزمخشرى :

« وتنسون ما تشركون وتتركون آلهتكم أو لا تذكرونها فى ذلك الوقت، لأن أذهانكم فى ذلك الوقت مغمورة بذكر ربكم وحده إذ هو القادر على كشف الضر دون غيره » .

وقال تعالى : « ألم تر إلى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون . الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون إذ الاغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسجرون ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً كذلك يضل الله الكافرين » .

فهذا الإنكار من دعوة الآلهة وعبادتها أثر من آثار الخوف .

وعلة هذا التبدل أن الإنسان حين يكون منفعلا يجرى عقله فى مسالك ضيقة، ويتجه ذهنه إتجاها يحتمه عليه هذا الانفعال ، فلا يرى من الآراء إلا ما توحيه الظروف وتحتمه الحوادث

وفى الآيات السابقة ما يؤيد هذا.

على أن القرآن يصور لنا شيئاً أبعد من هذا من أثر الخوف ، ذلك هو أن الإنسان قد ينسى نفسه إلى درجة أن يذهب إلى ما يناقض آراءه السابقة، كما أنه قد يتحير فى أمره فيتجه فى الرأى اتجاهات مضادة .

يقول الزمخشرى: عند تفسيره لقوله تعالى: «ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ، ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين » .

فإن قلت كيف يصح أن يكذبوا حين يطلعون على حقائق الأمور ، وعلى أن الكذب والجحود لا وجه لمنفعته .

قلت الممتحن ينطق بما ينفعه وبما لا ينفعه من غير تمييز بينهما حيرة ودهشا ، أتراهم يقولون ربنا اخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ، وقد أيقنوا بالخلود ولم يشكوا فيه ، ونادوا يامالك ليقض علينا ربك وقد علموا أنه لا يقضى عليهم .

وقوله : «ويوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ،ألا أنهم هم الكاذبون » .

والقرآن يكثر من تصوير هذه الظاهرة — ظاهرة تبديل الآراء أو تذبذبها واضطرابها وقت الخوف،ونلحظ من تصوير القرآن أن هذا التبدل وقتى ، فالنفوس حين تأمن تهدأ وترجع إلى حالها الأولى مستقرة على ما كانت عليه .

قال الله تعالى : « ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما . وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً » .

وقال : « ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ، بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهو عنه وأنهم لكاذبون » .

نستطيع الآن أن نؤكد أن القرآن استفاد من تلك الظاهرة التى صورها فى الآيات السابقة وهى قدرة الخوف على ذبذبة النفوس وتبدل الآراء ، كما استفاد من ظاهرة أخرى هى محاولة المرء الهرب أو الابتعاد عما يخيف حين يربط بين الخوف وبين كثير من الآراء التى يود هدمها أو القضاء عليها .

تلك الظاهرة التى نجدها مصورة فى قوله تعالى :

« قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين. ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا ، يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون .

وقال : « الله الذى أنزل الـكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب، يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ،والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق،ألا أن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد » .

ويقول : «ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع لهم » .

فالقرآن فى آية البقرة يصور لنا اليهود مع قولهم بأن الآخرة لهم ، لا يتمنون الموت ولن يتمنوه خوفا من عذاب الله ،وهم أحرص من المشركين على الحياة ولـكن هذا الحرص لن يزحزحهم من العذاب .

وهو فى آية الشورى يصور لنا المؤمنين لاعتقادهم بالثواب والعقاب فى الآخرة وجلين مشفقين منها ، وليس هذا إلا لخوفهم من العقاب .

* * *

كان القرآن يهددهم أيضاً بالعذاب الدنيوى وذلك بقصه ما كان يحدث للأمم السابقة ، أو بلفته الذهن إلى ما كان معروفا عندهم من ذلك النوع ، فالقرآن يخبرنا بأنهم كانوا يعتقدون أن الأمم المـكذبه ينزل بها العذاب فيقول :

«ولو أنا أهلـكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى »

ولذا نراه يقول : « ألم نهلك الأولين ثم نتبعهم الآخرين ، كذلك نفعل بالمجرمين ، ويل يومئذ للمـكذبين »

ويقول: «أو لم يصيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة، وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليما قديراً . ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولـكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً »

ويقول :« وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى. أفلم يهدلهم كم أهلـكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى . ولولا كلمة سبقت من ربك لـكان لزاما وأجل مسمى »

«ويقول الطبرى عند تفسيره لقوله تعالى قد خلت من قبلـكم سنن فسيروا ....أى

قد مضت مني وقائع نقمة فى أهل التكذيب لرسلي والشرك فى عاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين فسيروا فى الأرض تروا مثلات قد مضت فيهم، ولمن كان على مثل ما هم عليه مثل ذلك مني، وإن أمكنت لهم، لئلا يظنون أن نقمتي انقطعت عن عدوهم وعدوى .

* * *

هناك نوع ثالث هو التخويف بالعذاب الأخروى ، وذلك اعتمد فيه القرآن على بعض الحقائق الدينية فقد كان من القوم من يؤمن بالآخرة ويعتقد فى الثواب والعقاب .

وكان القرآن يغرب فى بعض الصور حتى ليفزع الإنسان من مجرد القراءة

قال الله تعالى : « بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً . إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً . وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً ، لاتدعوا اليوم ثبوراً واحداً وأدعوا ثبوراً كثيراً. قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاءاً ومصيراً . لهم فيها ما يشاؤن خالدين كان على ربك وعداً مسئولا » .

فانظر إلى تلك الصورة التي تمثل جهنم ممتلئه غيظاً وحقداً حتى لتزفر الزفرة فتسمع من بعيد ، وهى تتطلع إلى أولئك المكذبين فتتقد من الغيظ وتزفر من الحنق. ثم أنظر إلى مكان هؤلاء فيها وكيف يلقون فى مكان ضيق مقرنين ، وكيف أنهم يدعون الهلاك لأنفسهم حتى يتخلصوا مما هم فيه من المتاعب فيقال لهم أدعوا على أنفسكم مراراً وتكراراً . ثم تلك الحسرة وذلك الأسف الذى يريد أن يشيعه فى أنفسهم بما صوره من مقارنة بينهم وبين المتقين ، ومن مفارقة بين ما أعد لهم وأعد لهؤلاء » .

وقال تعالى « هذان خصمان اختصموا فى ربهم. فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم، يصهر به ما فى بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد، كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق . إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار يحلون فيها من

أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير .وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد »

فأنظر إلى تلك الصورة التى قطع فيها للكافر ثياب من نار والتي يصب فيها الحميم من فوق رأسه فيصهر به ما فى بطنه ويصهر به جلده، ثم أعدله من مقامع الحديد ما الله عالم به ، وهو مع كل هذا كلما أراد الخروج منها لم يمكن وأعيد إلى مكانه الأول وقيل له ذق عذاب الحريق .

وتؤثر هذه الصورة بالنفس أكثر وأكثر حين تقارن بما أعد لمن آمن فهناك جنات تجرى من تحتها الأنهار ،وهناك الأساور من الذهب،وهناك اللؤلؤ وهناك اللباس من الحرير .

وهو بعد كل هذا قد هدى إلى الطيب من القول وهدى إلى صراط الحميد .

وهناك ذلك النوع من الخوف الذى يتمثله النبى دائماً حين يجادله القوم ويدعونه إلى الإشراك أو افتراء الكذب على الله ، أو اتيانهم بقرآن غير هذا أو عصيانه الخالق فيما أمره به من التبليغ ، فقد كان القرآن ينصح له بقوله :

« قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم » .

وبقوله: « لئن اشركت ليحبطن عملك » ومن هنا نرى القرآن يجعل من علامات صدق النبي وأن القرآن منزل عليه حقاً ، أنه لم يصبه العذاب ولم ينزل به العقاب

فيقول : «أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئاً هو أعلم بما تفيضون فيه ، كفى به شهيداً بينى وبينكم وهو الغفور الرحيم »

ويقول « أم يقولون افترى على الله كذبا فإن يشاء الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور

« ويقول : ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين ».

على أنا نجد هذا اللون من الخوف ممثلا على ألسنة كثيرين من الرسل كما نجده على لسان الشيطان نفسه حين يخاصمهم فى الآخرة .

ويعطينا القرآن صورة هذه الخصومة فى قوله :

« كمثل الشيطان إذ قال للإنسان أكفر فلما كفر قال إنى برئ منك إنى أخاف الله رب العالمين » .

فالقرآن فى آية الحاقة يعتمد على تلك الحقيقة النفسية التى تؤمن بها الجماعة وهى أن الله ينال بالضر من يفترى عليه الكذب ، وهو يصور هذا الضر بقوله : لأخذنا منه باليمين وبقوله لقطعنا منه الوتين، وهذه الصورة التى يجعلها القرآن عقاباً للنبي لو تقوّل على الله،صورة تبعث الخوف حين يتخيلها الإنسان ،وتبعث الإطمئنان النفسى وهو المقصود منها هنا حين تعرف الجماعة أن الله لم ينل النبي بالعقاب .

وهنا نحب أن نلفت الذهن إلى أن القرآن كان ينتهز الفرص المناسبة ليستعين بالخوف على الايحاء بالحقائق،فنراه يقول مثلا بعد انتصار المسلمين على المشركين فى إحدى الغزوات .

« قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية فى فئتين التقتا : فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » .

فهوهنا يوحى إليهم بأن المؤمنين منتصرين لامحاله،وأن الله يؤيد بنصره من يشاء، وهو يلفت ذهنهم إلى أن فى ذلك عبرة لمن يعتبر،فهو يوحى إليهم بأن الايمان خير لهم.

وهنا ملاحظة أخيرة وهى أن القرآن كان يعرض عليهم من الصور الأدبية ما يفيد أنه لو شاء لأنزل بهم من البلايا أو المصائب الشيء الكثير ، وهو بهذا يثير فيهم عاطفة الخوف بعرض الصور التى تخيف حقاً لو أصبحت أمراً واقعاً فنراه يقول : « قل أرأيتم أن أصبح ماءكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين » .

فهذه الصورة وهى صورة انعدام الماء فى أرض صحراوية قاحلة ،تبعث فى نفس العربى الخوف،وتوجه ذهنه إلى الخالق من غير شك .

الوعـــــد :

يعرف القرآن للوعد سلطانه النفسى ويعرف أن الإنسان يطمئن إليه وإن كان أملا كاذبا أو أمنية باطلة — ما دام قد صادف هوى فى نفسه أو أثار ميلا من ميوله

أو عاطفة من عواطفه . ويعلم أيضاً أن الانسان لا يطمئن إلى ذلك الوعد وإن كان حقاً إذا لم يصادف ذلك الهوى أو هذا الميل .ومن هنا نراه يذكر لنا أن أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة تصغى لوحى الشياطين .

فيقول : « وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون . ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون » .

ويصور موقفاً فى الآخرة يبين بوضوح أن الإنسان يطمئن إلى الوعود التى تصادف هوى فى نفسه ويعرض عن التى لا تصادف ذلك الهوى وإن كانت الثانية عدلا وصدقا .

فيقول : « وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فأستجبتم لى ، فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى ، إنى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم » .

وتعبر هذه الآية وهى قوله تعالى :

« والذى قال لوالديه أف لكما أتعداننى أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين » .

عن رفض الانسان للوعود الصادقة ما دامت لم تصادف هوى فى نفسه.

يلحظ القرآن تلك الحقائق النفسية ويلحظ حقائق أخرى أبعد من هذه أثراً وهى أن الانسان يفسر ظواهر الكون وحقائق الوجود بما يحب ويهوى ، فبعض أهل الكتاب لا يعلمون الكتاب إلا أمانى .

« ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون » .

ويقول رداً على من يعتقد أن الثواب أو العقاب الأخروى كما يحب ويشتهى.

« ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً » .

بل يعمد القرآن إلى أكثر من هذا فيصور الانسان مفترياً على الله ، مؤمناً بذلك المفترى، مطمئناً إليه،لأنه الذى يحبه ويهواه .

فيقول « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون . ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون » .

وهكذا يمضى القرآن فى كثير من الآيات شارحاً لتلك الظاهرة ، مصوراً لها ، ممثلا لها فى كثير من المواقف التى نعتقد أنا لسنا بحاجة إليها الآن .

اعتمد القرآن على هذه الحقيقة النفسية فى الجدل فنراه يعد المعارضين فى الرأى أو المخالفين للنبى بالعز والرفعة فى الدنيا وبالنعيم فى الآخرة ، إن آمنوا وصدقوا بما يقول النبى عليه السلام فنراه يقول: « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ،ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » .

ويقول « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » .

كما يقول واعداً أهل الكتاب لو آمنوا واتقوا « ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون » .

أما ما يعدهم به فى الحياة الآخرة من جزيل الثواب فشىء كثير أو هو كما يقولون ما تشتهيه الأنفس وتلذه الأعين، ويكفى أن أورد هذا المثال .

قال تعالى : «الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ياعباد لاخوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون . الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين . أدخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون. يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ماتشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون. وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون. لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون » .

وهنا أمر لا بد من التنبيه اليه، وهو أمر يخص كلا من الوعد والوعيد ، ذلك هو التسويف أو تأخير إجابة الطلب ، وفى التسويف أو الإنتظار شىء من حماية الوعد أو الوعيد، وذلك شىء لجأ اليه القرآن أو اعتمد عليه فى جدله ، فنراه حين يطلب الخصوم من النبى آية دليلا على صدقه وبرهانا على أنه مرسل من عند الله حقاً » يقول : « أنما الغيب لله فأنتظروا إنى معكم من المنتظرين»

أو يخبرهم بأن ذلك بيد الله وأنه هو لايستطيع أن يجيبهم الا أن يأذن الله

فيقول «ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك، وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله فإذا جاء أمر الله قضى بالحق وخسر هنالك المبطلون »

واذا ما استعجلوا العذاب الذى وعدهم به جادين أو هازلين رد عليهم بقوله «قل إنى على بينة من ربى وكذبتم به ماعندى ماتستعجلون به إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين . قل لو أن عندى ماتستعجلون به لقضى الأمر بينى وبينكم والله أعلم بالظالمين »

كما أنه كان يكتفى أحياناً بتأكيد الوعد أو الوعيد وأنه واقع لامحاله

فيقول « وقالوا ماهى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون . واذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان

حجتهم إلا أن قالوا أئتوا بآبائنا إن كنتم صادقين . قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم الى يوم القيامة لاريب فيه ولكن أكثر الناس لايعلمون »

ويقول : إن ما توعدون لآت »

ويقول « إن ما توعدون لواقع »

وهكذا نجد القرآن قد استثمر هذه الظاهرة فى دفاعه أو هجومه كما هو واضح من الآيات السابقة .

الاستسلام :

والانسان يخضع عادة لكل ما يحس فيه القوة والعظمة ويستسلم له .

والاستسلام إلى سلطة الغير قد يكون أحياناً على غير إرادة منا ، فإن كان كذلك اعتبر من نوع آخر غير الذى نريد أن نتحدث عنه هنا . وذلك فى الغالب قد يكون نتيجة التهديد والوعيد .

أما ذلك النوع الذى نريد أن نتحدث عنه هنا فهو ذلك الاستسلام الذى يقبله الانسان طائعاً مختاراً فيرتاح له وقد يشعر باللذة فيه، وذلك مثل ذلك الاستسلام الذى يشعر به الطفل أمام الشاب ويشعر به الشاب أمام بطل قوى أو زعيم من زعماء الهيئة الاجتماعية .

والانسان عادة يخضع أمام القوى ويستسلم له ، ويثور أمام الضعيف ويتجبر عليه .

والقرآن يصور لنا هذه الظاهرة فى كثير من الآيات فيقول :

« وإذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائماً، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه، كذلك زين للمسرفين ما كانو يعملون » .

ويقول :

« وإذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مســه الشر كان يؤوساً » .

ويقول الرازى لافتا الذهن إلى تلك الظاهرة النفسية عند تفسيره لقوله تعالى : وإذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض

«واعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد العظيم على الشرك وبين أن المشركين يرجعون عن الشرك فى يوم القيامة ويظهرون من أنفسهم الذلة والخضوع بسبب استيلاء الخوف عليهم، بين أن الانسان جبل على التبدل فإن وجد لنفسه قوة بالغ فى التكبير والتعظيم وإن أحس بالفتور والضعف بالغ فى إظهار الذلة والمسكنة » .

اعتمد القرآن على هذه الظاهرة النفسية فى مجادلته الخصوم فكان يستثيرها ليبث فى النفوس ما يريد .

والأشياء التى يثير بها القرآن هذه الغريزة لتخضع النفس أمام قوة الله وجبروته كثيرة ، منها الضخم الكبير ومنها الدقيق الذى يوحى بالقدرة والتفوق — وإن كانت الاستثارة بالنوع الأول أكثر ، إذ منها خلق السماء والأرض وما فيهما .

فيقول سبحانه وتعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج .

والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب .

ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد .

والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج» .

ومنه إرسال الرياح وسوقها السحاب .

فيقول : « وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات ، كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون .

والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكداً كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون » .

ومنه رفع السماء بغير عمد وإمساكها من أن تزول، وخلق البحرين العذب والملح الأجاج .

فيقول : «الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون » .

ويقول : «وهو الذى مرج البحرين هذا عذاب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجراً محجورا ، وهو الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسبا وصهراً وكان ربك قديراً ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيراً » .

أما النوع الثانى وهو الدقيق الذى يوحى بالقدرة والتفوق فأكثر ما تكون مثيراته خلقة الإنسان نفسه

قال الله تعالى « أيحسب الإنسان أن يترك سدى . ألم يك نطفة من منى يمنى . ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى . أليس ذلك بقادر على أن يحى الموتى » .

ويقول : «أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ـ وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحى العظام وهى رميم ؟

قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم الذى جعل لكم من

الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون .أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون ».

ونلاحظ أن القرآن فى عرضه لما يثبت قدرة الخالق كان يصوره فى أشياء يحن إليها العربى بطبعه، فكان يستثير هذه الغريزة بوصفه لكل ما يعود بالنفع أو الضرر أو بكل مايطمئن إليه الإنسان أو بكل ما يخافه ويخشاه ،وإذا كنا قد عرضنا عليك هنا الصور التي تثير الإستسلام المريح فإنا قد عرضنا عند حديثنا عن استثارة عاطفة الخوف بعض ما قد يسببه الخضوع غير المريح .

السيادة أو السيطرة : —

إذا كان القرآن قد استثمر فى الخصوم غريزة الخضوع أو الإستسلام فقد استثمر أيضاً ما يضادها وهى غريزة السيادة أو محبة التسلط أو السيطرة .

وأكثر ما استفاد القرآن من هذه الغريزة إنما كان فى حملهم على ترك عبادة الأصنام ببيان أنها أحط من الإنسان وأقل منه شأناً ، وكذلك فى حملهم على ترك عبادة الملائكة والنبيين أو ما يعتقدون من آلهة أخرى، ببيان أنهم عباد أمثالهم ، وأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا. وأنهم يرجون الله ويبتغون لديه الوسيلة ، وأنهم لا يملكون الشفاعة إلا من أذن له الرحمن أو رضى له قولا .

ومن الصور التى صور بها القرآن هذه الآلهة وأظهرها فى مظهر العاجز ماجاء فى قوله تعالى

«هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفاً فمرت به،فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين . فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون . أيشركون مالا يخلق شيئاً وهم يخلقون . ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون .

وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون .
إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم
صادقين . ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها
أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون . إن ولى الله
الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين . والذين تدعون من دونه لا يستطيعون
نصركم ولا أنفسهم ينصرون . وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون
إليكم وهم لا يبصرون » .

وفى قوله تعالى :

«قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك
فى السموات ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم أن كنتم صادقين .

ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم
عن دعائهم غافلون .

وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين »

فهو هنا وبخاصة فى الصوره الأولى يعرض عليهم الآلهة فى أشكال متنوعة
كلها يدل على الضعف والعجز . فهم لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون وهم لا يستطيعون لهم
نصرا ولا أنفسهم ينصرون وهو يتحداهم ويطلب اليهم إختبار الآلهة ليقفوا بأنفسهم
على مقدار الضعف والعجز فيخبرهم أنهم عباد أمثالهم وأنهم لا يستجيبون لهم أن
دعوهم . ثم يصورهم بصورة تدل على أنهم أحط من الإنسان وأقل شأناً فيقول
ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم
آذان يسمعون بها .

وهكذا يعمد القرآن إلى بث ما يريد من أفكار . والإيحاء بما يقصد من
معتقدات حين يستثير جانب السيادة من الطبيعة البشرية .

وقد يعمد القرآن إلى صور تبدو فيها الآلهة متهافتة إلى درجة الأنحطاط ، فلا
تستطيع أن تخلق ذبابا ولا أن تدفع عن نفسها عاديته فيقول :

« يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له أن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ،وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه، ضعف الطالب والمطلوب . ماقدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز » .

على أن القرآن كان يلفت الذهن كثيراً إلى أن هذه الآلهه لا تستطيع أن تؤدى إلى العربى ما كان يرجو منها من رزق وخير فيقول :

« ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السموات والأرض ولا يستطيعون »

ويقول :

« وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ، ومن كل تأكلون لحماً طريا وتستخرجون حلية تلبسونها،وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير . أن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامه يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير » .

وهكذا نجد القرآن يستثير هذه الغريزة كما قد يستثير ما يضادها فى كل فرصة تسنح ليوحى إليهم بما يشاء ، فأحياناً يستثير فيهم غريزة السيادة وحب السيطرة. لينفرهم من عبادة الآلهة الزائفة،وأحياناً يستثير فيهم الخضوع والأستسلام ليؤمنوا بما يريد ويخضعوا لله الواحد القهار .

التهكم :

من الأشياء التى لجأ إليها القرآن فى مجادلته الخصوم اسلوب التهكم أو الأستهزاء والسخريه . وهذه فنون من القول أو ألوان من الأدب لجأ إليها الخصوم أنفسهم مع النبى ومن تابعه ، فكانوا يسخرون منهم ويستهزءون بهم ، والقرآن يصور لنا تلك المسألة على أنها ظاهرة أجتماعية تظهر فى كل عصر فيقول :

« ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الأولين وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون » .

والأثر النفسى لذلك اللون من ألوان القول إنما هو إضعاف الروح المعنوية فى الإنسان ودفعه إلى تغيير موقفه وتكييف نفسه حسب مقتضيات البيئة، ولذا نرى القرآن الكريم كثيراً ما يحض النبى عليه السلام على التمسك بموقفه وعدم الفرار مما يريدونه عليه فكان يقول له :

« فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله آلها آخر فسوف يعلمون » .

ونرى القرآن يسلك مع المستهزئين أسلوب التهديد والوعيد حتى يكفوا عن الأستهزاء فيسلم النبى والمؤمنون من أثاره .

وليس من شك فى أن أعتماد القرآن على التهديد والوعيد فى محاربة الأستهزاء أنما يدل على ملاحظة القرآن لسلطان السخرية والتهكم وتقديره له .

أعتمد القرآن على ذلك اللون مع الخصوم ، وقد تنبه بعض المفسرين لهذا وأن وقفوا منه على نوع ساذج بسيط هو ذلك النوع الذى يقوم على المجاز . فيرون تهكما فى قوله تعالى :

« فبشرهم بعذاب أليم »

وفى قوله : « بشر المنافقين بأن لهم عذاب إليماً »

وقوله : « ذق إنك أنت العزيز الكريم » .

وفى قوله : « يا أيها الذى نزل عليه الذكر أنك لمجنون » إلى غير ذلك من آيات يقوم فيها التهكم أو تقوم فيها السخرية على المجازات والإستعارات .

ولست أريد أن أقف عند هذه الآيات وأمثالها فإنما أكتفى بما مضى وأنتقل إلى لون آخر من ألوان التهكم لم يفطن إليه المفسرون أو علماء البلاغة فيما أعتقد ، ذلك اللون هو الذى يقوم على لفت الذهن إلى بعد مابين المثل العليا أو صور الكمال

وبين تلك الصورة التى يصور بها القرآن القادة والزعماء .فالقرآن قدتناول هؤلاء وصورهم بصورة تخالف ما كان معروفا فى البيئة العربية من صور الكمال . فنراه يقول عن بعض الزعماء « أرأيت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين » .

ويقول فى حق آخر :

« فلا تطع المكذبين ودوا لو تدهن فيدهنون.ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم . أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين . سنسمه على الخرطوم »

ويقول فى حق ثالث :

« ويل لكل همزة لمزه الذى جمع مالا وعدده يحسب أن ماله أخلده كلا لينبذن فى الحطمه وما أدراك ما الحطمه نار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة أنها عليهم موصده فى عمد ممدده » .

وهكذا نجد القرآن يصور هؤلاء القاده أو الزعماء بصور تحد من كبريائهم وتذهب هيبتهم من النفوس وتسقطهم من أعين الناس ، فهو يسمهم بكل منقصة ويصفهم ببعض الصفات التى ينفر منها العربى بطبعه ، فيصفهم بالسعى بين الناس بالنميمه ويصفهم بالبخل .

وأعتقد أن غرض القرآن من هذا التهكم لم يكن هجاء هؤلاء الزعماء أو السخرية بهم فحسب، وإنما كان يقصد إلى شىء آخر هو أن ينتقم للحق، وأن يبرز إلى المكان الأول ما يلقى به الناس وراء ظهورهم من المثل العليا .

التنفير

ولا نستطيع أن نتحدث على إعتماد القرآن على التنفير دون أن نبين مذهب القرآن فى علاقة الألفاظ بالانفعالات النفسية .

والقرآن يلحظ أن كثيراً من الانفعالات النفسية تظهر عند سماع الأفراد لما يحبون أو يكرهون، فإذا أثار اللفظ فى الذهن معنى أو عقيدة يحبها الإنسان ويألفها فرح واستبشر، وإن أثار ما يكره الإنسان نفر واشمأز. فنراه يذكر لنا عن الذين لا يقولون بالبعث:

« وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ».

فهو هنا يصورهم فرحين مستبشرين حين تذكر آلهتهم، وغاضبين مشمئزين حين يذكر الله وحده.

كما يذكر لنا القرآن فى آيات غير هذه أنهم إذا سمعوا ما يكرهون ولوا على أدبارهم نفوراً.

فيقول « وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا، وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً ».

بل يعطينا القرآن صورة أدل من هذه على صلة الانفعالات النفسية بالألفاظ. وهى تلك الصورة التى ينال الإنسان فيها غيره بالأذى حين يسمع منه ما يكره

فيقول « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا ».

فالقرآن هنا يعطينا صورة لانفعال قوى ثار عند سماع هؤلاء لما ينكرون.

على أن القرآن يلحظ شيئاً أكثر من هذا هو الصور الحسية التى تعبر عما بالنفس من انفعالات نفسية، فكان أحياناً يعمد إلى التصوير الأدبى للتعبير عن تلك الانفعالات فتراه يقول فى تصوير الدهشة مثلا

« فردوا أيديهم فى أفواههم ».

وفى تصويره للندم والحسرة:

« ويوم يعض الظالم على يديه »

وفى تصويره للغيظ والحنق :

« وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ » .

فالقرآن فى كل ما تقدم وفى كثير غيره يلفت الذهن إلى ملاحظته القوية لتلك الصلة القوية بين الألفاظ والانفعالات .

والتفسير النفسى لتلك المسألة هو أن الألفاظ حين تذكر تثير فى النفس ماوضع إزاءها من صور. هذه الصور قد ارتبطت بتلك الألفاظ برباط من تلك الأربطه التى يصورها علماء النفس عند حديثهم عن التداعى .

وإذا كان من هذه الصور السار والمؤلم ، كان من الانفعالات ما هو السار وما هو المؤلم أيضاً .

استثمر القرآن هذا الجانب من جوانب النفس الإنسانية فى جدله ، فكان يعتمد على استثارته لبعض الانفعالات أو لبعض الأفكار التى يكرهونها أو يخافونها ، فتراه حين يحاول التأثير عليهم ودعوتهم إلى ترك عبادة الملائكة يعتمد على فكرة شائعة فى البيئة العربية إذ ذاك هى كراهية الإناث أو البنات فتراه يقول :

« وجعلوا له من عباده جزءا إن الإنسان لكفور مبين . أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ، وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم » .

ويقول « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون . وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون » .

كما كان يعتمد على فكرة أخرى هى فكرة الشيطان ، فكان يذكر هذا اللفظ ليستثير فى نفوسهم تلك الكراهية ليبعدهم عما يريد فتراه يقول :

« إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله

فقد ضل ضلالا بعيداً. إن يدعون من دونه إلا إناثاً وأن يدعون إلا شيطاناً مريدا. لعنه الله وقال لاتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً . ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام، ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً .يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصاً » .

كما يقول مؤكدا تلك العداوة بين الشيطان والانسان ومحاولا تغيير موقفهم .

« يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور . إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » .

كما كان القرآن يعتمد على بعض الأوصاف التي لا يحبونها لأنفسهم ، فيصفهم بها لينفرهم مما هم فيه من مواقف .

فيقول : « فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا » .

ويقول : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون » .

ويقول : « وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون» .

ويقول :« وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه، وفي آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون » .

إثارة الانفعالات السارة أو المؤلمـة:

يلاحظ علماء النفس أو التربية أن الإنسان حين يكون مسرورا تقوى ذاكرته ويكون أشد تأثرا بما يلقى إليه أو بما يحسه ، وهو على العكس من هذا حين يكون متألما، إذ تضعف الذاكرة ولا يلتفت أو يتنبه تنبها تاما لكل ما يلقى إليه أو لكل ما يحس به .

ونلحظ من استعمال القرآن أنه قد اعتمد على هاتين الظاهرتين فى كثير من الآيات عند دفاعه عن المبادىء التى يدعو إليها أو حين هجومه على المبادىء التى يريد القضاء عليها .

والقرآن يستثير هذه الانفعالات بعرضه لكثير من الصور التى يسر الإنسان بها ، أو التى يتألم منها ، فنراه يعرض حينا موقفا فى الجنة يمثل المؤمنين أو المتبعين للنبى فرحين مستبشرين، وهو فى هذا العرض يستثير فى النفس كثيراً من الانفعالات السارة ، فيصف من طعام الجنة ما تشتهيه النفس، ويصف من الخدم والحشم ما يصبو إليه العربى ويتمناه .

ونراه على العكس من هذا حين يستثير الانفعالات المؤلمة ،فيعرض علينا من صفات جهنم ومن صفات طعامها وشرابها ما تشمئز منه النفس وينفر منه الطبع السليم ، ثم يعرض علينا من صور العتاب أو اللوم والتأنيب ما يؤلم المعارضين فيما نرى .

ونستطيع أن نعرض عليك بعضا من هذه الصور الأدبية التى تثير تلك الانفعالات .

وهذه صورة منها قد قارن فيها القرآن بين موقف أصحاب الجنة و أصحاب النار.

قال الله تعالى « ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ،قالوا نعم ،فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين . الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة كافرون .وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام

عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون . وإذ صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين . ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون . أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون . ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله . قالوا أن الله حرمها على الكافرين . الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون . ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون . هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون »

فهو فى هذه الآيات يصور موقفين : موقف المؤمنين وموقف الكافرين . ويصور الأولين فرحين مغتبطين قد وجدوا ما وعد ربهم حقا ، ويصور الآخرين فى موقف يطلبون فيه من هؤلاء ماءا ورزقا فيجيبهم هؤلاء بأن الله قد حرم ذلك عليهم .

وهو فى هذه الآيات يصفهم أيضاً بما يدل على شماتة أصحاب الأعراف فيهم إذ يقولون لهم : ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون . ويصورهم فى موقف الحسرة والندم إذ يقولون : هل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل .

وهناك صورة أخرى يصور فيها القرآن أصحاب النار وأصحاب الجنة وما عند الأولين من ندم وحسرة وما فيه الآخرون من نعيم وسعادة فيقول « وقالوا ياويلنا هذا يوم الدين . هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون . احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم . وقفوهم أنهم مسئولون . ما لكم لا تناصرون . بل هم اليوم مستسلمون . واقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين . قالوا بل لم تكونوا مؤمنين . وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين . فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون . فأغويناكم أنا كنا غاوين . فأنهم يومئذ فى العذاب مشتركون .

إنا كذلك نفعل بالمجرمين. إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون. ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون . بل جاء بالحق وصدق المرسلين . أنكم لذائقوا العذاب الأليم . وما تجزون إلا ما كنتم تعملون . إلا عباد الله المخلصين . أولئك لهم رزق معلوم . فوا كه وهم مكرمون . فى جنات النعيم . على سرر متقابلين . يطاف عليهم بكأس من معين بيضاء لذة للشاربين . لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون . وعندهم قاصرات الطرف عين . كأنهن بيض مكنون . فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قال قائل منهم أنى كان لى قرين . يقول أأنك لمن المصدقين . إذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون . قال هل أنتم مطلعون . فاطلع فرآه فى سواء الجحيم قال تاالله أن كدت لتردين . ولولا نعمةربى لكنت من المحضرين . أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين . ان هذا لهو الفوز العظيم . لمثل هذا فليعمل العاملون . أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم . إنا جعلناها فتنة للظالمين . إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم . طلعها كأنه روس الشياطين . فأنهم لآ كلون منها فمالئون منها البطون . ثم أن لهم عليها لشوبا من حميم . ثم أن مرجعهم لإلى الجحيم . أنهم الفوا آباءهم ضالين . فهم على أثارهم يهرعون . »

فالقرآن هنا يعطينا صورة عن موقف من مواقف الآخرة وما يكون فيه الخصوم من حسرة وندم، وما يكون بين بعضهم والبعض الآخر من لوم وتأنيب، فيرمى بعضهم الآخرين بأنهم هم الذين أضلوهم ، ويتخلى هؤلاء عن التبعة ويرمون الأولين بأنهم كانوا طاغين، وأنه لم يكن لهم عليهم من سلطان . ثم يقارن بين مافيه المؤيدون للنبى من نعيم ومافيه المعارضون من جحيم ،فهؤلاء لهم رزق معلوم، ولهم فوا كه وهم مكرمون فى الجنات ، ويطاف عليهم بكأس من معين وعندهم قاصرات الطرف . وهؤلاء فى الجحيم لايموتون إلا الموتة الأولى وطعامهم من شجرة الزقوم، وهذه الشجرة تخرج فى أصل الجحيم وشكلها من القبح والدمامة بحيث مثل له القرآن برؤوس الشياطين ،ثم هم آكلون منها فمالئون منها البطون، فإذا ما عطشوا كان لهم من الشراب شوبا من حميم، وهم بعد كل هذا وهذا ،مرجعهم

إلى الجحيم، وليس هذا إلا جزاء تكذيبهم بيوم الفصل ورميهم محمدا بالجنون وإنكارهم الوحدانية واتباعهم ما كان عليه آباؤهم من ضلال .

والقرآن يستثير هذه الانفعالات فى بعض الأحيان بما يصف به الطبيعة البشرية من أشياء تبعث فى النفس السرور كما قد تبعث فى النفس الإحساس بقوة خالق هذا السكون وعظمته فيقول الله تعالى « ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام . إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور. أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير . ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا ما لهم من محيص » فانظر إلى جمال هذه الصورة وأنظر إلى قوة هذا التعبير ، وتخيل تلك الجوارى التى كالأعلام ، وتخيل ذلك المنظر لو سكنت الريح ووقفت هذه الجوارى فى مكانها ، وما فيها من جمال ومن دلالة على القدرة ثم هذا التعبير يظللن رواكد على ظهره وما فيه من قوة . انظر إلى كل هذا وانظر كيف استفاد منه القرآن فى التأثير على المجادلين حين يعلمهم بأنه مالهم من محيص .

ثم انظر إلى قوله تعالى « وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون . والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكدا كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون » لتتبين إلى أى حد تفرح النفس العربية . فالرياح مرسلة بشرا بين يدى رحمة الله ، وهى تحمل السحاب الثقال. ثم هى مسوقة إلى بلد ميت ، فإذا أنزلت الماء أخرج الله الثمار. والقرآن ينتقل من هذا إلى إثبات ما يريد فهو قد استثار فى نفوسهم هذه الأشياء ليوحى إليهم بأن إخراج الموتى كذلك .

وهذه صورة أخرى يعتمد فيها القرآن على ما فى الطبيعة من جمال فيقول « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحى الموتى إنه على كل شىء قدير » فالقرآن هنا يستثير فى النفس ذلك الجمال الطبيعى الذى تظهر فيه الأرض حين ينزل عليها الماء ، وحين تبدأ أو تدب فيها

الحياة وهو يستثير هذا ليوحي في النفس بأن الذي أحياهذه الأرض هو الذي سيحيي الموتى لأنه على كل شيء قدير .

التوكيد :

لا أريد أن أعرض عليك كل تلك الوقفات الطويلة التي وقفها الرازي أو التي وقفها صاحب الكشاف من قبل عند تفسيرهم لظاهرة الرد على الخصوم بجانب من جوانب التوكيد ولون من ألوانه هو القسم ، لأوضح لك أن المنهج العقلي أو الأصولي كان واضحاً في تفسيرهم لتلك الظاهرة . فإنه يكفيني أن أعرض عليك صورة واحدة لكل منهم لتقف على هذا .

يقول صاحب الكشاف عند تفسيره لقوله تعالى .

وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي . . . الخ

فإن قلت : الناس قد أنكروا إتيان الساعة وجحدوه ، فهب أنه حلف لهم بأغلظ الإيمان وأقسم عليهم جهد القسم، فيمين من هو في معتقدهم مفتر على الله كذبا كيف تكون مصححة لما أنكروه ؟ قلت :

هذا لو اقتصر على اليمين ولم يتبعها الحجة القاطعة والبينة الساطعة وهي قوله ليجزي، فقد وضع الله في العقول وركب في الغرائز وجوب الجزاء. وأن المحسن لابد له من ثواب والمسيء لابد له من عقاب .

وقوله ليجزي متصل بقوله لتأتينكم تعليلا له

فصاحب الكشاف كما ترى يذهب إلى أن القسم لا يكفي في الإقناع .

أما الرازي فيقول عند تفسيره لقوله تعالى :

« والصافات صفاً .... الخ » .

« فإن قيل ذكر الحلف فى هذا الموضوع لائق ، وبيانه من وجوه :

الأول : —

أن المقصود من هذا القسم إما إثبات هذا المطلوب عند المؤمن أو عند الكافر. والأول باطل لأن المؤمن مقر به من غير هذا الحلف. والثانى باطل لأن الكافر لا يقر به سواء حصل الحلف أو لم يحصل. فهذا الحلف عديم الفائدة على كل التقديرات .

الثانى أنه تعالى حلف فى أول هذه السورة على أن الإله واحد ، وحلف فى أول سورة الذاريات على أن القيامة واقعة .

فقال : « والذاريات ذروا » إلى قوله إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع » وإثبات هذه المطالب العالية الشريفة على المخالفين من الدهرية وأمثالهم بالحلف واليمين لا يليق بالعقلاء .

والجواب من وجوه

الأول أنه تعالى قرر التوحيد وصحة البعث والقيامة فى سائر السور بالدلائل اليقينية . فلما تقدم ذكر تلك الدلائل لم يبعد تقريرها فذكر القسم تأكيدا لما تقدم ، لاسيما والقرآن إنما أنزل بلغة العرب ، وإثبات المطالب بالحلف واليمين طريقة مألوفة عند العرب .

والوجه الثانى فى الجواب أنه لما أقسم بهذه الأشياء على صحة قوله تعالى :

« إن إلهكم لواحد » .

ذكر عقبه ما هو كالدليل اليقينى فى كون الآله واحدا وهو قوله تعالى :

« رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق » وذلك لأنه تعالى بين فى قوله : » « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » أن إنتظام أحوال السموات والأرض يدل على أن الإله واحد، فههنا لما قال إن إلهكم لواحد أردفه بقوله رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق . كأنه قيل قد بينا أن النظر فى إنتظام

هذا العالم يدل على كون الإله واحدا فتأملوا فى ذلك الدليل ليحصل لـكم العلم بالتوحيد .

الوجه الثالث فى الجواب أن المقصود من هذا الـكلام الرد على عبدة الأصنام فى قولهم بأنها آلهة ، فـكأنه قيل هذا المذهب قد بلغ فى السقوط والركاكة إلى حيث يكفى فى إبطاله مثل هذه الحجة والله أعلم .

فأنت ترى أن الرازى لا يكاد يطمئن إلى أن القسم وحده يكفى فى الإقناع ، فيحاول دائماً تلمس الفروض فى نوع من ترابط الأدلة، مما يكفى لهدم أقواله أن يعترض عليه بالقسم فى أوائل ما نزل من القرآن ، وفى الرد على فرية لم يقم على كذبها أى دليل وذلك فى قوله تعالى : « ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون » وكثير غيرها مما يرد هذا القول وينقضه .

أما النفسيون وعلماء الاجتماع فيرون فى التوكيد رأياً غير هذا ، إذ هو عندهم أداة من أدوات الاستهواء ، ويقولون عنه أنه يعفى من المجادلة ، ويرون أن سلطانه على النفس يقوى بمقدار نفوذ قائله وقوة إرادته ، وبرنين ألفاظ التوكيد فى الأذن، كما يرون أنه يعتمد على صفة فى الجماعات والأفراد هى سرعة التصديق ، وعدم القدرة على التعقل ، والنقد ، والاندفاع وراء الخيال .

يقول چوستاف لوبون: «ما فى الجماعات من الإفراط فى سرعة التصديق ليس خاصا بها ، فسرعة التصديق لاشك هى التى تلائم حالتنا الطبيعية . نعم لا ينقصنا شىء من ملـكة الانتقاد فى الأمور التى تتعلق بمهنتنا ،ولـكننا عندما نتجاوز دائرة هذه المهنة الضيقة لا يبقى فينا من ملـكة الانتقاد سوى القليل .ولذا أحذر القارىء من القول بشـك اللاأدرين . فهؤلاء لا يفعلون فى الغالب غير تبديل سرعة تصديقهم موضعا » .

ويقول فى كتاب آخر :

« أما التوكيد فإنه من أهم العوامل لبث الفكر فى نفوس الجماعات متى كان بسيطا خاليا من التعقل والدليل ، وكلما كان التوكيد موجزا ومجردا عن كل ماله مسحة بالحجة والتقدير كان عظيم التأثير ، هكذا اعتمدت الكتب الدينية وقوانين جميع القرون على مجرد التوكيد

فالتوكيد قيمته يعرفها أهل السياسة الذين يريدون الدفاع عن عمل سياسى ، وأهل الصناعات الذين يروجون بضاعتهم بالنشر عنها » .

وأنت لابد قد لاحظت أن جوستاف لوبون يذهب إلى ضد ما يذهب إليه كل من الرازى وصاحب الكشاف ،وأنه يرى أن التأثير فى التوكيد إنما يكون بمقدار ابتعاده عن كل ما له مسحة بالحجة والدليل وأنهم كانوا يذهبون إلى تلمس تلك الحجج وهذه الأدلة فى كل ما كتبوه عن القسم أو عن التوكيد فى صورة القسم .

والأساس النفسى الذى ينبنى عليه التوكيد فى الغالب هو قدرة المؤكد على التأكيد فى شخصية السامع ومحاولة فصله بين الآراء التى تؤيد ما يرمى إليه واظهارها والآراء التى تخالف ما يذهب إليه وكبتها .

وأستطيع أن أضع بين يديك بعض الآيات التى اعتمد فيها القرآن أو استعمل فيها هذه الوسيلة وهى التوكيد،فى الرد على الخصوم فيقول : « فلا أقسم بالخنس . الجوار الكنس . والليل إذا عسعس . والصبح إذا تنفس . إنه لقول رسول كريم . ذى قوة عند ذى العرش مكين . مطاع ثم أمين. وما صاحبكم بمجنون . ولقد رآه بالأفق المبين . وما هو على الغيب بضنين . وما هو بقول شيطان رجيم فأين تذهبون . أن هو إلا ذكر للعالمين »

ويقول: « فلا اقسم بمواقع النجوم وأنه لقسم لو تعلمون عظيم . إنه لقرآن كريم . فى كتاب مكنون . لا يمسه إلا المطهرون . تنزيل من رب العالمين »

« ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من القبور » .

وهنا يجب أن نلفت الذهن إلى أن القرآن لم يكتف بالأسلوب المؤكد فى جدله عن المشاكل الأصلية فحسب ، بل اعتمد عليه أيضاً فى تثبيت أو محو كثير من المعتقدات والعواطف كالخوف والأمل مما لا نجد أنفسنا فى حاجة إلى التمثيل له . ويكفى أن نشير إلى بعض تلك المشاكل ،فهناك مسألةالشياطين واستراق السمع، وهناك نفى الجنون ،وهناك توكيد الوعدوالوعيد ،وهناك كوان لرسول من جلس القوم ،وأنه المتحدث بلسانهم .

التكرار :ــ

يعد البلاغيون والنحاه التكرار نوعاً من أنواع التوكيد ،ويراه النفسيون تتمة له ،ونحب أن نقف وقفة قصيرة لنرى موقف المفسرين وموقف علماء النفس منه .

إلتفت بعض المفسرين إلى أشياء فى التكرار نستطيع أن نقول أنها أقوم من تلك التى لاحظوها فى التوكيد ،إذ كانوا هنا أقرب إلى الميدان النفسى والجو الأدبى، حتى لنلحظ أحدهم وهو القرطبى قد قرب جداً من هذا الميدان .

يقول صاحب فتح البيان فى التكرار ما يأتى « ولعل وجه تكرير تفسير القرآن بالذكر فى هذه السورة الإشعار بأنه منة عظيمة لا ينبغى لأحد أن يغفل عن شكرها ،ولأن فى كل قصة أشعاراً بأن تكذيب كل رسول مقتض لنزول العذاب ،واستماع كل قصة مستدع للاذكار والإتعاظ. وهذا حكم التكرير فى قوله فبأى آلاء ربكما تكذبان عند كل نعمة عدها ، وقوله ويل يومئذ للمكذبين عند كل آية أوردها ،وكذلك تكرير الأنباء والقصص فى أنفسها لتكون تلك العبرة حاضرة للقلوب مصورة للأذهان مذكورة غير منسية فى كل آن »

ويخطو القرطبى خطوة داخل الحرم فى الميدان النفسى والجو الأدبى فيقول عند تفسيره لقوله تعالى «يا أهل الكتاب، لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله ... إلخ» اعتقاد أن عيسى عليه السلام لا أب له واجب ،فإذا تكرر ذكره منسوباً للأم استشعرت القلوب مايجب عليها اعتقاده من نفى الأب عنه ،وتنزيه الأم الطاهرة عن مقالة اليهود لعنهم الله »

ويرى النفسيون أن أثر التكرار إنما يرجع إلى حقيقة نفسية هى أن كل خاطر يمر بالذهن يترك أثراً ،هذا الأثر يتحول فى الحال إلى عمل أوفكره، وكلما تكرر الأثر قوى سلطانه واشتد . يقول الأستاذ قنديل « ويحدث الأثر النفسى المكتسب فى كل عملية عقلية ،فتكرار عملية ما يزيد أثرها عمقاً ويحدث فى المرء ميلا إلى أن يسلك مسلكا خاصاً مناسباً لهذا الأثر الذى تركته ،وكلما إزداد تكرارها إزداد الميل تمكناً ورسوخاً » .

والقرآن يلحظ هذ الظاهرة النفسية، فنراه يفرض الرقابة على الأنصار حتى لا يكون لأحاديثهم من الأثر النفسى ما يملك عليهم عقولهم أو نفوسهم. فنراه يقول للنبى صلى الله عليه وسلم « وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره، وأما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين » .

ويقول المؤمنين : «وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزء بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره أنكم إذا مثلهم أن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعاً » :

ويتضح ملاحظة القرآن لهذه الظاهرة النفسية فى حظره على المسلمين تناول آلهة المشركين بالسب أو القذف حتى لا يسب هؤلاء الله فيقول : « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون » وكذلك من تسجيله لحيل

الخصوم حين يلجأون إلى نوع من التشويش يصرف عنهم أثر قراءة القرآن . يقول بعضهم لبعض «وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون».

وقوة التكرار فى تثبيت المعتقدات والآراء لا يستطيع أحد من المحدثين أن يجهلها — خاصة وقد فشت طرق الاعلانات المصورة وغير المصورة ، وثبت أثرها بالتجربة. يقول جوستاف لوبون :

«والتكرار من القوة بحيث يجعل الرجل يؤمن بالكلمات التى يكررها ويسلم بالأفكار التى يعرب عنها عادة ... ولا يلبث الرجل السياسى بعد إقباله على آراء مفيدة له أن يعتنقها بتأثير نضاله عنها حتى يصبح غير قادر على تبديلها عندما تقضى منفعته ذلك التبديل » .

اعتمد القرآن على هذه الظاهرة فى جدله ، ولسنا بحاجة إلى التمثيل لها ، فالقرآن مملوء بالتكرار حتى لقد انتقد من جهته ، وقام كثيرون من علماء الإسلام بالرد على هذا .

المثل

اعتمد القرآن على الأمثال فى الجدل فكان يشرح فى بعضها المواقف كما كان يحيل الخصوم على حال تشبه تلك التى يدافع عنها ليكون منهم التسليم ، فنراه فى الدفاع عن الوحدانية يضرب المثل فيقول : ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشا كسون ورجلا سلماً لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون »

ونراه فى الدفاع عن رأيه فى عيسى يضرب لذلك مثلا فيقول :

« إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون »

ونراه حين يقارن بين الذين يعتمدون على الله وبين الذين يعتمدون على غيره من الآلهه ، يضرب مثلا فيقول : « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت أتخذت بيتاً وأن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » .

كما نراه يضرب المثل أحياناً فى التهكم فيقول :

« مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لايهدى القوم الظالمين » كما يقول :

« واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب أن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون »

وكانت المعارضة تضيق صدراً بهذه الأمثال يضربها القرآن الكريم فى حقهم ويذهبون إلى أن هذه الأمثال من عند محمد لأن المولى سبحانه وتعالى أعظم وأجل من أن يعتمد على الأمثال فى تقييم مسلك الخصوم .

ورد القرآن الكريم عليهم هذا المذهب حين قال :

« إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما ، بعوضة فما فوقها .

فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم .

وأما الذين كفروا فيقولون : ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟ يضل به كثيراً ، ويهدى به كثيراً ، وما يضل به إلا الفاسقين . الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون فى الأرض — أولئك هم الخاسرون » .

* * *

القصة

والقصة هى الوسيلة الفعالة بحق ، وهى التى استثمرها القرآن الكريم فى كل موقف تقريباً . استثمرها فى شرح الدعوة وبيان العقيدة ، واستثمرها فى موقف

القوى المضادة من محمد عليه السلام واستثمارهم للكثير من الظروف فى خلق المشكلات ووضع العقبات فى طريقه .

وكان الاستثمار الأكبر للقصة التاريخية — وبخاصة تلك التى تدور حول موسى عليه السلام ، وذلك لوجود أهل الكتاب والاستئناس بهم فى مسائل العقيدة الدينية .

استثمر القرآن القصة التاريخية فى كل مجال تقريباً ، وبخاصة فى مواقف الأقوام من الرسل ، وفى مواقفهم من قضية التوحيد ، وفى بيان السنن التاريخية التى تكشف خاتمة المطاف ، ونهاية القوى المضادة والمكذبين .

وأكثر قصص سورة الأعراف ، وسورة يونس ، وسورة هود ، وسورة إبراهيم ، إنما تدور حول هذه القضايا .

واستثمر القرآن الكريم أيضاً القصة الأسطورية ، وكان استثماره لها فى مجال عملية البعث وإمكانية حدوثه وقيام الناس للثواب والعقاب فى الحياة الآخرة .

ونضرب لذلك مثلا قصة أهل الكهف ، وقصة إبراهيم والطير ، وقصة الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها .

والقصتان الأخيرتان من قصص سورة البقرة .

ولن نمضى أبعد من هذا فى الحديث عن هذه الوسيلة ، وذلك لأننا كما سبق أن ذكرنا ، قد أخرجنا للناس كتابا فى هذا الموضوع هو كتاب « الفن القصصى فى القرآن الكريم » .

فى هذا الكتاب ، الذى أخرجناه قبل هذا وإن كنا قد ألفناه من بعده ، فصول عن كل ما يدور حول محمد عليه السلام .

* * *

خـــاتمة

هذه هى قصة محمد عليه السلام مع القوى المضادة ، وهى قصة توجد فى كل زمان ، وفى كل مــكان .

توجد هذه القصة كلما دعا الدعاة الصادقون ، العاملون فى سبيل الصالح العام ، المدركون لمــا فى المجتمع الذى يعيشون فيه من فساد ، والعاملون بإخلاص بالسبل الموصلة إلى التخلص من هذا الفساد ،والمحققة للحياة الأفضل فى هذا المجتمع .

إنها توجد كلما كانت هناك مرحلة حضارية جديدة تستلزم تغيرات جذرية وتستهدف غايات كبرى أهمها أن يعيش الناس فى يسر ورخاء ، وأن يمارسوا الحياة اليومية على أسس من قيم أخلاقية ودينية .

وهذا الذى صورناه من موقف محمد بن عبد الله عليه السلام من المعارضة ليس إلا سنة الله فى خلقه . ليس إلا الظواهر الإجتماعية التى تحدث مع كل قائد روحى عظيم فى كل مــكان تهيأت له فيه القيادة ، وكانت التغييرات الجذرية فيه ضرورة حياة .

وما أشبه الليلة بالبارحة ، فما نحن فيه اليوم ليس إلا مرحلة تغييرات جذرية فى المجتمعات العربية .

وما أعرضه اليوم من قصة لمحمد بن عبد الله عليه السلام مع المعارضة ليس إلا التراث التاريخى المقدس الذى يجب أن نستلهمه فى هذا المقام .

إنه الصورة الصادقة للكيفية التى تمر فيها الدعوة الجديدة منذ أن تبدأ حركة سرية إلى أن تصبح حقيقة قائمة تشاهد بالعيان ، ويؤمن بها كل إنسان .
وإنى لأرجو أن يكون ما كتبت فيه الكفاية .

وأسأل الله التوفيق .

الكتاب التالى للمؤلف

القرآن والدولة

كتب المؤلف

أولا : الدراسات القرآنية :

١ — الفن القصصي في القرآن الكريم

٢ — القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة

٣ — هكذا يبنى الإسلام

٤ — محمد والقوى المضادة

ثانياً : كتب الدراسات الأدبيةواللغوية :

١ — احمد فارس الشدياق وآراؤه الأدبية واللغوية

٢ — أبو الفرج الاصبهانى الراوية

٣ — دراسات فى المكتبة العربية

ثالثاً : كتب التراجم :

١ — الكواكبي حياته وآراؤه

٢ — عبد الله النديم ومذكراته السياسية

٣ — على مبارك وآثاره

محتويات الكتاب

صفحة

رقم الإيداع ٥٥٢٧ لسنة ١٩٧٢

المطبعة الفنية الحديثة

[illegible]





